شذرات من التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

الأستاذ الدكتور
عبد الفتاح عاشور
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
ورئيس قسم الدراسات الإسلامية
كلية التربية جامعة الأزهر

دار البيان
٢٠٠٠م

دار البيان
للطبع والنشر والاستيراد والتصدير
بطاقة ضريبية رقم ١٢٦٧٠٠ م. نصر ثان
ملف ضريبي ٥/٤٢/٢٤/٣٦٥



قسيمة - حي الزهور - مدينة نصر / القاهرة - ت : ٤٠٤٠٢٦٨
عمارات الجبل الأخضر أمام نادي السكة - مدينة نصر - القاهرة - ت وفاكس : ٤٨٢٢٤٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــــــة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلـــل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمـــدًا عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، ونبيه وحبيبه ، بلـــغ الرســالة ، وأدى الأمانة ، ونصح للجماعة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد ربه حتـــى أتاه اليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه الذين آمنـوا به وعزّروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أُنـــزل معـــه ، أولئـك هـم المفلحون .

" وبعـــــــــد "

فهذه " شذرات من التفسير الموضوعي للقرآن الكريـــم " أبـــرَزَتْ عظمة الإسلام وبينت أنه الدين الحق الجدير بالبقـــاء ، وأنـــه لا ســعادة للإنسانية إلا في ظل ما جاء به هذا الدين العظيم من عقيدة تســكب فـــي النفس الأمن والاستقرار وتُشْعِر الإنسان بقيمته في هذه الحياة ، وتربـــط بدايته بنهايته في حياة هادئة وادعة فيها الرضا عن الله الرحيـم الرحمن، ومن نبع هذه العقيدة تأتي الشريعة طريقًا لحياة مستقيمة واضحـــة تحـــدد علاقة الإنسان بربه في عبادات فيـــها الخشـــوع والخــــضوع لله رب العالمين يتحرر بها العبد من كل عبودية لغير مولاه ، كما ترسم الشريعة منهجًا لا يطاوله منهج في علاقة الناس بعضهم ببعض فيما عُــرف فــي الفقه الإسلامي بالمعاملات والمواريث والنكاح والجهاد وما إلى ذلك ممــا هو مفصل في شريعتنا الغراء ، وعلى أساس من عقيدة الإيمان يقوم بناء

أخلاقي مشرق بنور الوحي الإلهي مقصده ربط الإنسان بأخيه الإنسان برباط المحبة والأخوة الصادقة، وما في ذلك من صدق، وأمانة، ووفاء، ونجدة وكرم ومروءة، وطيب لسان، وحسن عشرة، وأداء حقوق.

وإنما تيسر لنا إبراز هذه المعاني من خلال دراسة ربما كانت جديدة في الدراسات القرآنية عُرِفت بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم . فيما يتناول المفسر موضوعًا أو قضية من خلال الآيات القرآنية يجمعها من كتاب الله فإن القرآن يفسر بعضه بعضًا . وما أُجمل منه في مكان فصّل في مكان آخر . وما أُطلق هنا قُيِّد هناك ، وقد يحتاج المفسر إلى ما جاء في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن السنة هي المذكرة الإيضاحية والبيان الجلي لما جاء في القرآن الكريم قال تعالى : { **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**}(١) وحينذاك يبدو له الموضوع مكتمل البناء يقسمه إلى عناصر ، يؤدي كل منها للآخر ، وبذلك يشرق القرآن على دنيا الناس متلألئ القسمات ، واضح المعالم ، يقود خطاهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وقد ساهمت أقلام مخلصة ، في تقديم هذا اللون من التفسير ، وتناولت كثيرًا من القضايا ، لا يتسع المقام لذكرها وذكرهم ، فجزاهم الله خيرًا وتقبل منهم هذا الجهد الطيب ، وهاأنذا أُدلي بدلوي معهم ، وأغترف من بحر القرآن العظيم كما اغترفوا ، أروي معهم ظمأ أمتنا بل ظمأ الإنسانية إلى معرفة طريق الحق ، والوصول إلى شاطئ الأمان ، بعد أن شقي الإنسان ببعده عن ربه ، وهجره للقرآن منهجًا وطريقًا، وسوف أتناول بإذن الله في هذه

---

(١) – النحل ١٦ / ٤٤

الدراسة القرآنية في التفسير الموضوعي بعض الموضوعات ، كالإنسان في القرآن ، والمرأة في القرآن والأخلاق في القرآن، وما إلى ذلك من موضوعات تتناسب في اختيارها وعدد صفحاتها مع ما نريده من إبراز لعظمة القرآن وتكامل موضوعاته التي تتناول كل جوانب الحياة، فلا تترك منها جانبا إلا وهو مشرق بنور الله ، ينير للإنسانية طريق السعادة في الدنيا والآخرة، ولكن يبدو أننا بحاجة إلى نبذة مختصرة بين يدي هذه الشذرات نتعرف فيها على التفسير الموضوعي ما هو ؟ وكيف نشأ ؟ وكيف وصل إلى ما هو عليه الآن حتى أصبح معلّمًا واضحًا يدعو الكثير من الباحثين إلى أن يجعلوه منطلقًا لتقديم الفكر الإسلامي في حُلّة مشرقة بآيات القرآن الكريم . أسألُ الله أن يجعل هذا القرآن ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء همومنا وذهاب غمومنا وأن يفتح به قلوبًا ويشرح به صدوراً تحمل رايته ، وتحمي أركانه ، وتنشره في العالمين ، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . والحمد لله رب العالمين.

أ. د / عبد الفتاح عاشور

" بَيْنَ يَدَيِ الشَّذَرَاتِ "

شذرات من التفسير الموضوعي للقــرآن الكريــم " ؟؟ مــا هــي الشذرات؟ وما هو التفسير؟ وهل هناك فرق بينه وبين التــأويل ؟ ومــا معنى أن التفسير موضوعي ؟ تساؤلات تجيب عليها بيــن يــدي هــذه الدراسة ، قبل أن نلمح إلى نشأة التفسير الموضوعي وتطوره ، ووصوله إلى ما هو عليه الآن ..

يقول ابن منظور : " الشَّذْرُ : قطع من الذهب يُلقط من المعدن مــن غير إذابة الحجارة ، ومما يصاغ من الذهب فرائد يفصــل بــها اللؤلـؤ والجوهر "(١) وقريب منه قول صاحب القاموس المحيط : " (الشَّــذْر) قِطَعٌ من الذهب تُلْتقط من معدنه بلا إذابة ، أو خرز يفصل بها النظم ، أو هو اللؤلؤ الصغار "(٢) فنحن إِذَنْ سنلتقط من كنوز القــرآن وجواهــره ولآلئه آيات ننضدها ، وننظمها عقوداً تأخذ بالقلوب والأبصار ، حين تبدو لنا هذه الآيات وقد جُمعتْ تحت عنوان واحد، فــي موضــوع متكــامل، يرشدك إلى أن هذا القرآن من عند الله .

فما كان لكلام متفرق في ثلاث وعشرين سنة ، يكتب جزء منه كلما اقتضت المناسبة أو عَنَّ لصاحبه أن يكتب شيئًا ما، ثم يكون في النهايــة موضوعًا له قيمته ، إلا أن يكون هذا كلام الله العليم الخبير الذي أنــزل هذا الوحي على نبيه محمد صلى الله عليه وســلم مفرقًــا عــبر الأيــام

---

(١) لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظــور الأفريقــي المصري م/٤ مادة " شذر " ص ٢٢٢٠ ط دار المعارف .

(٢) القاموس المحيط : لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزا بادي جـ٢ صــ٥٧ ط مؤسســة الحلبي وشركاه بالقاهرة .

والليالي، تنزل منه السورة أو الآيات أو الآية أو بعض الآية فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لكُتَّاب الوحي : ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا فلما اكتمل القرآنُ نزولاً ورتَّبه جبريل بأمر من الله في العرضة الأخيرة في رمضان من العام العاشر من الهجرة بدا هذا القرآن محكم السَّرد ، مترابط الحلقات ترتبط كل آية بسابقتها ولاحقتها ، وتؤدي كل سورة لما بعدها في تناغم وتناسق فسبحان من أنزله " قرآنًا عربيًا غير ذي عوج لعلهم يتقون " .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عما خفي عليهم من معاني هذا القرآن وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبين لهم ذلك بل كان يوضح لهم ما جاء فيه مجملاً كما كان من تفصيله لأحكام العبادات وكثير من ألوان المعاملات ، وما إلى ذلك مما يحتاج إلى بيان ، وهذا هو التفسير في معناه اللغوي : فإنه في اللغة : الإيضاح والبيان ، أما معناه الاصطلاحي عند علماء علوم القرآن فقد عرفوه بتعريفات عدة أقربها أنه : علم يُبْحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية . ومثل هذا التعريف قد يصدق على ما أثر عن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتهد فيه الصحابة أو التابعون ليبينوا للناس ما خفي عليهم من معاني القرآن ، وقد يصدق كذلك على ما ذكره مَنْ بَعْد هؤلاء فيما عرف بالتفسير بالرأي، لكن ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من هذا القبيل فهو ليس بحثًا عن أحوال القرآن وما فيه من ألوان الهداية والبيان من حيث دلالة ألفاظه وعباراته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية للرسول صلى الله عليه وسلم ، إنما بيانه صلوات الله وسلامه عليه للقرآن هو الشق الثاني للوحي ، لأنه

كما قال تعالى : {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى،مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى،وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى،إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى،عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى } [١] وفي الحديث " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه "[٢] وعن المقدام بن معد يكرب أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : "يوشك الرجل متكئا على أريكته يُحدَّث بحديث من حديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله ..."[٣]

ولذلك كانت طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله ، قال تعالى : "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ"[٤] وكان الأمر من الله بالأخذ عنه – أمرًا وتركًا كما قال سبحانه : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[٥]

فاتضح لنا من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم مُبيِّنٌ للقرآن ومفصل له ، وبيانه وتفصيله بل ما أضاف من أحكام غير ما جاء في القرآن إنما كان ذلك كله وحيًا من الله ، وليس من قبيل إعمال الفكر وإجالة النظر في الآيات لبيان معناها بعد تحصيل جملة من العلوم والمعارف كما هو الشأن فيمن فسروا كتاب الله بقدر طاقتهم البشرية حتى إنهم حين ينتهون من تناولهم للآيات يقولون : والله أعلم .

---

(١) النجم ٥٣ / ١-٥ .

(٢) رواه أبو داود جـ٤ صـ ٢٧٩ .

(٣) رواه ابن ماجه ٦/١ ، وأبو داود ٢٧٩/٤ ، والبيهقي ٥/١

(٤) النساء ٨٠/٤

(٥) الحشر ٥٩ / ٧

لأن هذا كان منهم اجتهادًا في فهم كلام ربهم بحسب ما اهتدوا إليه في دراستهم ونظرهم في الآيات الأخرى وفيما بلغهم من سنة رسولهم صلى الله عليه وسلم أو ما أثر عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم الذين شاهدوا نزول هذا القرآن وعاشوا أسباب نزوله والمناسبات التي جاءت فيها الآيات ، إلى غير ذلك من دلالات الألفاظ على معانيها ..

وإذا كنا قد عرفنا ما هو التفسير لغة واصطلاحًا ، وعرفنا أن بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن تفسير بالمعنى اللغوي وهو البيان والإيضاح ، لا بالمعنى الاصطلاحي الذي تعارف عليه علماء التفسير وعلوم القرآن ، فلنعرف أيضًا ما هو التأويل لغة واصطلاحًا ، وهل هناك فرق بينه وبين التفسير ؟

والتأويل لغة كما يقول الجوهري : تفسير ما يؤول إليه الشيء ، مأخوذ من الأول وهو الرجوع ، تقول آل الشيء يؤول أولًا ومآلاً بمعنى رجع[1] .

أما في الاصطلاح فإن أقرب ما قيل فيه ما ذكره البغوي وغيره إذ يقول : التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط[2] .

وما أرى إلا أن التفسير كذلك فهو غوص في بحار القرآن لاستخراج لآلئه ، لا الوقوف عند ظاهر الآيات دون النظر إلى سياقها

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة أول ١٣ / ٣٣

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢ / ٢٢٢

وأسباب نزولها وما تدل عليه ألفاظها ، وهذا هو الذي فعله مجاهد تلميذ ابن عباس رضى الله عنه ، وسار عليه الإمام الطبري في تفسيره فهو حين يذكر الآية ليفسرها يقول : القول في تأويل قوله تعالى كذا ، وتأويل كذا ، وبعد أن يذكر رأيه في الآية يقول : وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل ، فيذكر من أقوالهم ما يؤيد ما ذهب إليه ، وهذا هو الزمخشري يسمي كتابه : " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ومن بعده الإمام البيضاوي سمى تفسيره : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، والقاسمي سمى تفسيره : محاسن التأويل . مما يدل على أن التفسير والتأويل بمعنى واحد ، وإن قال بغير ذلك بعض العلماء في القديم والحديث . مما لسنا في حاجة إلى ذكره ، لأننا نقدم دراسة مختصرة بين يدي موضوعات سندرسها من خلال ما يسمى بالتفسير الموضوعي ، وهذا يجعلنا نستعرض ألوان التفسير بحسب مناهج المفسرين لنرى موقع التفسير الموضوعي من هذه المناهج ، وأنواع التفسير أربعة :

١- التفسير الإجمالي : وفيه يعرض المفسر لجملة من الآيات مبينًا ما فيها من دروس وعبر ، دون أن يخوض في تفصيل يحلل الكلمات أو يناقش الأحكام إنما هو فقط يذكر هداية الله في كتابه ، ومن ذلك تلك الأحاديث التي تقدمُ للتلاوة القرآنية في الإذاعة أو التليفزيون ، أو تلك التي تلقى للعامة فى المساجد ونحوها .

٢- التفسير التحليلي : وفيه يقف المفسر أمام الآية أو الآيات يذكر أسباب نزولها إن كان لها سبب نزول ويربطها بالآيات السابقة ويتناولها كلمة كلمة ذاكرًا لمعنى كل كلمة ومبينًا موقعها الإعرابي ، وقد يتناول ما

في الآية من أحكام إن كتب الايات تحمل بعض الأحكام ، وكل مفسر تغلب عليه ثقافته ونزعته ، فالمحدث تغلبه صنعته في علم الحديث فيهتم بالأسانيد والآثار واللغوي يهتم باللغة ، والبلاغي يوجه همه إلى وجه البلاغة في القرآن ، والفقيه يصول ويجول في بيان آراء الفقهاء وفي يرجح مذهبه ، وهكذا وجُلِ كتب التفسير من هذا اللون ومنها تفسير الطبري وابن كثير والزمخشري والبيضاوي والقرطبي وغيرهم من المفسرين إلى يوم الناس هذا ، يتبعون القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، أو سورة من سوره ، أو جملة من آياته وفق هذا المنهج الذي ذكرناه .

٣- التفسير المقارن : وفيه يجمع المفسر أقوال المفسرين في آية أو جملة من الآيات ليقارن بينها مرجحًا منها ما يرى أنه أقرب إلى هداية القرآن ودلالاته وذلك كمن يجمع أقوال المفسرين في آيات الصيام في سورة البقرة ، أو آيات الحج في سورة الحج ، وهذا اللون قريب من التفسير الموضوعي إلا أنه يتوسع في النقل من أقول أئمة التفسير ويقارن بينها ويختار منها ما ترجحه الأدلة . وإن كان هذا من خلال موضوع واحد .

٤- التفسير الموضوعي : ولعل فيما سبق من سطور ما يرشد إلى هذا اللون ، إذ هو جمع للآيات في موضوع واحد ، والنظر فيها لوضع كل مجموعة منها في عنصر من عناصر الموضوع ، ثم يأخذ المفسر في عرض موضوعه من خلال هذه العناصر ، مستعينًا في ذلك بكل ألوان التفسير السابقة :-

فقد يحتاج إلى إجمال معنى الآية ، أو بَسْطها ، أو استطلاع آراء المفسرين فيها ليصل إلى تحديد ما ترشد إليه هذه الآيات ، وبين يديه هَدْيُ النبوة وما أثر عمن شاهدوا نزول هذا القرآن وأدركوا أسراره .

وفهموا مراميه وهؤلاء هم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين يستوعب المفسر هذه العناصر يكون قد عرض موضوعا متكاملاً،مشرق القسمات يزود عن حياض القرآن كيد الكائنين . وشبه المبطلين ، والمكتبة الإسلامية فى حاجة ماسة إلى هذا اللون من التفسير إذ لا توجد منه سوى أبحاث متناثرة ، لا يقوم الكثير منها على منهج علمي واضح ، وربما كانت أقرب إلى الدراسات القرآنية ، أو الدراسات الإسلامية العامة أو ما شابه ذلك . وإذا كنا نجد بكثرة موسوعات في التفسير التحليلي فإننا نأمل أن نجد ذلك في التفسير الموضوعي ، حين تُصنف موضوعات القرآن ، وترتب ، ويتناولها المتخصصون بالشرح والإيضاح دون الخروج على ما جاء في آيات القرآن إلى مباحث فرعية قد تطغى على الهدف الذي من أجله كانت الدراسة كما حدث ذلك في التفسير التحليلي حين تحول التفسير إلى مباحث في اللغة أو الفقه أو الفلسفة أو ما شابه ذلك عند كثير من المفسرين .

وإذا ما قيل :" التفسير الموضوعي" فإنه يطلق على هذا اللون من التفسير وإن كان هناك من أدخل في التفسير الموضوعي ما يسمي"بالوحدة الموضوعية في السور القرآنية" بمعني أن كل سورة لها هدف أو عدة أهداف تدورآيات السورة كلها حول هذا الهدف أو هذه الأهداف، وهذا يختلف عما عرف بعلم المناسبات حين يربط المفسرون بين سورة وسورة أو آية وآية لأن هذا كما تري بحث في أجزاء السورة وذاك بحث في مجمل السورة، وإن كان الباحث قد يحتاج إلي هذا العلم كما يحتاج إلى ألوان التفسير الأخرى ليشرح الهدف أو الأهداف التى يقوم عليها بناء السورة التي يريد تفسيرها تفسيرا موضوعيا.

نشأة التفسير الموضوعي وتطوره :

عرفنا أن التفسير الموضوعي معناه : معالجة موضوع واحد تحمله آيات مبثوثة في كتاب الله ، تجمع هذه الآيات وتقسم إلى عناصر يؤدي كل منها للآخر ، وبذلك تتضح جنبات القضية وضوحًا تامًا ، ولا يبقى فيها مجال لشبهة أو خفاء ... أو هو معالجة موضوع واحد أو عدة موضوعات في سورة من سور القرآن ، فيما عرف بالوحدة الموضوعية في السور القرآنية.

وقد أشرق هذا اللون مع غيره من ألوان التفسير من يوم نزول القرآن الذي أتى في كثير من آياته يفسر بعضه بعضًا ، من ذلك ما أجمله في قوله تعالى **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ}** ([1])

وفصله فيما نزل في سورة الأنعام **{ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ }** ([2])

ومن ذلك ما جاء مجملاً في قوله : **{ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ}** [[3]] وقد فصل ذلك فيما ذكر من رسله وأنبيائه ..

وكثيرًا ما تنزل الآيات توضح بعض ما خفي على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنا تبدو أهمية معرفة سبب النزول فهو يعين

([1]) سورة النحل : ١١٨

([2])الأنعام : ١٤٦

([3])النساء : ١٦٤

على فهم المراد من الآيات ، إذا جمعت في موضوع واحد ، ومثال ذلك ما أخرجه الحاكم عن أُبيّ بن كعب أنه لما نزلت في بيان عِدد النساء آية سورة البقرة :{ **والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ**} [1] والآية الأخرى {**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**} [2] قالوا: قد بقيت عِددٌ لم تذكر ، وهي عِدد الصغار والكبار فنزل قول الله : {**وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**} [3]

وفي السنة النبوية نلمح هذا الجمع بين الآيات لاستخلاص المعنى المراد، من ذلك " ما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية { **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**}[4] شقّ ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه؟ قال : إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح:{**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**} [5]

فالكلمة في القرآن قد يكون لها أكثر من معنى ، وجمعها يوضح المعنى المقصود كما نرى في هذا الحديث الشريف .

ومن ذلك ما جاء في السنة من قواعد تفسيرية كقوله صلى الله عليه وسلم " ويل : وادٍ في جهنم "(6)

---

(1)البقرة ٢٢٨

(2)البقرة ٢٣٤

(3)الطلاق : ٤

(4)الأنعام : ٨٢

(5)لقمان :١٣

(6) رواه الترمذي بسند حسن من حديث أبي سعيد الخدري .

وكقوله صلوات الله وسلامه عليه : "كل حرف يذكر من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة "(١) إلى غير ذلك مما جاء في السنة المطهرة مما يبين أن اللفظة القرآنية إذا تتبعناها في القرآن الكريم قد يتحد معناها ، وقد يختلف ، وهو ليس اختلاف تضاد إنما هو اختلاف يؤدي في النهاية إلى أن يكون المعنى واضحًا كل الوضوح ..

وعلى هذا الدرب سار الصحابة والتابعون عليهم رضوان الله :

من ذلك ما كان من أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أراد عمر أن يقيم حد الزنا على امرأة وضعت بعد زواجها بستة أشهر لأن العادة جرت أن تكون مدة الحمل تسعة أشهر ولكن عليًا ذكره بقول الله تعالى :{ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [٢] مع قوله تعالى : { والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين } ومعنى ذلك أن المدة الباقية للحمل بعد الحولين ستكون ستة أشهر ، وبهذا يدرأ الحد عن المرأة ، فاستجاب لذلك عمر (٣).

وهذا ما دعا العلماء في القرون الأولى وما بعدها إلى النظر في الآيات المتصلة بموضوع واحد لجمعها ودراستها ، فقد ألف في الناسخ والمنسوخ : قتادة بن دعامة السدوسي – المتوفي سنة ١١٨ هـ

وأبو عبيد القاسم بن سلام – المتوفي سنة ٢٢٤ هـ

وأبو جعفر النحاس – المتوفي في سنة ٣٣٨ هـ

وألف في معاني القرآن :أبو زكرياء الفراء–المتوفي سنة ٢٠٧ هـ

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد أيضًا .

(٢)الأحقاف : ١٥

(٣) الإحكام في أصول الأحكام : لابن حزم الظاهري ٢ / ١٢٥ .

وألف فى غريب القرآن:أبو بكر السجستاني–المتوفي سنة ٣٣٠ هـ
والراغب الأصفهاني – المتوفي سنة ٥٠٣ هـ
وألف فى إعجاز القرآن : الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ هـ
والرماني المتوفي سنة ٣٨٦ هـ
والخطابي المتوفي سنة ٣٨٨ هـ
والباقلاني المتوفي سنة ٤٧١ هـ
والجرجاني المتوفي سنة ٤٧١ هـ
وألف في أسباب النزول:علي بن المديني المتوفي سنة ٢٣٤هـ
وأبو الحسن الواحدي المتوفي سنة ٤٦٨ هـ
وألف في أقسام القرآن :ابن قيم الجوزية المتوفي سنة ٧٢١ هـ
و ألف في أحكام القرآن الجصاص المتوفي سنة ٢٧٠ هـ
وابن العربي المتوفي سنة ٥٤٣ هـ

ولعلنا نلمح أن العلاقة العامة هي التي جمعت بين الموضوع الواحد كما نرى في أحكام القرآن فالمناسبة بين أطراف الموضوع أن الآيات تبحث في حكم شرعي وإن كان منها آيات في الصلاة وأخرى في الزكاة أو الصيام أو الحج ، ولهذا اتجه التفسير الموضوعي أخيرًا نحو التحديد الموضوعي ، وهذا يؤدي إلى دراسة الموضوع عن قرب وتجلية معانيه بصورة أوضح .

وقد أثنى على هذه الطريقة كثير من العلماء منهم الشيخ محمود شلتوت رحمه الله الذي قسَّم طرق التفسير إلى طريقتين ، انتقد أولاهما وهي الطريقة التقليدية التي يتتبع المفسر فيها القرآن آية بعد آية يفسر كل آية كما نرى في كتب التفسير المعلومة لنا ثم قال : أما الطريقة الثانية فهي أن يعمد أولاً إلى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد ، ثم

يضعها أمامه كمواد يحللها ويفقه معانيها ، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض ، فيتجلى له الحكم ، ويتبين المرمى الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع ، وبذلك يضع كل شئ موضعه ، ولا يُكره آية على معنى لا تريده . كما يغفل عن مزايا الصَّوْغ الإلهي الحكيم ، وهذه الطريقة في نظرنا هي الطريقة المثلى ، وخصوصًا في التفسير الذي يراد إذاعته على الناس ، بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية ، وإلى أن موضوعات القرآن ليست نظريات بحتة يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مُثُل واقعية فيما يحدث للأفراد والجماعات من أقضية ، ويتصل بحياتهم من شئون ، وهي تمكن المفسر من علاج موضوعات عملية كثيرة ، كل موضوع فيها قائم بنفسه ، لا يتصل بسواه، ولا يختلط بغيره ، فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة ، ويعرفون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعية " كالقرآن وأصول التشريع، والقرآن والعلم ، والقرآن والأسرة ، والقرآن وأدب الاجتماع ، والقرآن والسياسة ، والقرآن والتضحية ، والقرآن والبر . وهكذا "(١) .

وبدأت دراسات ناضجة في هذا الاتجاه الطيب . من ذلك ما كتبه الدكتور أحمد الشرباصي من موضوعات كان ينشرها في مجلة منبر الإسلام ومجلة الأزهر ومنها الموضوعات التالية : حديث القرآن عن اللغو ، العزة في القرآن الكريم ، الرجولة في القرآن ، القلة والكثرة في القرآن ، حديث القرآن عن التطيُّر ، حديث الفتوَّة في القرآن ، حديث الزلزال في القرآن ، حديث الغرور في القرآن ، حديث الترف في القرآن(٢) إلى غير ذلك من الأحاديث النافعة .

وقد كتب الزميل أ.د / عبد الستار فتح الله سعيد ، دراسة ممتعة في كتابه : المدخل إلى التفسير الموضوعي فأجاد وأفاد في تأصيل القواعد التي يشاد عليها هذا اللون من التفسير ، وجعل لذلك الباب الأول ، وفي

---

(١) الإسلام والعلاقات الدولية صـ ١٠ للشيخ محمود شلتوت .

(٢) انظر : قصة التفسير للدكتور أحمد الشرباصي صـ ١٦٤ ، ١٦٥

الباب الثاني قدم أمثلة تطبيقية لتلك القواعد ، فاختار الموضوعات التالية: الوحدانية والتوحيد ، المعية في القرآن الكريم ، التبعية في القرآن الكريم، العلم والعلماء في القرآن ، الآخرة ومشاهدها في القرآن.وللزميل ا.د/ مصطفى مسلم دراسة قيمة عنوانها/مباحث في التفسير الموضوعي، في ٣٧٣ صفحة، ولكثير من زملائنا وشيوخنا بحوث طيبة في هذا العلم : علم التفسير الموضوعي ، تأصيلا وأمثلة.

ولهذه الغاية شمّر قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر – عن ساعد الجد ، واختار لطلاب الدراسات العليا موضوعات قرآنية غطت مساحة لا بأس بها من موضوعات القرآن،علي مستوي القرآن كله أو علي مستوي سورة من سوره ، وحذا حذو أصول الدين طلاب الدراسات العليا في الجامعات العربية والإسلامية وكثير من الكتاب والباحثين وأصبح الطريق ممهدًا لتحقيق الأمل في إخراج موسوعة تضمُّ تلك الموضوعات وتفهرسها لتكون في متناول الباحثين وعشاق المعرفة ، ونحن على هذا الدرب نسير بتوفيق الله منذ زمن بدءا من رسالتي التي حصلت بها على الدكتوراه عام ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م وموضوعها : " منهج القرآن في تربية المجتمع " إلى غير ذلك من الكتب التي ألفتها منذ سنوات مضت ومنها : الحج فى القرآن الكريم دراسة موضوعية لآيات الحج فى القرآن الكريم عام ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م ، والمسلم في عالم اليوم ، بحوث في الأخوة والموالاة وبناء المجتمع المسلم، في جزءين عام ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م " ومن ذلك هذه الموضوعات التي سأعرض لها بإذن الله ، ومن أجلها قدّمت هذه الشذرات ، دون التوسع في الموضوع ، إنما هي تقدمة تكشف لنا ما هو التفسير الموضوعي وكيف نشأ ؟ وكيف وصل إلى ما هو عليه الآن ، والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

المراجع /

١- الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي ط الرابعة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧١ م مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر .

٢- التفسير الموضوعي : لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية - جمع أصوله وحقق نصوصه وخرج أحاديثه د / عبد الرحمن عميرة - دار الاعتصام بالقاهرة .

٣- دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني - د / أحمد جمال العمري - مكتبة الخانجي بالقاهرة ط الأولى ١٩٠٦ هـ / ١٩٨٦م

٤- القاموس المحيط - للفيروزا بادي / مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزا بادي ط الثانية ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م ط مصطفى الحلبي بمصر.

٥- لسان العرب لابن منظور / أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري - ط دار المعارف

٦-مباحث في التفسير الموضوعي /أ.د/مصطفى مسلم-ط الثانية ١٤١٨ه -١٩٩٧م دار القلم/ دمشق

٧- مباحث في علم التفسير د / عبد الستار حامد ، مطبعة دار الرسالة ببغداد ١٩٨٤ م جامعة بغداد كلية الشريعة . .

٨- المدخل إلى التفسير الموضوعي ط الثانية ١٤١١ هـ ١٩٩١ م أ.د / عبد الستار فتح الله سعيد - دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة

الفصل الأول

الْإِنْسَانَ فِي الْقُرْآنِ

١- موقِعُه في الوجود: مستخلف ومُكَرَّم

٢- صلتُه بالكون: صلة انتفاع .. صلة تفكر

٣- صلتُه بالله : صلة عبودية لله وتحرر من عبودية غيره، صلة تكليف ومسئولية .

٤- إنسانيةُ الإنسانِ مقياسُ تقدمه وارتِقائه .

الإنسان في القرآن :

تمهيـــــــد :

الإنسان في القرآن ؟ ماذا تعنى كلمة " الإنسان " ؟ وماذا عن كـــون الإنسان في القرآن؟ حتى نحدد مسار دراستنا لهذا الموضوع ؟

يقول الفيروز ابادى في القاموس المحيـــط : " الإنســـان : البشـــر كالإنسان الواحد إنسي ، وأنسي جمعه أناس ، والمرأة: إنسان ، وبالهاء: عامية ، وسمع في شعر كأنه مولد :

لقـــد كســـتني فـــي الـــــهوى ملابـــس الصـــــب الغـــزل
إنســــــــانة فتانــــــــة بـــدر الدجـــى منـــها خجـــل

وآنسة ضد أوحشة ، والشئ أبصره "[1] .

وقد ذكر ابن منظور في لسان العرب كما ذكر غيره قديما وحديثـــا قريبا من ذلك .

ولأننا ندرس كلمة من كلمات القرآن فلنتعرف من صاحب المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصبهاني ، على معنى كلمة الإنسان يقول : " الإنس : خلاف الجن ، والأنس : خلاف النفور ، والإنسي : منســـوب إلى الإنس ، ويقال ذلك لمن كثر أنسه ، ولكل ما يؤنس به ، ولهذا قيـــل : إنسي الدابه : للجانب الذي يلي الراكب ، وإنسي القوس : للجانب الـــذي يقبل على الرامي ، والإنسي من كل شيء : ما يلي الإنسان ، والوحشي:

---

(١) انظر : القاموس المحيط للفيروز ابادي ٢ / ٥٠٥ ط الثانية ١٣٧١ هـــ ١٩٥٢ م مصنع مصطفى الحلبي بمصر .

ما يلي الجانب الآخر ، وجمع الإنسيُّ : أناسِيُّ ، يقـــول الله تعـــالى : { وأناسيَّ كثيرًا } وقيل : ابن إنسِك : للنفس ، وقوله تعالى : { فإن آنســتم منهم رشدًا } أي أبصرتم أُنْسًا به ، {وآنست نارًا } وقولـــه تعـــالى : { حتى تستأنسوا } أي تجدوا إيناسًا ، والإنسان : قيل سمي بذلك لأنه خُلِق لا قِوام له إلا بأُنس بعضهم ببعض ، ولهذا قيل : الإنسان مَدِنيٌّ بـــالطبع ، من حيث إنه لا قوام لبعضهم إلا ببعض ، ولا يمكنـــه أن يقـــوم بجميـــع أسبابه ، وقيل : سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه ، وقيل هو : إفْعِلاَن ، وأصله : إنْسيان ، سمي بذلك لأنه عهد إليه فنسي "(١)

هذا إذن هو الإنسان في لغتنا العربية يطلق على الذكر والأنثـــى ، وهو يقابل الجن ، فهذا ظاهر يُرى وذاك مستتر لا يرى ، ومـــن طبعـــه الذي خلقه الله فيه ميله إلى الأُنس بغيره ، فحياته لا تستقر بل ولا تنتظـــم إلا مع الآخرين من أبناء جنسه ، ومن حكمة الله فيه أن جعله أيضًا يأنس بكل ما يألفه ، كما جعلَه كذلك ينسى ، فالنسيان نعمة من نعـــم الله عليـــه وإلا لو ظل ذاكرًا لكل أمر لمات فرحًا أو مات حزنًـــا وكمـــدًا ، وهـــذه المعاني التي من أجلها سمى الإنسان إنسانًا سنطل منها على ما جاء فـــي القرآن الكريم ، وهنا نصل إلى السؤال الثاني وهو : ما معنـــى كـــون الإنسان في القرآن ؟ ومعناه : كيف عبَّرَتْ آياتُ القرآن عن هذا الإنسان؟ في بيان موقعه في الوجود ، وصلته بالكون ، وصلته بخالق هذا الكون ،

---

(١) المفردات في غريب القرآن : للحسين بن محمد ، المعروف بالراغب الأصـــفهاني - نشـــر مكتبة الإنجلو المصرية ١٩٧٠ م

كيف حددت آيات القرآن لهذا الإنسان طريقه في وضوح ، وعلّمته كيف يحافظ على إنسانيته ويرقى بها ، لا أن يهبط بها إلى درك العجماوات فيضل ويشقى .

وهذا يتطلب منا أن نجمع الآيات القرآنية التي تحدثت عن الإنسان لنرتبها ونصنفها في عناصر متتالية وندرسها دراسة متكاملة على طريقه التفسير الموضوعي للقرآن الكريم .

والإنسان في آيات القرآن الكريم يعنى : آدم ، والإنسان والخليفة والإنس ، والناس ، والطفل ، والصبي ، والولد ، والبنت ، والوالد والوالدة ، والرجل ، والمرأة ، والزوج ، والذكر ، والأنثى ، بل وما جاء من صفات لهؤلاء ، ذُكِر الموصوف أم لم يذكر ، كما نرى في كلمة اليتامى ، والمساكين ، والسائلين ، والمتقين والتائبين والعابدين وما إلى ذلك من صفات كثير مدحًا أو ذمًا .

ولا عجب في ذلك فهذا القرآن نزل لهذا الإنسان فكيف لا يعتني به هذه العناية الفائقة: **{ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا}**[1] **{ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}**[2] .

ومثل هذه الدراسة تحتاج إلى مؤلف مستقل قد يصل إلى عدة أجزاء، ونحن هنا نكتب عجالة عن الإنسان في القرآن " في جملة موضوعات أخرى تالية لتكون في مجموعها كتابًا يُظهِر عظمة القرآن

---

(١) النساء ٤ / ١٧٤

(٢) يونس ١٠ / ٥٧

فيما اخترناه من موضوعات لهذا الكتاب ، وقد تغني الإشارة عن العبارة، ولعله مما ييسر طريق البحث أن الموضوعات التالية لموضوع الإنسان ستعالج هي الأخرى جانبًا من الدراسة حول الإنسان وقد سبقت الإشارة إليها في المقدمة ، ولذلك سنقتصر في دراسة موضوعنا بإذن الله على جوانب أربعة هي التي تراها في عنوان هذا الفصل .

فنقول وبالله التوفيق :

١ – الإنسان : موقعه من الوجود: مستخلف ومكرم:

أ– خلق الإنسان :

الإنسان الأول آدم عليه السلام ، ومنه كانت زوجه حواء ، ومنهما تناسل الناس ، وقد وردت كلمة " آدم " في القرآن خمسًا وعشرين مرة ، وسماه الله إنسانًا ، وسماه بشرًا ، وأخبر بأنه خلق الناس من نفس واحدة وجعل منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء .

وقد مر خلق آدم بعدة أطوار : خلقه أولاً من التراب ثم خلطه بالماء فكان طينًا ، ثم بقي مدة حتى صار مُنتنًا أسود ثم تماسكت أجزاؤه – ويبس حتى كأنه من الفخار ، ثم نفخ فيه من روحه فصار بشرًا سويًا ، كما مر خلق أبنائه في عدة أطوار كذلك : من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى أن صارت المضغة عظامًا فكسى الله العظام لحمًا ونفخ في هذا الجسد من روحه فإذا به هذا الإنسان الناطق العاقل. وعن خلق الله لآدم وذريته يقول الله تعالى : ١– { **يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رِيبٍ مِنَ**

الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ}(١) الآية إلى نهاية مراحل خلق الإنسان .

٢- وقريب من ذلك قوله " { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثم جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا}(٢) الآية

٣- وقوله : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ}(٣) الآية

٤- وقوله : { وَمِنْ ءايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}(٤)

وهذه هي المرحلة الأولى في خلق آدم حيث خلقه الله من تراب وقد قال بعض الباحثين بأن المراد في الآيات ليس هو آدم كما قال بذلك الأوائل إنما المراد به الإنسان من أبناء آدم ، ومعنى أن الله خلقه من تراب أن مكونات جسده من العناصر التي يتكون منها التراب ، وقالوا بأن هذا من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

ومع أن القرآن ليس فيه ما يتعارض مع العلم ،لكنه ليس كتاب طب أو فلك أو أحياء أو جيولوجيا ولكنه كتاب هداية ، والبحث في آياته عن سند لكل اكتشاف علمي أو حقيقة علمية مخاطرة غير مأمونة العواقب ، فكثير من الحقائق التي اعتقد الناس قروناً طويلة أنها حقائق ثابته لا تتغير ، تبين أنها وَهمٌ وظن وليست بحقائق ، والقرآن يذكر أن آدم خلق

---

(١) الحج ٢٢ / ٥

(٢) فاطر ٣٥ / ١١

(٣) غافر ٤٠ / ٦٧

(٤) الروم ٣٠/ ٢٠

من تراب فيقول : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[1] وبهذا ننظر في الآيات السابقة حين نقرأ : { خلقكم من تراب } ، { خلقك من تراب } فنقول : بأنها تلفت أنظارنا إلى قصة الخلق الأولى حيث خلق الله آدم عليه السلام من تراب ، إذ لم يكن المخاطبون في عصر نزول القرآن حين خوطبوا بقوله: خلقكم من تراب، ليعرفوا أنهم هم خلقوا من تراب وأن أجسادهم تتكون من عناصره وأين للرجل الذي قال لصاحبه : { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}[2] أن يعرف هو أو صاحبه أمثال هذه الحقائق العلمية التي تثبت أن الإنسان في أصله من التراب ، كما قال تعالى : { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}[3] أي خلقنا أباكم آدم .. والقرآن بذلك يفسر بعضه بعضًا .

أما عن المرحلة الثانية التي صار فيها التراب طينًا فإننا نقرأ في قصة الخلق الأول ، وما كان من أمر إبليس ، قول الله تعالى في سورة ص " {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ(٧١)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢)فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣)إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٧٤)قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ(٧٥)قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ...}[4]

---

(١) آل عمران ٣ / ٥٩

(٢) الكهف ١٨ / ٣٧

(٣) طه ٢٠ / ٥٥

(٤) ص : ٣٨ / ٧١-٧٦

وما نجده في الإسراء : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا }(١)

ولذلك حين يقول الله تعالى بأنه خلق الإنسان من طين أو يوجه خطابه إلى بني الإنسان بانه خلقهم من طين ، فإن هذا الإنسان هو آدم عليه السلام ، يقول تعالى : { ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦)الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ(٧)ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ }(٢) فهذه الآية صريحة في أن الإنسان هنا هو آدم عليه السلام ، ولا التفات لمن أرادوا أن يحمّلوا آيا ت القرآن فوق ما تحتمل بحجةَ أن هذا إعجاز علمي في القرآن الكريم حيث إن القرآن أخبر بأنه خلق الإنسان من تراب أو من طين والعلم الحديث اكتشف أن الإنسان مركب من عناصر التراب والطين كما سبق أن ذكرنا.

وعلى هذا نفهم أيضا قول الله تعالى : { **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين(١٢)ثم جعلناه نطفة في قرار مكين(١٣)ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا ءاخر فتبارك الله أحسن الخالقين**}(٣) وقوله: {**هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده..** }(٤)

---

(١) الإسراء١٧/٦١

(٢) السجدة ٣٢ / ٦ – ٨

(٣) المؤمنون ٢٣ / ١٢ – ١٤

(٤) الأنعام ٧ / ٢

فالمراد بالإنسان في آيات " المؤمنون " هو آدم ، كما أن معنى : خلقكم من طين أي خلق أباكم آدم عليه السلام .

أما المرحلة التالية وهي تماسك أجزاء الطين تماسكًا شديدًا ففيها آية واحدة جاءت في سورة الصافات : **{ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ }**(١) واللازب في اللغة : الثابت الشديد التماسك الأجزاء ..

وبعد ذلك يتغير الطين اللازب إلى أن يصير طينًا متغير الرائحة أسود وهو ما سماه القرآن بالحمأ المسنون حيث يقول الله عز وجل : **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}**(٢) وقيل بأن الحمأ المسنون أي الطين المصور على هيئة إنسان والمعنى متقارب فإن هذا الطين المنتن المتغير الأسود حين تماسك صوره الله تلك الصورة الإنسانية وتركه حتى جف ويبس فكان صلصالاً ، كما ترى في الآيات السابقة وفي قوله في " الرحمن " **{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤)وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}**(٣) بقي بأن يصدر الأمر الإلهي بأن تدب الحياة في هذا الجماد الذي تنقَّل بأمر الله إلى أن صار صلصالاً كالفخار ، وهذه هي الروح التي لا يعلم سرها إلا الإله القوي القادر ، وبالنظر في الآيات يتضح لنا أن الله كان يخبر ملائكته في كل طور بأنه جل وعلا سيخلق إنسانًا بشرًا تدب فيه الروح ويتحرك بأمر الله بل وأخبرهم بما سيكون من أمر هذا الإنسان بعد أن يصير إنسانًا ناطقًا

---

(١) الصافات ٣٧ / ١١

(٢) اقرأ الآيات من سورة الحجر ١٥ / ٢٦ - ٣٣

(٣) الرحمن ٥٥ / ١٤ ، ١٥

وأنه سيتولى مهمة تعمير الأرض والقيام على شئونها وفق منهج ربه ، فإذا نفخ الله فيه الروح ، عليهم أن يقعوا له ساجدين ، لا سجود عبادة لآدم ولكن تعظيمًا لأمر الله ، وتكريمًا لآدم عليه السلام .

وقد رأينا في الآيات السابقة قوله تعالى : **{ إني خالق بشرًا من طين }** في سورة "ص" ولذلك لم يذكر أنه قال للملائكة ذلك في الأعراف والإسراء لكنه ذكر حجة إبليس وأنه بناء على معرفته سببه قال : **{ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين }** وقال **{ أأسجد لمن خلقت طينًا }** وذكر للملائكة ما جاء في سورة الحجر : **{وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون }** وفي سورة البقرة يقول لهم **{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** ولعلهم علموا ذلك من الله حيث أخبرهم بما سيكون عليه حال هذا المخلوق بعد أن تتولى ذريته مهمة الخلافة في الأرض ، وأراد الله سبحانه أن يطلعهم على حكمته في اختيار هذا المخلوق لهذا الأمر ، وأن الله أعطاه من المواهب والقدرات ما يؤدي بها الوظيفة التي سيتولاها وأن الملائكة مع طهرهم ونقائهم لا يصلحون لهذه المهمة ، وكان سبحانه قد **عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٣١)قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢)قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ**

والْأَرْضِ وأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }[1] فظهر فضل آدم وما منحه الله من معرفة وعلم ، وكان أمر الله قد سبق بوجوب سجود الملائكة لآدم إذا ما تم خلقه ونفخ الله فيه من روحه ، فاستجاب الملائكة لأمر ربهم إلا إبليس الذي امتنع عن السجود كبرًا وعنادًا وحقدًا وحسدًا لأنه كما قال تعالى : { **كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**}[2] ولم يكن من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولكنه كان معهم فأمر بالسجود معهم فأبى واحتج بأنه خلق من عنصر النار وهي في رأيه أشرف من الطين ، وانظر إلى تكبره وهو يقول لرب العزة { **لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون** } فاستحق اللعنة والإبعاد والطرد ، لأنه لجهله ما فقه الأمر وأن السجود ليس لآدم إنما لله تعظيمًا لأمره والتعبير القرآني عن إبعاده يدل على أن ذلك كان في الجنة لأن الله قال له : { **فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا**} وقال { **اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا**}[3] وقال في "الحجر" و"ص" { **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**}[4] ولم يسبق ذكرٌ في الآيات لشيء يعود عليه الضمير في قوله : " منها " إنما يفهم هذا من السياق ، الذي يدل على أنها الجنة ، فإن الله سبحانه بعد هذا الدرس الذي ظهر فيه العدو من الحبيب قال : {**وَيَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا**

---

(١) اقرأ الآيات من سورة البقرة ٢ / ٣٠ – ٣٣

(٢) الكهف ١٨ / ٥٠

(٣) الأعراف ٨ / ١٣ ، ١٨ ،

(٤) الحجر ١٥ / ٣٤ ، ص ٣٨ / ٧٧

وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالمين..}[1] ولم يتركهما الشيطان فزين لهما الأكل من الشجرة المحرمة **{ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ(٢٢)قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}**[2] وقد قبل الله منهما التوبة إنه هو التواب الرحيم .

ولعلنا ونحن نذكر آدم وخلق الله له نذكر خلق الله لحواء ، فإن الله لما خلق آدم شعر بحاجته الفطرية إلى من يؤانسه فخلق الله له رفيقة درب، وشقيقة نفس من نفسه ، وجعلها من ضلعه الأيسر ، فوجدها بجواره فأنس لها وسكن إليها وزالت وحشته ، وكانت سنة الله في خلقه أن سَمَّى كُلاً من الرجل وامرأته بالزوج ، ليدل على ان كل واحد منهما مكمل للآخر ، ولذلك لا غنى للرجل عن زوج تذهب وحشته ويسكن إليها ولا غنى للمرأة عن زوج تشعر في كنفه بالأمان وراحة النفس قال تعالى: **{وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}**[3] وفي خلق حواء من آدم يقول الله تعالى : **{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً....}**[4]

---

(١) الأعراف ٨ / ١٩

(٢) الأعراف ٨ / ٢٢ ، ٢٣

(٣) الروم ٣٠ / ٢١

(٤) النساء ٤ / ١

هذا عن قصة الإنسان الأول أما من تناسل منه فقد مر بأطوار غير تلك الأطوار التي خلق منها آدم عليه السلام ، وتبدأ مراحل الخلق بلقاء الذكر بالأنثى وتلقيح منى الرجل لبويضة الأنثى قال تعالى : **{ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(٦)يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}**(١) فالحيوانات المنوية لدى الرجل أو البويضة لدى المرأة ، إنما تستقي مواد تكوينها من بين الصلب والترائب كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب ، والآية الكريمة إعجاز كامل حيث تقول **{ من بين الصلب والترائب}** ولم تقل من الصلب والترائب ، فكلمة " بين " ليست بلاغية فحسب وإنما تعطى الدقة العلمية المتناهية "(٢) ويذكر الدكتور محمد على البار معنى التدفق في ماء الرجل والمرأة فيقول : إن الحيوانات المنوية يحملها ماء دافق هو ماء المني ، كذلك البويضة في المبيض تكون في حويصلة جراف محاطة بالماء فإذا انفجرت الحويصلة تدفق الماء على أقتاب البطن ، وتلقفت أهداب البوق البويضة لتدخلها إلى قناة الرحم حيث تلتقى بالحيوان المنوي لتُكوِّن النطفة الأمشاج .. "(٣)

وهذه النطفة الأمشاج هي التي ذكرها الله في قوله : **{ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(١)إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}**(٤) قال ابن عباس في قوله

---

(١) الطارق ٨٦ / ٥ – ٧

(٢) خلق الإنسان بين الطب والقرآن د / محمد على البار ط الخامسة ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م – الدار السعودية للنشر والتوزيع صـ١١٦

(٣) المرجع السابق صـ ١٢٣

(٤) الإنسان ٣١ / ١ ، ٢

تعالى { من نطفة أمشاج } يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ومن حال إلى حال ومن كون إلى كون ، هكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس : الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة[1] فالنطفة إذن تطلق على ثلاثة أشياء:

١- نطفة الذكر وهي الحيوانات المنوية .

٢- نطفة الأنثى وهي البويضة .

٣- النطفة الأمشاج وهي النطفة المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة أي البويضة الملقحة .

وهذا الماء الذي يُخلق منه الإنسان هو الذي يلفت الله إليه الأنظار في مقام تذكيره بنعمة خلق الإنسان وكيف أوجد من هذا الماء المهين هذا الإنسان الناطق العاقل ، وأن من قدر على ذلك أولاً قادر على إعادة هذا الإنسان ثانيًا للبعث والحساب فيقول سبحانه وتعالى : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا }[2] ويقول : { .. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ(٧)ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ(٨)ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ }[3] ويقول : { أَلَمْ

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٥٣

(٢) الفرقان ٢٥ - ٥٤

(٣) السجدة ٣٢ / ٧ - ٩

نَخْلُقكُمْ مِنْ مَاء مَهِينٍ(٢٠)فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(٢١)إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ(٢٢)فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ}(١)

وهذا الماء هو النطفة التي ذكرها الله في اثنى عشر موضعًا من كتابه : ومن ذلك قوله **{ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ}**(٢) وقوله : **{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا..}**(٣) ، وقوله : **{ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٤٥)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى }**(٤)

أخرج الإمام أحمد في مسنده : أن يهوديًا مر بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه فقالت قريش يا يهودي : إن هذا يزعم أنه نبي فقال : لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي فقال : يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا يهودي من كل يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة فأما نطفة الرجل فلطيفة غليظة منها العظم والعصب وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم ، فقال اليهودي : هكذا كان يقول من قبلك (أي من الأنبياء)(٥) وقال الحافظ بن حجر في فتح الباري : (كتاب القدر) : والمراد بالنطفة : المني ، وأصله الماء الصافي القليل ، والأصل في ذلك أن ماء الرجل إذا لاقى ماء المرأة بالجماع وأراد الله أن يخلق من ذلك جنينًا هيأ أسباب ذلك(٦)

---

(١) المرسلات ٧٧ / ٢٠ - ٢٣

(٢) النحل ٦ / ٤

(٣) فاطر ٣٥ / ١١

(٤) النجم ٤٥/ ٤٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد جـ١ / صـ٤٦٥

(٦) فتح الباري – كتاب القدر ط١١ صـ٤٧٩ ، ٤٨٠

ويقول ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن : ومني الرجل وحده لا تتولد منه الولد ما لم يمازجه مادة أخرى من الأنثى، ويقـول : إن الأعضاء والأجزاء والصورة تكونت من مجموع المائين ، وهذا هو الصحيح (1)

وفي نهاية الأسبوع الأول من استقرار النطفة في الرحم تصير مستترة التوتة ، وتتشبث وتعلق في جدار الرحم الخلفي في النصف العلوي منه . ولذلك سمى الله هذه المرحلة بالعلقة أو العلق فذكر "العلقة" في كتابه خمس مرات ، والعلق مرة واحدة في سورة سميت بذلك فقال : {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(1)خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ..}

وفي الأسبوع الرابع تتحول العلقة إلى مضغة أي قطعة من اللحم بقدر ما يمضغ الماضغ وهي بالطبع تختلف في حجمها من واحد إلى آخر، وفي هذه المرحلة تظهر الكتل البدنية ويكون أول ظهورها في أعلى اللوح الجنيني جهة الرأس ثم يتوالى ظهور هذه الكتل من الرأس إلى مؤخرة الجنين ، وقد ذكر الله هذا الطور في سورتين من القرآن : في الحج في قوله : { **فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ..** } وفي المؤمنون في قوله {**ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا..**}

ونلمح هنا أنه وصف في " الحج " المضغة بأنها" مخلقة وغير مخلقة" فما معنى هذا ؟ قال بعض المفسرين بأن هذا الوصف للنطفة فإنها عند علوقها بجدار الرحم تنقسم إلى قسمين : جزء مخلق وهو الطبقة الداخلية والتي يتكون منها الجنين ، والجزء الآخر غير مخلق وهو الذي يتكون من الخلايا الآكلة والمغذية .. ولكن الآية صريحة في أن هذا

---

(1) التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية صـ244 ، 256

وصف للمضغة ومعنى ذلك أن المضغة قبل الأسبوع السابع يكون الجنين غير واضح المعالم ، فإذا ما دخلت المضغة في الأسبوع السابع والثامن اتضحت معالم الطفل وتحددت صورته ، فهذه المضغة في بدايتها كانت غير مخلقة ، ما هي إلا قطعة من اللحم فإذا ما جاءت إلى نهاية مرحلتها أصبحت مخلقة واضحة المعالم فظهرت العظام ثم كسيت العظام لحمًا ، كما قال تعالى : **{فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين .. }**

وتلي مرحلة المضغة كما ذكرت الآية السابقة تكوُّن العظام والعضلات ثم تأتي مرحلة التصوير والتسوية والتعديل ثم ينفخ فيه الروح وتدب فيه الحياة **{ ثم أنشأناه خلقًا آخر}** فأين هذا الذي كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ثم كسي لحمًا مِنْ هذا الذي سرت في جسده نفخة الروح فإذا به هذا الإنسان الخصيم المبين ؟؟

ب- الإنسان المستخلف :-

الإنسان الأول : آدم عليه السلام ، وكل واحد من أبنائه إنسان ، وقد خلق الله الإنسان لغاية عظيمة هي أن يعمر الأرض وفق منهج ربه ، وقد عبَّر القرآن عن هذه العمارة بالخلافة ، فذكر في سورة البقرة أن الله جاعل في الأرض خليفة ، **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}**(١) وهذا هو آدم عليه السلام كما ذكر في سورة "ص" نداء الله لداود عليه السلام : **{ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ..}**(٢)

---

(١) البقرة ٢ / ٣٠

(٢) ص ٣٨ / ٢٦

يقول الراغب في بيان معنى الخلافة : خلف فلان فلانًا : قام بالأمر: إما معه وإما بعده ، قال تعالى : { **ولو نشاء لجعلنا منهم ملائكة في الأرض يخلفون** } والخلافة : النيابة عن الغير – إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته ، وإما لعجزه ، وإما لتشريف المستخلف ، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض ، قال تعالى { **وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض** } وقال : { **ويستخلف ربي قومًا غيركم** }(١)

فآدم عليه السلام كان خليفة وأبناؤه من بعده خلفاء ، وكل جيل يخلف من قبله ، وخلافة أبنائه واضحة ظاهرة أما خلافته عليه السلام فماذا تعني ؟ هل كان هناك في الأرض خلق آخرون ، أذن الله بانتهاء عهدهم وخلق آدم ليخلفهم في عمارة الأرض قبل ذلك ، وأن هؤلاء هم الجن الذين أفسدوا في الأرض وسفكوا فيها الدماء .. وهذا قول ابن عباس من طريق الضحاك وليس بالقوي فلا يؤخذ به في الغيبيات التي لا سبيل إليها إلا عن طريق الإخبار الصحيح من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أو أن آدم سيكون خليفة عن الله في الأرض ، وكذا كل نبي من أنبيائه وكل قائم منهم على حدود الله ، كل منهم خليفة عن الله في عمارة الأرض وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجة به تعالى ، ولكن لقصور المستخلف عليهم وعدم لياقتهم لتلقى الأحكام والعلوم من الذات العلية بلا واسطة " "(٢).

---

(١) المفردات في غريب القرآن : للراغب الأصبهاني [مرجع سابق] صـ٢٢٣

(٢) انظر الفتوحات الإلهية للعلامة الجمل ١/ ٣٨ ، وجامع البيان لابن جرير الطبري ١/٢٠٠ ، وروح المعاني للآلوسي ١ / ٢٢٠

وعلى هذا تكون الخلافة هي استخلاف بعضهم على بعض ، فمن نفذ حكم الله وساس به الناس فهو الجدير أن يحظى بشرف الخلافة عن الله عز وجل ، ومن لم يفعل سلب منه هذا الفضل .

أو أن الخليفة الذي ذكر الله للملائكة أنه سيجعله في الأرض هم أبناء آدم لأن الملائكة قالت :" أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء"وهذا لم يقع من آدم فهو أول نبي في الأرض ، إنما حدث هذا من ذريته من بعده ، وقد رد ابن جرير هذا القول وأجاب عن هذه الشبة فقال، أغفل قائلو هذه المقالة ومتأولو الآية هذا التأويل سبيل التأويل ، وذلك أن الملائكة إذا قال لها ربها : إني جاعل في الأرض خليفة " لم تضف الإفساد وسفك الدماء في جوابها ربها إلى خليفته في أرضه ، بل قالت : أتجعل فيها من يفسد فيها " وغير منكر أن يكون ربها أعلمها أنه يكون لخليفته ذلك ذرية يكون منهم الإفساد وسفك الدماء ، فقالت : يا ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ كما قال ابن مسعود وابن عباس، ومن حكينا ذلك عنه من أهل التأويل ".(١)

فإذا ما أجلنا النظر في آيات القرآن الكريم وما جاء فيها من لفظ الخلافة والاستخلاف والخلفاء فسنرى فيها ما ذكرناه من آدم وداود ، ونلمح أنه يذكرنا بسنته في خلقه وأنه لا بقاء لجيل من الأجيال ، إذ لا بد أن يرحل ليأتي بعده جيل آخر .

وعلى الخلف أن يعتبروا بما كان من أمر سلفهم في صلاحهم أو فسادهم فيقول في الأنعام ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

(١) جامع البيان لابن جرير ١ / ٢٠٠

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }(١) وفي يونس : { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(١٣)ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}(٢) ويذكرنا في السورة نفسها بما كان من إهلاك المكذبين لنوح عليه السلام وأن من آمن به فنجاه الله في الفلك هم الذين خلفوا من أهلكهم الله فعليهم وعلى أبنائهم من بعدهم إلى يوم القيامة أن يذكروا هذه النعمة وأن يقوموا بشكرها فيقول سبحانه { فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ}(٣)

ويخاطب بهذا المعنى المكذبين برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فيقول :{ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا}(٤)

كما يمتن عليهم في جملة مننه بأنه جعلهم خلفاء في الأرض ، إذ لم يكونوا فكانوا، فأين من كان قبلهم ؟ وكيف نزل بهم عذاب الله لما كذبوا المرسلين فيقول : { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}(٥)

---

(١) الأنعام ٦ / ١٦٥

(٢) يونس ١٠ / ١٣ ، ١٤

(٣) يونس ١٠ / ٧٣

(٤) فاطر ٣٥ / ٣٩

(٥) النمل ٢٧ / ٦٢

ويذكر أن هذا منهج الأنبياء في دعوة المكذبين من أممهم فهذا هود عليه السلام يقول لقومه { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }(١) ويتوعدهم ويهددهم فيقول لهم : { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ }(٢) ولكنهم لم يعتبروا فقطع الله دابرهم حيث قال : {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ }(٣) وجاء بقوم آخرين : قوم صالح ، وأخذ يذكرهم بما حل بمن كان قبلهم فيقول :{ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}(٤) فكذبوه وعاندوه وعقروا الناقة : {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٧٨)فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ }(٥)

وهكذا كل الأنبياء ذكّروا أقوامهم بأن الله استخلفهم بعد أجيال سابقة وعليهم أن يعتبروا بمن سبقهم ، ومن أولى العزم من الرسل موسى عليه السلام ، يقول لبني إسرائيل وهم في قلب المحنة : {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(١٢٨)قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى

---

(١) الأعراف ٨ / ٦٣

(٢) هود ١١/ ٥٧.

(٣)الأعراف ٨/ ٧٢.

(٤) الأعراف ٨/ ٧٤.

(٥) الأعراف ٨ / ٧٨ ، ٧٩

رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}(١)
فلما نجاهم ربهم ومكن لهم في الأرض وفضلهم على العالمين لم يثبتوا على العهد ، ولم يؤدوا حق الله عليهم ، فخانوا الأمانة ونقضوا العهد وبدلوا كلام الله وفق أهوائهم واعتدوا على شرع الله وقتلوا الأنبياء بغير حق فأذلهم الله وأخزاهم { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ}(٢)

وحين يسوق الله هذا القصص القرآني في الكتاب الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وسلم إنما يريد ممن نزل فيهم هذا القرآن أن يعتبروا : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}(٣)

ولذلك تراه يهدد المعاندين لهذا الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقول : { وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ(١٣٣)إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ}(٤) وقد حقق الله وعده لعباده المؤمنين جريًا على سننه في خلقه وأن من استقام على الجادة واتبع المرسلين وصبر وصابر حتى أفرغ كل جهده مكّن الله له في الأرض ، وهيأ له أسباب النصر وكان له وليًا وحافظًا ومؤيدًا فقال سبحانه : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ

---

(١) الأعراف ٨ / ١٢٨ ، ١٢٩

(٢) البقرة ٢ / ٦١

(٣) يوسف ١٢ / ١١١

(٤) الأنعام ٧ / ١٣٣ ، ١٣٤

لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}(١)

من هذا يتضح لنا أن الخلافة نيابة عن الله في الأرض لتحكيم شرع الله والقيام بعمارة الأرض وفق منهج الله وهذا هو الطريق الذي بدأه آدم أول خليفة عن الله في هذه الدنيا قال تعالى بعد أن ذكر ما كان من أمر آدم وتوبته { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(١٢٣)وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا(١٢٥)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}(٢) فمن لم يقم بهذه المهمة لا يستحق أن يكون خليفة عن ربه .. وقد قام بها آدم خير قيام ، وجاء أبناؤه من بعده خلفاء ، يخلف كل جيل من سبقه ، وهذا هو المعنى الثاني للخلافة ، وسوف تتوارد أجيال الإنسانية إلى يوم القيامة ، كل جيل يعقب من قبله ، فمن نظر في سنن الله وآياته في خلقه وأخذ الدرس والعبرة عاش سعيدًا في الدنيا ولقي الله سعيدًا ، ومن عمي عن الطريق فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ...

جـ الإنسان المُكرمُ:

هذا الإنسان – آدم وأبناؤه من بعده– مخلوق مُكرم ، سواه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد لآدم ملائكته ، وقد كان هذا التكريم مثار حقد

---

(١) النور ٢٤ / ٥٥

(٢) طه ٢٠ / ١٢٣ – ١٢٦

وحسد أدى بإبليس أن يفعل ما فعل ، وأن يضمر الشر للإنسان قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا(٦١)قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا(٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا(٦٣)وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا(٦٤)إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا}(١) .

وإذا كان الله قد كرَّم آدم في السماء وعلمه الأسماء كلها وأظهر فضله في الملأ الأعلى حتى كان من أمر إبليس ما كان فإنه سبحانه بين لنا كذلك أن هذا التكريم ليس لآدم وحده إنما جعله الله لأبناء آدم فقال بعد الآيات التي ذكرناها آنفًا بأربع آيات : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}(٢) وكان على بني آدم أن يدركوا هذه الحقيقة : حقيقة تكريم الله لهم وتفضيلهم على كثير ممن خلقهم الله تفضيلاً عظيما وذلك بشكر ولي النعمة بعبوديته ومحبته وطاعته واتباع نهج أنبيائه ورسله . ولكن فريقًا منهم ضل السبيل ، ولم يشكر ربه وعاش في دنياه لا يرى هذه الحقيقة المشرقة ، ولذلك كان التعقيب على هذه الآية بقوله {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاس بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ

---

(١) الإسراء ١٧ / ٦١ – ٦٥

(٢)الإسراء ١٧ / ٧٠

فَتِيلًا(٧١)وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا}(١)

وهذا التكريم يتجلى في مظاهر عدة :-

أولها : أن الله كما اختار آدم خليفة في الأرض ، جعل أبناءه من بعده خلفاء ، يحققون منهج الله ويعمرون الأرض وفق هذا المنهج الإلهي، وفي ذلك تكريم للإنسان وأي تكريم .

وثانيها : أن الله سخر له ما في السموات وما في الأرض ولم يجعله مسخرًا لذلك تستعبده الآله ، ويستعبده المال والمتاع ، يقول الله تعالى : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ من السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ(٣٢)وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(٣٣)وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}(٢) ويقول : { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢)وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }(٣) والآيات في هذا كثيرة(٤)

---

(١) الإسراء ١٧ / ٧١،٧٢.

(٢) إبراهيم ١٤ / ٣٢ – ٣٤

(٣) الجاثية ٤٥ / ١٢ ، ١٣

(٤) وسوف نعود إليها بالإيضاح في الفقرة التالية : صلة الإنسان بالكون

ثالثها : أن الله جعله مختاراً ، يستطيع أن يختار بين البدائل ما يشاء دون قسر أو إجبار ، ومنحه نعمة العقل وبها يوازن بين ما ينفع وما يضر ، وبها يتلقى دعوات الأنبياء وما نزل به الوحي من السماء ، وله حق القبول والرفض : { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ }[1] ولكن عليه أن يتحمل مسئولية اختياره هذا ، فلا يغلبه جهله وظلمه لنفسه واستيلاء شهوته عليه ، وإغواء الشيطان له فيختار الضلال والفسوق والفجور والعبودية للطواغيت تاركًا طريق الهدى والطاعة والانقياد لله والعبودية لربه الذي خلقه فسواه فعدله في أي صورة ما شاء ركبه ، قال تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }[2]

رابعًا : أن الله إذ جعله مختاراً لم يتركه سدى ، إنما أرسل له الرسل وأنزل له الكتب وأرشده إلى الطريق الصحيح ، وفي اختيار الرسل والأنبياء من بني آدم ، وفي إنزال الوحي عليهم تكريم ظاهر للجنس الإنساني فالمخلوقات الأخرى منقادة مسخرة لله إلا ما كان من أمر الجن والشياطين ولكن الجن في أصح الأقوال تابعون للمرسلين من بني آدم قال تعالى: { يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ }[3]

---

(١) الكهف ١٨ / ٢٩

(٢) الأحزاب ٣٣ / ٧٢

(٣) الأنعام ٦ / ١٣٠

ويفسر قوله تعالى:" ألم يأتكم رسل منكم " ما جاء في كل من الأحقاف والرحمن والجن ، وفيها أن الرسل إنما كانوا من الإنس ، والجن تبع لهم في ذلك ، ففي سورة الأحقاف : { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ(٢٩)قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ(٣٠)يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[(١)] وفي الرحمن ، يقول تعالى : { فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟ }[(٢)] وهو سؤال للإنس والجن ، وفي سورة الجن : {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا(١)يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا.. } إلى آخر الآيات المباركات في هذه السورة[(٣)]

خامسًا : ما شرعه الله للإنسان من ألوان التكريم التي تتجلى في شريعة غراء تحفظ للإنسان حقه في الحياة ، وتكرمه طفلاً وشابًا وشيخًا وأبًا وأمًا وجارًا وصديقًا وفقيرًا ويتيمًا وحرًا ورقيقًا وابنًا وبنتًا وزوجًا وزوجة وقويًا وضعيفًا ، ورجلاً وامرأة ، وحاكمًا ومحكومًا ، وما جعله الله للإنسان من حماية تحفظه من الجهل والفقر ، وتقوِّم نفسه وتبني وجدانه وعقله وبدنه ، وتمنع الآخرين من الاعتداء عليه ليحيا آمنًا مستقرًا

---

(١) الأحقاف ٤٦ / ٢٩ - ٣٠

(٢) الرحمن ٥٥ / ١٦ وغيرها من المواضع في السورة

(٣) سورة الجن ٧٢ / ١ ، ٢ وما بعدهما

مطمئنًا، ويدخل في ذلك كل ما ذكرناه في هذا الباب مما جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة مما لا يتسع المجال إلى ذكر تفصيلاته .

سادسًا : الإنسان إذا ما انتقل من هذه الحياة الدنيا إلى الدار الآخرة يحظى بتكريم من لون فريد ، فعلى من حوله أن يلقنوه الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله حتى يفارق الدنيا على الإسلام فيحظى بالنعيم المقيم في جنات النعيم فإن كان هذا الإنسان غير مسلم عرضوا عليه الإسلام فلعل الله ينقذه من النار ، فإذا ما تحقق الموت غسلوه وكفنوه في أثواب طاهرة ومن السنة أن تكون بيضاء ، ثم يصلُّون عليه ، ولو كان الميت صغيرا إذْ ما دام قد استهل صارخًا وجب على من حضره الصلاة عليه وهي من فروض الكفاية ، ثم يُشَيَّع الميت إلى قبره محمولاً على أعناق الرجال إلا إذا كان هناك عذر يشق معه حمله كبُعْد المسافة أو هطول المطر أو ما إلى ذلك من الأعذار ، وإذا مرت الجنازة بقوم قاموا له تكريمًا ولو كان الميت غير مسلم لما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها فمن تبعها فلا يجلس حتى توضع "(١) وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم لجنازة يهودي مرت به ، وعندما سئل عن ذلك قال : أليست نفسًا ؟ أخرجه البخاري(٢)

ومن مظاهر التكريم ما فرضه الإسلام من وجوب احترام جثة الميت وأنه لا يجوز أن يمس جلد الميت بأذى ولا يعتدي على الميت

---

(١) المسند للإمام أحمد ٣ / ٢٥ عن أبي سعيد الخدري

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب من قام لجنازة يهودي ٣ / ١٨٠

بكسر أو قطع أو ضرب أو تشويه أو تمثيل أو نحو ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كسر عظم الميت ككسره حيًا[(١)]

كما يجب دفن جثة الميت وفي ذلك تكريم وأي تكريم ، وفي هذا نذكر ما كان من أمر قابيل وهابيل وكيف اعتدى قابيل على هابيل فقتله وحمل جثمانه لا يدري ماذا يصنع به يقول تعالى : { **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**}[(٢)]

ويجب أن يتم الدفن دون تأخير ، قال تعالى : {**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ(١٧)مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ(١٨)مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(١٩)ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ(٢٠)ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ(٢١)ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ...** }[(٣)] فالفاء في قوله: فأقبره تدل على وجوب المسارعة في الدفن دون إبطاء . وزيادة في التكريم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باحترام المكان الذي يدفن فيه الميت ، فلا يجوز الجلوس على القبر ، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذا فيه إيذاء للميت ، " ولأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من الجلوس على القبر ".[(٤)]

وفي زيارة الميت والدعاء له بالرحمة والمغفرة ، وفي الدعاء لموتى المسلمين تواصل ومحبة وتقدير وتكريم ، وصدق الله إذ قال : { **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** } .

---

(١) المسند ٦ / ١٠٥ عن عائشة رضي الله عنها
(٢) المائدة ٥ / ٣١
(٣) عبس ٨٠ / ١٧ - ٢٢
(٤) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي

٢- الإنسان : وصلته بالكون :

أ- صلة انتفاع :

خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته وخلق له أنيسا يذهب وحشته هى حواء ، وأمرهما ألا يأكلا من الشجرة فوسوس لهما الشيطان وزين لهما المعصية فأكلا منها **{فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ(٢٢)قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢٣)قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٢٤)قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}**(١).

فنزل آدم وحواء إلى الأرض بعد أن تابا إلى الله وقبل الله توبتهما ، فليس نزولهما نزول طرد وإبعاد وإهانة ، إنما نزول رحمة وتكريم بعد أن لبثا فى الجنة وقتا أخذا فيه درسا فيمن هوعدوهما ، وليبصّرا أبناءهما بهذا العدو حتى لا يقع واحد من هؤلاء الأبناء فى شراك العدو اللدود : إبليس اللعين .

---

(١) الأعراف ٧ / ٢٢ - ٢٥.

وآدم وأبناؤه من بعده خلفاء فى أرض الله يعمرونها وفــق منـهج الله... يستخرجون كنوزها ، ويستفيدون من خيراتها وبركاتها ، وينشئون فيها حضارة تتوالى الأجيال على بنائها وإقامتها ، فكيف يتم لهم ذلك ؟

لا يتم لهم ذلك إلا بتمكين الإنسان مما حوله من الكائنات ، وتسخيرها له وانقيادها لإرادته ، وإذا كانت كل الكائنات والمخلوقات منقادة لله ، عابدة له ، مسبحة بحمده ، وهو سبحانه مالك أمرها ومدبر شئونها ، فإنه جل وعلا أعطى الإنسان هذا الملك لينتفع به فيحقق ما كلفه به ربه من الخلافة عنه فى هذه الأرض ..

وهذا ما نراه فى آيات القرآن التى تتحدث عن تسخير المخلوقات للإنسان وتذليلها له ، وتمكينه منها ، وأن الله خلق لكم ، أو جعل لكم ، أو أنشأ لكم أو ما إلى ذلك مما يدل على هذا التمليك المقصود من الله لعباده ليؤدوا وظيفتهم فى هذه الحياة ..

وبجمع الآيات فى هذا الموضوع يتضح لنا أن مادة " التسخير تأتى أحيانا دليلا على قدرة الله فى خلقه ، وأن المخلوقات لا تشذ عن أمره ، وأحيانا يمتن بهذا التسخير على الإنسان ، وأن الله هو الذى جعلها منقادة لهذا الإنسان ، نقرأ فى المعنى الأول كل ما جاء من مادة التسخير اسم مفعول مفرداً أو جمعًا : وذلك فى أربعة مواضع : فى البقرة { والسحاب المسخر بين السماء والأرض } وفى الأعراف : { والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره } ، وفى النحل فى موضعين :

١- **{ والنجوم مسخرات بأمره }** .

٢- **{ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله }** .

أما ما جاء منها فعلا ماضيا مسندا إلى " نا " فكله فى المعنى الثانى وهو تسخير هذه المخلوقات للإنسان، من ذلك تسخير الجبال والطير يسبحن مع داود عليه السلام وذلك قوله تعالى : **{ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير }** وقوله : **{ إنا سخرنا معه الجبال يسبحن بالعشى والإشراق }** .

ومن ذلك التسخير ، تسخير الريح لسليمان عليه السلام ، **{ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب }** .

وتسخير البعير ـــ ذكرًا وأنثى ـــ رغم ضخامته وقوته للإنسان حتى تمكن من قيادته والانتفاع به وذبحه والاستفادة من شعره وعظمه ولحمه وشحمه كما قال تعالى : **{ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف** (أى قائمة) **فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون }** .

أما إذا جاء فعل التسخير ماضيا مسندًا إلى ضمير المفرد العائد إلى لفظ الجلالة فإنه يجمع بين الأمرين ، ففى الأمر الأول نقرأ قول الله تعالى: **{ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى}**[1] ... }ومثل

---

(١) الرعد ١٣ / ٢ .

هذا ما نقرؤه في لقمان ، وفاطر ، والزمر [١]. وهذا المعنى يسوقه وهو يحدثنا عن اعتراف المشركين بربوبية الله وإن أنكروا ألوهيته فيقول : { ولئنْ سألْتَهُمْ منْ خلَقَ السَّمَوَاتِ والْأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [٢].

أما المعنى الثاني وهو أن الله سخرها للإنسان فنقرأ فيه في سورة إبراهيم قوله تعالى :

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ(٣٢)وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(٣٣)وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [٣]. ونقرأ في " النحل " قوله سبحانه : {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(١٠)يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١١)وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهار وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٢)وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(١٣)وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

---

(١) لقمان ٣١ / ٢٠ ، فاطر ٣٥ / ١٣ ، الزمر ٣٩ / ٥ .

(٢) العنكبوت ٢٩ / ٦١.

(٣) إبراهيم ١٤ / ٣٢ – ٣٤ .

تَشْكُرُونَ(١٤)وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥)وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(١٦)أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٧)وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}(١). ففي هذه الآيات التي ذكرتُها كاملة نرى أن الله يمتن على عباده بأنه أنزل من السماء ماء من أجلهم في شرابهم وأشجارهم وأنعامهم وزراعتهم ، وأنه سخر لهم الليل والنهار والشمس والقمر ، وخلق ما خلق في الأرض على اختلاف ألوانه لهم ، وسخر البحر لطعامهم وحليتهم وتجارتهم وأرزاقهم وألقى في الأرض رواسي لئلا تميد بهم وتضطرب ، ومن قبل هذه الآيات في سورة النحل نرى ما امتن به من خلق الأنعام وما جعل فيها من منافع للإنسان ، وكثيرًا ما يَسألُ القرآن فيقول : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ}(٢). ويقول : { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}(٣). ويقرر هذا من خلال اعتراف المشركين بربوبيته ليدعوهم من ذلك إلى توحيد ألوهيته ــ كما سبق أن ذكرنا ــ فيقول : {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(٩)الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠)وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ

---

(١) النحل ١٦ / ١٠ – ١٨

(٢)الحج ٢٢ / ٦٥

(٣) لقمان ٣١ / ٢٠

تُخْرَجُونَ(١١)وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(١٣)وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ}(١). ويؤكد هذه الحقيقة فى سورة الجاثية فيقول : { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(٢).

وهذا التسخير يعبر عنه بالتذليل وهو شدة الانقياد : نرى ذلك فيما نشاهد من انقياد الأنعام من الإبل والبقر والغنم والضأن مع ما لها من قوى تفوق قوى الإنسان بمراحل وذلك قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(٧١)وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢)وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ}(٣). وما نراه فى هذه الأرض وكيف أنها لا تستعصى على الحرث والإنبات والسير فى جنباتها يقول تعالى :{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}(٤).

كما نرى هذا المعنى فى قول الله تعالى : {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}(٥). والتمكين فى الأرض كما

---

(١) الزخرف ٤٣ / ٩ – ١٤
(٢) الجاثية ٤٥ / ١٢
(٣) يس ٣٦/ ٧١-٧٣.
(٤) الملك ٦٧ / ١٥
(٥) الأعراف ٧ / ١٠

يقول الفخر الرازى : جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا ومكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها[1] إلى غير ذلك من الآيات التى تبين أن الله جعل هذا الكون كله فى سمائه وأرضه وبحاره وأنهاره وشموسه وأقماره وجميع مخلوقاته فى خدمة هذا الإنسان لا يصعب عليه شىء منه ، وجعل الحق سبحانه لذلك أسبابا من عرفها واتخذها مركبا قادته إلى ألوان من الاكتشافات تيسر له حياته ، يستوى فى ذلك المؤمن وغير المؤمن ، وإن كانت رسالات الأنبياء قد دلت على أنه لكى يصل الإنسان إلى طريق الأمان والسعادة ويبنى حضارته على أسس من المحبة والتعاون والأمان لابد من امتزاج عناصر ثلاثة :

الإيمان والعلم والعمل ، وهى حبات عقد نفيس ، لو انتظمت هذه الحبات فيه ، تحلى الإنسان بأكرم حياة وأجمل مظهر وبدا إنسانا يحقق إنسانيته فإذا انفرطت حبة من هذا العقد لم يصل إلى شىء مما يرجو ، فلو فقد الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر لانطلق بالعلم الذى اكتشف به قوى هذا الكون كالسكران تعطيه سلاحا فيقتل به نفسه ويقتل به غيره ، وما يحدث للإنسان فى أنحاء الأرض من قتل وتشريد وما ينتشر هنا وهناك من ألوان الفساد والدمار وما يراق من دماء ، وما فيه العالم كله من ذعر وخوف من أسلحة الهلاك والإبادة ، كل ذلك حدث لأن عنصر الإيمان قد غاب من هذه المنظومة الربانية ، ولو وجد الإيمان بدون "علم" لما كان هناك تقدم ، وهذا حال المسلمين فى عصورهم الأخيرة إذ سبقهم غيرهم فى مجالات اكتشاف مجاهل الكون فى سمائه

---

(١) تفسير الفخر الرازى المسمى بالتفسير الكبير ط بيروت م ٥ / جـ ١٣ ص ٢٠٤

وأرضه حتى أصبح المسلمون عالة عليهم في أمنهم وغذائهم وكسائهم بل وفى ترفهم ، وإذا فقد العنصر الثالث وهو العمل لن يصل الناس إلى تحقيق آمالهم ، وانظر إلى خطط أمة الإسلام وهى تنفق على طلاب العلم الملايين ولكن دون الاستفادة من كثير من هذه الطاقات الهائلة ... فالآلاف من هؤلاء المتعلمين الذين حصلوا على المؤهلات العليا ، بلا عمل ، وإن حصلت لهم بلادهم على فرص للعمل فكثيرا ما يكون في غير مجال التخصص والدراسة.

إن الله عز وجل حين خلق هذا الكون وأقدر عليه الإنسان إنما أراد للإنسان أن ينتفع بذلك كل الانتفاع وأن يستفيد منه في إعمار الأرض تحقيقا للغاية التي هبط من أجلها إلى هذه الأرض وهى أن يكون خليفة فيها يحقق بإيمانه وعلمه وعمله العبودية لله رب العالمين ، فمن أدرك هذا فاز وسعد وأمن ونجا وكان من المفلحين .

٢- صلة الإنسان بالكون :

ب - صلة تفكر ...

إذا كان الله قد سخر للإنسان الكائنات لينتفع بها ، وليتمكن من القيام بمهمة الخلافة في الأرض ــ كما رأينا ــ فإنه يترتب على هذه الحقيقة أمران :

الأمر الأول : هو أنه لا يمكن أن يكون مُسخرًا ومنقاداً لكائن من هذه الكائنات في السموات والأرض ، إنه منقاد لخالق هذه الكائنات ومسخرها ومدبر أمرها ، وباستقرار هذه الحقيقة يتبين لنا خطأ من قالوا

بأن الإنسان ترس فى الآلة ، ومحكوم بظواهر الطبيعة ، إلا أن يقال بأن نواميس الوجود الذى هو جزء منه تعمل عملها فيه بأمر الله وقدرته .

الأمر الثانى : هو فى صلة الإنسان بهذه المخلوقات التى أذن الله له أن ينتفع بها وذللها له وأعطاه قيادها ... عليه أن يتفكر وينظر ويعتبر ليدرك أنها وُجدتْ قبل وجوده ، وأنها أعظم منه خلقاً وقدرة ، فمن الذى أوجدها ؟ ومن الذى أعطاها هذه الطاقات الهائلة ؟ ثم يتساءل : من الذى سخرها له وجعلها سلسلة القياد ؟ وبهذا النظر وهذا التفكر يصل من السبب إلى المسبب ومن الفعل إلى الفاعل ، فإذا ما وصل إلى ذلك علم فضل المنعم وما يجب له من حق العبودية والطاعة والخضوع والشكر والثناء.

وبهذا يتم التفاعل بين الإنسان وهذا الوجود فيشعر أنه جزء من هذا الكون يسبح معه ، كما قال تعالى : { **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**}[1] "وهو تعبير تنبض به كل ذرة فى هذا الكون الكبير، وتنتفض روحًا حيَّة تسبح الله ، فإذا الكون كله حركة وحياة ، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية ، ترتفع فى جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال ، وإنه لمشهد كونى فريد ، حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر ، كل حبة وكل ورقة ، كل زهرة وكل ثمرة ، كل نبتة وكل شجرة ، كل حشرة وكل زاحفة ، كل حيوان وكل إنسان ، كل دابة

---

(١) الإسراء ١٧ / ٤٤

على الأرض ، وكل سابحة فى الماء والهواء ، ومعها سكان السماء ، كلها تسبح الله وتتوجه إليه فى علاه "[1]

وهذا ما أراده القرآن وهو يعرض صفحة الوجود فى السماء والأرض ، تراه يأمر بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، والسير هنا وهناك للتفكر والاعتبار ، ويستثير كوامن العقل والفكر ، يدفعها دفعا قويا لتعقل وتدبر ، وتفقه وتعلم ، ويَسْخَرُ ممن عميت أبصارهم وأغلقت منافذ الفهم فيهم ، ولم يستفيدوا من أسماعهم وأبصارهم وعقولهم فى الوصول إلى معرفة الخالق جل وعلا ...

يقول تعالى : **{أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ...}**[2]

ويقول : **{ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}**[3]

ويقول : **{ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}**[4]

---

(١) فى ظلال القرآن : سيد قطب م ٤ ص ٢٢٣٠ ، ٢٢٣١

(٢)الأعراف ٧ / ١٨٥

(٣)يونس ١٠ / ١٠١

(٤)الأنعام ٦ / ٩٩

ويقول : { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(٢٤)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(٢٥)ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا(٢٦)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(٢٧)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(٢٨)وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(٢٩)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(٣٠)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(٣١)مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}(١)

ويقول :{ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ(٥)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(٦)يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}(٢)

وليس هذا النظر إلا للغوص فى أسرار الوجود لينطق اللسان والجَنَان والوجدان بإن الله وحده هو رب ذلك ومصرفه ومدبره ، وأن هذا الرب له على عباده حق الطاعة والعبودية والمحبة ، فلا معبود بحق إلا هو ، كما أنه لا رب لهذا الوجود سواه .

وهذا المعنى نجده كذلك حين نقرأ الآيات التى تـأتى فى سياق الحديث عن مخلوقات الله فتبدأ أو تختم بالدعوة إلى التفكر كما نرى فى قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى}(٣) وقوله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(١٩٠)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ

---

(١)سورة عبس ٨٠ / ٢٤ – ٣٢

(٢)الطارق ٨٦ / ٥ –٧

(٣)الروم ٣ / ٨

النَّارِ}[1] إلى آخر الآيات بما فيها من هـذا الدعـاء الضـارع لله رب العالمين .

ونقرأ فى سورة الرعد : { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } وبعد هذه الآية يقول أيضـا : {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[2] والعقل أداة الفكر ، فالمناسـبة بينهما ظاهرة .

وفى آيات النحل التى ذكرناها من قبل فى الفقرة السابقة نـرى أن الآيات تختم هكذا : { إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون } ، { إن فى ذلـك لآيات لقوم يعقلون } ، { إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون }[3]

كما نرى دعوته للتفكر فى عالم النحل بكل ما فيه من عجائب الخلق فيقول :{ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(٦٨)ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ

---

(١)آل عمران ٣ / ١٩٠ ، ١٩١
(٢)الرعد ١٣ / ٣ ، ٤
(٣)النحل ١٦ / ١١ – ١٣ ، ٦٨ ، ٦٩

مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } إلى غير ذلك من الآيات .

والآيات التي تستثير العقل ليتدبر ويفكر ويعتبر نراها كثيرة في القرآن منها قوله تعالى في سورة البقرة : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}(١)

والصلة بين كتاب الله المسطور ، وكتاب الله المنظور صلة واضحة، فكل منهما يرشد إلى الخالق المتصف بصفات الجلال والكمال .

وآيات الله في الأنفس وفي الآفاق في سورة الروم تختم على التوالي بقوله تعالى : { إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون } ، { إن في ذلك لآيات للعالمين } { إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون } إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون } ، إلى أن قال : { كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون}(٢)

والعقل واللب واحد ، وكثيرا ما يدعو القرآن أصحاب العقول وهم أولو الألباب للنظر والتفكر ، وقد رأينا قول الله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}(٣)

---

(١)البقرة ٢ / ١٦٤
(٢) الروم ٣٠ / ٢٠ - ٢٨
(٣)آل عمران ٣ / ١٩٠

إن الإنسان الذى صاغه كتاب الله ليس دُمْيةً تتحرك ولا حجـراً لا يلين ، بل إن من الحجارة ـ كما قال تعالي : { **لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَار وإنَّ منْها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ**}(١) لكن الإنسان مخلوق من جسد وروح ، يحلق بروحه وعقله وفكره في هذا الوجود فيشعر بوجوده وسعادته وامتداد أفقه ، ورحابة هذا الكون من حوله وأن وراء هذه الأسباب مسبباً ووراء هذا الكون مكوِّناً ، جاءت رسالات الأنبياء التى ختمت برسالة الإسلام لتدله على هذا المسبب وهذا المكون وهذا الخالق وذلك الموجد ، ولتصفه له ولترشده إلى ما يجب عليه إزاء الرب الكبير المتعال من حق الطاعة والعبودية والانقياد .كما سنرى من إيضاح فى الفقرة التالية :

٣- صلة الإنسان بالله :

أ- صلة عبودية ، وتحرر من عبودية غيره : -

هذا الكون كله عابد لله ، منقاد له ، يسبح ربه ويسجد له بلغة وحركات لا نعرفها ، إذ بعد أن خلق الله السموات والأرض وما فيهما ومن فيهما خيَّرهما بين الانقياد له اختيارا أو كرهًا ، فسلما له القياد :

قال تعالى فى قصة خلق السموات والأرض : { **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** }(٢)

وهذه الطاعة يعبر عنها بالقنوت ، وهى أقصى درجات الخضوع والعبودية فيقول فى الرد على من قالوا بأن الله له ولد : { **وَقَالُوا اتَّخَذَ**

---

(١)البقرة ٢ / ٧٤

(٢)فصلت ٤١ / ١١

اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}(١) ويعبر عنها بالسجود ، انقيادا وخضوعا وتذللا ، وهذا ما يسأل عنه القرآن المشركين سؤال تقرير ليقودهم إلى العبودية له فيقول : { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ(٤٨)وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(٤٩)يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}(٢)

والإنسان جزء من هذا الكون خلقه الله لعبادته قال تعالى : {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين }(٣)

إلا أن الله جعل هذا الإنسان مختاراً فى جانب ، مقهورا فى جانب آخر ، فله أن يختار بين الخير والشر والإيمان والكفر والهدى والضلال، وما ينفعه وما يضره ، ولكنه لا اختيار له فى خلقه ورزقه وأجله ، وما قدره الله له من سعادة وشقاء ، فهو لا يستطيع أن يختار الزمن الذى يولد فيه ، ولا من يكون له أبا أو أما ، ولا لونه وطوله وعرضه وصحته ، وهل يرغب فى أن يكون رزقه واسعا أو ضيقا ، ولا كم سيعيش فى هذه الدنيا ومتى يريد أن يرحل عنها ، وما إلى ذلك ، ولعل هذا ما يشير إليه

---

(١) البقرة ٢ / ١١٦

(٢)النحل ١٦ / ٤٨ – ٥٠

(٣)الذاريات ٥١ / ٥٦ – ٥٨

التعبير بالاستسلام لله كرهًا فى قول الله تعالى : { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُــون وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُــونَ}(١)، والتعبير بالسجود له كذلك كَرهًا كما قال سبحانه : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِــي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}(٢) وكما قال: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّـمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَــقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ}(٣)

ومع هذا الانقياد من كل المخلوقات بما فيها الإنسان تسبيح وتنزيــه للإله الخالق كما قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ}(٤) وهذا التســبيح من غير الإنسان بطريقة لا نعرفها كما قال تعالى : { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْــدِهِ وَلَكِــنْ لَــا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}(٥)

وإذا كان الله قد سلب الإنسان حــرية الاختيــار فيمــا لا مجــال للاختيار فيه وأعطاه هذه الحرية بين البدائل فيما أذن له فيه فإنمــا كــان

---

(١)آل عمران ٣ / ٨٣

(٢)الرعد ٢٤ / ١٥

(٣)الحج ٢٢ / ١٨

(٤)النور ٢٤/٤١

(٥)الإسراء ١٧/٤٤

ذلك لحكمة إلهية حتى تنتظم حياة هذا الإنسان فى هذه الأرض ، ويـؤدى رسالته التى كلف بها من قِبل مولاه وهو لن يحقق هذه الرسالة على أكمل وجهها إلا بأن يجعل هذا الجانب الاختيارى لله ، فيختار الإيمان والخير والهدى والحق ، ويترك الكفر والشر والضلال والباطل ، وهذا ما دعاه إليه ربه، وأرسل له الرسل وأنزل الكتب ، ليبين له حقيقة الصلة التى تربطه به ، إن الله هو الذى خلقه ورزقه وأحياه ويميته ، فمن أولى به منه ؟ من يكون له على هذا الإنسان حق الطاعة والعبودية والانقياد غير رب العالمين ؟ يقول سبحانه : { **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**}(١)

وآيات القرآن فى هذا المعنى كثيرة ، وهى تخاطب العقل والوجدان وتثبت بالأدلة القاطعة أن من كان ربا خالقا رازقا ، له ملك السموات والأرض : ملكا ومُلكا وتصريفا وتدبيرا هو الذى يجب أن يتأله له الخلق، وأن يدين له العباد بالطاعة والمحبة ، والولاء ، شكرًا لنعمته ، ووفاء بحقه ، ولنقرأ فى ذلك قول الله تعالى : { **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ(٥٩)أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ(٦٠)أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا**

---

(١)الروم ٣٠ / ٤٠

دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَةٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ(٦٢)أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَةٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٣)أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَةٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}(١)

وهل لهم برهان حتى يأتوا به ؟ إنه الدليل تلو الدليل والبرهان يعقب البرهان يستثير كل كوامن العقل ، وإدركات البشر ليتأملوا فى خلق الله وليعلموا أنه لا رب لهم سوى الله ، وأن هذا حقه على عباده ، ففى حديث معاذ قال : أتدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قال معاذ : فقلت : الله ورسوله أعلم ، قال : " حق الله على العباد ألا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشركُ به شيئًا "(٢)

إن الإنسان لو تأمل وعقل لأدرك أن سعادته وأمنه فى الانضواء تحت لواء العبودية لخالقه ، فبها يلبى حاجة قلبه وفطرته ، ويركن إلى ركن ركين له كل صفات الكمال ، ولذلك قال تعالى : { الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}(٣) فإن عبد غيره توزع فكره وقلبه ، وتشتت عليه أمره ، وحرم السعادة فى الدنيا والآخرة ولذلك شبه الله المشرك بمن سقط من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق أو بمن كان عبدًا لشركاء مختلفين فيه فلا

---

(١)النمل ٢٧ / ٥٩ - ٦٤

(٢)متفق عليه .

(٣)الرعد ١٣ / ٢٨

يدرى ممن يطلب طعامه وشرابه وأمنه ، وكل منهم يريده خادمًا له ، ولنقرأ فى ذلك قول الله تعالى : { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }(١). وقوله : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }(٢).

والقرآن وهو يعرض لهذه القضية نراه يبين أمرين :

الأول : أن هذه الآلهة المدعاة عاجزة ضعيفة لا تصلح للألوهية ، والثانى : أنها لا ترضى بأن يعبدها غيرها بل وتتبرأ إلى الله ممن عبدوها .. ففى الأمر الأول يثبت القرآن أن هذه الآلهة لا تملك لنفسها فضلا عن غيرها نفعا ولا ضرًا ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً يقول تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}(٣)

وهذه الحجة هى التى دفع بها إبراهيم الخليل عليه السلام عبادة قومه للأصنام : "قال": { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ(٦٦)أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ }(٤)

---

(١)الحج ٢٢ / ٣١

(٢)الزمر ٣٩ / ٢٩

(٣) الفرقان ٢٥ / ٣

(٤)الأنبياء ٢١ / ٦٦ ، ٦٧

وفى الرد على النصارى فى عبادتهم للمسيح عليه السلام يقول تعالى : {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ...}(١)

وفى قصة موسى فى سورة "طه" يقول تعالى لمن عبدوا العجل من دونه : { أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا}(٢)

ولذلك يقول الله لرسوله : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ(١٠٦)وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}(٣) ، وأهل الإيمان يقولون ما ذكره الله عنهم: { قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ؟ }(٤)

إلى غير ذلك من الآيات التى تجعل الرزق والخلق والبدء والإعادة والقدرة لله ، وتتساءل هل فيمن عبدوهم معه أو من دونه من يستطيع ذلك؟ والواقع يقول : بأنهم عاجزون ضعفاء فى حاجة إلى من يرزقهم وأن الله هو الذى خلقهم وهو الذى يعيدهم ، يقول تعالى : {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ

---

(١)المائدة ٥ / ٧٦

(٢)طه ٢٠ / ٨٩

(٣)يونس ١٠ / ١٠٦ ، ١٠٧

(٤)الأنعام ٦ / ٧١

الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٣١)فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(٣٢)كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٣٣)قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٣٤)قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}(١)

أما الأمر الثانى وهو أن هذه المخلوقات تتبرأ من عابديها فنقرأ فى ذلك قول الله تعالى فى عيسى عليه السلام : {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}(٢). إلى آخر ما قال عليه السلام ...

ونقرأ قوله تعالى : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ(١٧)قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا}(٣)

---

(١)يونس ١٠ / ٣١ – ٣٥

(٢)المائدة ٥ / ١١٦

(٣)الفرقان ٢٥ / ١٧ ، ١٨

والمشركون أقاموا عبادتهم للأصنام على فهم خاطىء ، فادعوا أن الملائكة ـ وهى عالم روحانى ـ حلت بأصنامهم فهم حين يعبدون الأصنام ترفعُ الملائكة التى بها عبادتهم إلى الله تعالى وهذا ما ذكره الله من قولهم : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}(١) . وما قاله عنهم: { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}(٢) ، ولذلك يتبرأ هؤلاء الملائكة مما نسب إليهم قال تعالى : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(٤٠)قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}(٣)

وإذا استقر فى القلب والوجدان والمشاعر أن الله هو الواحد الأحد الفرد الصمد المتصف بصفات الجلال والكمال وأن كل المخلوقات عبيده، وكل المخلوقات إليه فقيرة محتاجة وهو الغنى الحميد ، إذا استولى هذا الإيمان على الإنسان فتعلق بربه ولاذ بجنابه ، واتجه إليه بكل كيانه ، واستجاب لندائه ، ودان له بالطاعة والمحبة والعبودية ، أشرق كيانه ووجدانه بنور الحق ، وصدق اليقين ، ونظر من هذا الأفق السامق الباسق فوجد طلبته عند مولاه ، فلم يطلب شيئًا من أحد سواه ، وهذا ما أرساه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القلوب المؤمنة حتى حررها

---

(١)الزمر ٣٩ / ٣

(٢)يونس ١٠ / ١٨

(٣)سبأ ٣٤ / ٤٠ – ٤٢

أرساه رسول الله صلى الله عليه وسلم في القلوب المؤمنة حتى حررها من كل عبودية لغير الله ، هذا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما غلام لم يجاوز العاشرة من عمره يُزكيه رسول الله صلى خلفه على راحلته ثم يسأله : "يا غلام ألا أعلمك كلمات ؟؟ احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام وطويت الصحف "(١) وكم في هذه التوجيهات النبوية من أسرار وأنوار ومناهج تربية وسلوك ، ونبع هذه التوجيهات من كتاب الله الذى أسقط الوسائط بين الخلق والخالق ، وفتح الباب للتائبين والطالبين وأصحاب الحاجات ، بل جعل من اتخذ هذه الوسائط مشركا لأنه منحها ما لا يحق لها وجعل لها ما لله من حق العبودية والطاعة فقال سبحانه : { **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**}(٢)، وقال : { **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** }(٣)

---

(١)الترمذى قيامة ٥٩ مسند أحمد ١ / ٢٩٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧

(٢)البقرة ٢ / ١٨٦

(٣)غافر ٤٠ / ٦٠

بل إن الله يغضب ممن لم يسأله روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لم يسأل الله يغضب عليه "[1] . وفي هذا يقول الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله   وبني آدم حين يُسأل يغضب

وإذا كنا قد عرفنا ما في توجيه القلوب والمشاعر والأحاسيس وجهة واحدة تتلخص في الاستسلام المطلق لله بالدعاء والضراعة وأن هذا قد حرر المؤمنين من كل عبودية لغير مولاهم فلا بد أن نلفت الأنظار إلى ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة وأن الدنيا دار ممرٍّ وأن الآخرة دار القرار ، وأن ما بأيدي من فيها عارية ومن فيها ضيف ، والضيف مرتحل والعاريةَ مُستَردَّةٌ ، وأن الإنسان مستخلف فيما خوّله الله من أعراضها إلى حين ، وهي معانٍ إن استقرت في القلوب حررتها من العبودية للدنيا والدرهم ومظاهر الزينة ومباهج الحياة فأهل الإيمان يمتلكون ذلك في أيديهم ، يسخرّونَها لأغراضٍ نبيلة وغايات سامية ، لكنها لا تستعبدهم ، ولذلك دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على من ذللته الدنيا واستعبدته مظاهرها فقال : "تعِسَ عبدُ الدينار ، تعس عبْدُ الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش "[2] أي إذا أصابته شوكة لم يجد منقاشا يعالج بها شوكته .

---

(١)انظر تفسير ابن كثير ٤ / ٨٥

(٢)رواه البخاري في الجهاد وفي الرقائق ، وابن ماجه في الزهد .

فأى حرية لأهل الإيمان بعد هذه الحرية ؟ إنهم ينظرون إلى الدنيا من أفقيم الربانى ، يؤمنون بقدر الله ، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ... همهم إذن واحد هو هم الآخرة والوصول إليها سالمين فائزين ، لا تستعبدهم شهوة ولا يستولى على قلوبهم عرض زائل ، ولا يخضعون لمخلوق مهما بلغ سلطانه ، إنهم عُبَّاد لله يلهجون إليه بالدعاء ، ويضرعون إليهم بالرجاء ، له يسجدون وعليه وحده يتوكلون ، فنعم ما يصنعون.

<u>٣-صلة الإنسان بالله:</u>

ب- صلة تكليف ومسئولية.

الإنسان عابد لله طوعاً أو كرها ، منقادٌ لخالقه فيما لا مجال للاختيار فيه ، وهذا المعنى يتساوى فيه المؤمن والكافر ، فإذا انقاد الإنسان لله فيما جعل له فيه اختياراً فآمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا فهو عبد لله طائع له ، وهذه هى الصلة الحقيقية الجديرة بالإنسان حتى لا يكون نغمةً نشازاً فى هذا الوجود المسبح لربه ، العابد له ، فماذا تعنى هذه العبودية لله ؟ هل هى علاقة محبة وتعلق بالإله الذى بيده الخير كله والملك كله فحسب ؟ يشعر العابد فى محراب مولاه بضعفه وعجزه وحاجته فيجأر لربه يسأله من فضله وواسع جوده وكرمه ، وكفى ؟ أو أن هذه العلاقة تفرض على العبد المؤمن بربه فوق هذا مسؤليات وتكاليف ، فى أدائها برهان على صدق عبوديته لربه ؟ إننا إذا أجلنا النظر فى كتاب الله وسنة رسوله

صلى الله عليه وسلم سيتضح لنا أن صلة الإنسان بالله ، صلة عبودية له وهذا يعنى أنها صلة تكليف ومسئولية ، وهذه هى الأمانة التى تحملها الإنسان الأول آدم عليه السلام وتحملها تبعا له أبناؤه من بعده ، والتى عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها كما قال تعالى : { **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** }(١)

"قال العوفى عن ابن عباس يعنى بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم : إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال: يارب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جُزيت وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى : **وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا**.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الأمانة: الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا منه من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله ألايقوموا بها ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها .. (٢)

فالإنسان إذن مؤتمن على دين الله ، بكل ما فى هذا الدين مما جاء به وحى الله المنزل فى كتابه أو ما جاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم فهو شق الوحى كما قال عليه الصلاة والسلام " ألا إنى أوتيت القرآن

---

(١)الأحزاب ٧٢/٣٣

(٢)انظر تفسير ابن كثير ٥٢٢/٣

ومثله معه "([1]) وفى أداء هذه الأمانة صدق العبودية لله ، وبمقدار أدائها تكون درجة العبودية والتى هى الغاية من خلق الخلق كما قال تعـــالى : { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }([2])

ولذلك كانت العبادة اسما جامعا لكل ما يحبـــه الله ويرضـــاه مـــن الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، ويدخل فيها كل ما جاء به الدين من صلاة ، وزكاة وصيام وحج ودعاء وذكر وقراءة للقرآن وخُلـــق كريـــم كصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد والإحسان للجار واليتيـــم والمسكين وابن السبيل والرحمة بالضعفاء من الإنسان والحيوان ، كمـــا يدخل فى العبادة : حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليـــه وإخـــلاص الدين له ، والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضـــا بقضائـــه والرجـــاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك([3])

وبهذا يتضح لنا أن صلة الإنسان بالله صلة عبودية له بكـــل مـــا تفرضه العبودية من تكاليف ، وما توجبه من التزام بمنهج الله وما يترتب على هذا من سعادة فى الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

٤- إنسانية الإنسان مقياس تقدمه وارتقائه:

وردت كلمة الإنسان فى القرآن - كما قلنا ٦٥ مرة ، وبالتـــأمل فيها وردت فيه من آيات ندرك أنها مرة تتكلم عن الإنسان من حيث إنـــه

---

(٢) رواه أبو داود ٤/ ٢٩٧

(٣)الذاريات ٥٦/٥١

(٤)انظر العبودية : لشيخ الإسلام ابن تيميه ط الثانيه ١٣٣٧ هـ/١٩٧٨ م

مخلوق من سلالة من طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار وهذا هو آدم عليه السلام أو مخلوق من نطفة أمشاج وهذا هو حال أبناء آدم عليه السلام وهذه الحقيقة تأتي في سياق بيان قدرة الله ودعوة الإنسان إلى توحيد الله وألوهيته والإيمان بأن من قدر على ذلك قادر على إعادة هذا الإنسان وإحيائه بعد موته للحساب والجزاء .

ومرة تتحدث الآيات عن الإنسان وما منحه الله من علم ومعرفة {الرَّحْمَنُ(١)عَلَّمَ الْقُرْءانَ(٢)خَلَقَ الْإِنْسَانَ(٣)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}[١]

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١)خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٣)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤)عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.... }[٢] وأخرى تتحدث عن الإنسان المسئول عن أفعاله ، { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا(١٣)اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(١٤)مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}[٣]

---

(١)الرحمن ٥٥/١-٤

(٢)العلق ٩٦ /١-٥

(٣)الإسراء ١٧/١٣-١٥

{وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى(٣٩)وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠)ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى}(١)

وكلمة " الإنسان " التى ذكرت ست مرات فى سورة القيامة كلها فى هذا المعنى وآخرها : **{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(٣٦)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(٣٧)ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨)فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٣٩)أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}**(٢)

وتتحدث الآيات عن الإنسان الضعيف أمام سلطان شهوته وأن الله أعانه على هذا الضعف بما منَّ عليه من كتاب وهداية كما قال تعالى : **{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٢٦)وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا(٢٧)يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}**(٣) ولهذا جاءت آيات القرآن تحذره من الشيطان وتأخذ بيده إلى مراتب الكمال ، وتذكر له أن ما تدعوه إليه نفسه وشهوته وشيطانه من كفران نعمة الله ، وجحود فضله يؤدى به إلى التعاسة والشقاء وأن الخير له أن ينضوى تحت الحماية الإلهية والهداية الربانية وأن يسلك طريق الحق ، ولنتأملْ هذه التعبيرات القرآنية: **إن الإنسان لظلوم كفار ، وكان**

---

(١)النجم ٣٩/٥٣-٤١

(٢) القيامة ٧٥/ ٣٦٠-٤٠

(٣)النساء ٢٦/٤-٢٨

الإنسان كفورا ، وكان الإنسان قتورا ، وكان الإنسان أكثر شئ جدلا ، إن الإنسان لكفور ، إن الإنسان لكفور مبين ، إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن الإنسان لربه لكنود ... وكل هذه الصفات والأخلاق الذميمة تهبط بالإنسان من القمة الباسقة التى جعله الله فيها حين اختاره خليفته فى الأرض ، وعلمه الأسماء كلها ، وأعلن نبأ مقدمه إلى هذه الأرض فى الملأ الأعلى فى موكب عظيم من الملائكة الذين أمرهم الله بالسجود لآدم ، تعظيماً لأمر ربهم فسجدوا إلا ابليس أبى ، وهذا التسامي والارتقاء فى التخلق بالأخلاق الكريمة ، والالتزام بوحى الله كتابا وسنة ، هو مقياس إنسانية الإنسان ، والدليل على تقدمه وارتقائه وإلا كان أقل شأنا من الحيوانات العجماوات كما قال تعالى : {**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** }(١) وكما قال سبحانه : {**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا(٤٣)أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا.. **}(٢)

وجماع الأخلاق الفاضلة التى هى عنوان تقدم الإنسان وارتقائه: العلم ، العلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والمعرفة

---

(١)الأعراف ٧/١٧٩

(٢)الفرقان ٢٥ / ٤٣،٤٤

الجامعة ، فإن ذلك هو الأساس لكل عمل ، والضابط لكل سلوك ، فــإذا اجتمع الإيمان والعلم والعمل فى إنسان ما فهو الإنســان الإنســان ، وإذا ضاع واحد منها فلا قيمة لأى عمل ، ولذلك قال تعالى فــى الكــافرين : {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً}[1] وحين سئل ابن المبارك : من الناس ؟ قال : العلماء ، يقول الإمام الغزالى فى بيان ذلك:" لم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التى يتميز بها النــاس عــن سائر البهائم هو العلم ، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك بقوة شخصه ، فإن الجمل أقوى منه ، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منــه ، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنا منه ، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه ، بل لم يخلــق إلا للعلم "[2] وهذه الخاصية هى التى امتاز بها الإنسان فى عالم الملائكــة قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَــالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَــدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَــادِقِينَ(٣١)قَــالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢)قَــالَ يَــاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَــمُ غَيْــبَ

---

(١)الفرقان ٢٥/٢٣

(٢)إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ١/٧ ط دار المعرفة – بيروت

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }[1] والعلم هنا علم بالله وأسمائه وصفاته وما يجب له من الطاعة والعبودية وعلم بعناصر هذا الكون وكيفية الاستفادة منه ، ولا غنى لواحد من العلمين عن الآخر ، فإن علم الإنسان بربه فأطاعه واهتدى بهديه ، وقعد عن الجانب الثاني وهو العلم بعناصر هذا الكون لم يستطع أداء وظيفته في عمارة الكون الذى سخره الله له ، كما هو حال مسلمى هذا الزمان ، وإن جهل طريق ربه وضل السبيل ولم يؤمن الإيمان الحق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفوق فى معرفة جوانب المادة كان هذا التفوق وذلك العلم وبالا عليه فإنه وإن يسَّر له بعض أسباب الحياة إلا أنه أدى إلى دماره وهلاكه وضياعه وشقائه ، والإنسانية لذلك في حاجة ماسة إلى أهل الإسلام وما مَّن الله عليهم من نور النبوة ، وما لديهم من كتاب وسنة إنقاذاً لمستقبل الإنسانية من الضياع ، ولن يتم لهم ذلك إلا بجهد متواصل، وإخلاص لله ، وعمل دءوب على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبذلك يسمو الإنسان ويرقى ويشعر بإنسانيته حين يشعر بأمنه وسعادته ، وهو يرتبط بخالق السموات والأرض ، وتلك هى الحياة الحقة الجديرة بأن تسمى حياة ولذلك قال تعالى : { **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون }**[2]

---

(١)البقرة ٢/٣٠-٣٣

(٢)الأنعام ٧/١٢٢

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنـهمُ   على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدْرُ كل امرئ ما كان يحسنه   والجاهلون لأهـل العلم أعداء
ففز بعلـمٍ تعشْ حيّـاً بـه أبدا   الناس موتى وأهل العلم أحياء

إن السعادة الحقيقية فى الإيمان والعلم الذى يدعوك إلى العمل فـهذا هو مناط إنسانيتك ورقيك وتحضُّرك ولذلك قال أبو الفتح البستى:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته   أتطلب الربح مما فيه خسران ؟
أقبلْ على النفس واستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان



الفصل الثانى

الْمَرأةُ فِى الْقرآنِ الكريم

١- حقوق المرأة بين ما كانت عليه فى الجاهلية، وما صارت إليه فى شريعة القرآن.

٢- مساواتها مع الرجل فى أصل الخلقة والتكليف ، والمسئولية.

٣-الخصوصيات التشـريعية للمـرأة ، تتناسـب مـع وظيفتـها الاجتماعية .

٤- العلاقة بين المرأة والرجل تقـوم علـى المـودة والرحمـة والتعاون لا على الصراع والتنازع .

٥- اختلاف وظيفتها عن وظيفة الرجل، أمر تَقْتَضيه طبيعة الحياة القائمة على التخصص والتكامل .

المرأة فى القرآن الكريم

تمهيد :

المرأة والإنسان والأنثي والإناث ، والنساء والنسوة ، والفتيات ، والبنت والبنات ، والزوج والزوجات ، والأخت والأخوات ، والأم والأميات ، وأمثال ذلك ، وما ورد لهذه الكلمات من صفات : ذُكِرَ الموصوف أم لم يذكر ، كل ذلك يدور حول موضوع واحد هو المرأة فى القرآن الكريم ، وما جاء من خطاب وتكليف للرجال موجه كذلك للنساء إلا ما قام الدليل علىاختصاصه بالرجال ولكن القرآن حين يختار كلمة من هذه الكلمات فإنما ذلك لملحظ فىهذه الكلمة ومدى مناسبتها للموضوع الذى وردت فيه، فهو حين يستعمل كلمة"الإنسان" مثلا معبراً بها عن المرأة يختلف عما إذا اختار كلمة المرأة فى ذات الموضوع ، وإذا عبر عنها بالأنثى ، أو النساء أو البنت أو الأخت أو الأم أو وصفها بصفة من الصفات كالإسلام والإيمان فإنه يقصد ذلك قصداً ، ليلفت الأنظار إلى ما تحمله هذه الكلمات من المعانى المؤكدة للمسألة التى يتحدث فيها ، وهذا سر من أسرار الإعجاز البيانى فى القرآن العظيم ... وجَمْع الآيات التى وردت فيها هذه الكلمات واستخلاص ما فيها من دلالات وإشارات ، يحتاج إلى بحث مستقل ، ونحن بصدد كتابة صفحات معدودات فى جملة موضوعات فى التفسير الموضوعى ، وحسبنا أن نتناول هذا الموضوع من خلال عدة نقاط تُظهرُ عظمة الإسلام فيما شرع ، وكيف أنه الدين الذى صلحت به الدنيا ولن تصلح مرة أخرى إلا به ، وأنه كرَّم المرأة وأعلى قدرها وأنزلها المنزلة اللائقة بها بنتا وأختا وزوجا وأما وهذه النقاط التى سنتناول من خلالها هذا الموضوع كالتالى : ـــ

١- حقوق المرأة بين ما كانت عليه فى الجاهلية ، و مـــا صـــارت إليه فى شريعة القرآن .

٢- مساواتها مع الرجل فى أصل الخلقة ، والتكليف ، والمسئولية .

٣- الخصوصيات التشـــريعية للمـــرأة ، تتناســـب مـــع وظيفتـــها الاجتماعية .

٤- العلاقة بين المرأة والرجل تقوم على المودة والرحمة والتعاون، لا على الصراع والتنازع ،

٥- اختلاف وظيفتها عن ظيفة الرجل ، أمر تقتضيه طبيعة الحيـــاة القائمة على التخصص والتكامل ...

فنقول وبالله التوفيق :

<u>١- حقوق المرأة بين ما كانت عليه فى الجاهلية ، ومـــا صـــارت إليه فى شريعة القرآن :-</u>

ماذا نقصد بالجاهلية ، حتى نستنطق التاريخ ، ونعرف ماذا أعطـت هذه الجاهلية من حقوق للمرأة ، وماذا أخذت المرأة منها ؟ وبالتالى تبـدو لنا شريعة القرآن وضاءة مشرقة بنور الحق ، تحمـــل الســـعادة لنســـاء العالمين فى جملة ما تحمل من السعادة لبنى الإنسان ؟ ... يقول الراغـب الأصفهانى : الجهل عى ثلاثة أضرُبٍ : الأول : وهو خُلُوٌّ النفـــس مـن العلم ، هذا هو الأصل ، والثانى : اعتقاد الشىء بخلاف ما هو عليـــه ، والثالث : فعل الشىء بخلاف ما حقه أن يُفعل ، سواء اعتقد فيه اعتقـــادا

صحيحا أو فاسدًا ... [1]

وصاحب لسان العرب يجمع ذلك فى كلمة واحدة فيقول : الجهل : نقيض العلم والجاهلية : زمن الفترة ولا إسلام[2] .

ويقول ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة : " الجيم والهاء واللام أصلان :

أحدهما : خلاف العلم ، والآخر : الخفة وخلاف الطمأنينة ... "[3]

وسبب هذا الجهل ، وتلك الخفة وذهاب الطمأنينة غياب نور الوحى، إما لعدم وجوده ، كما هو الشأن فى الأوقات التى تكون بين بعثة نبى ونبى ، فما أُرسلَ رسول بعد رسول إلا لحاجة الناس إلى ذلك ، فإن الله لا يحاسب عباده إلا بعد أن يرسل إليهم الرسل وينزل إليهم الكتب كما قال تعالى : **{ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}**[4] .

وكما قال سبحانه : **{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}**[5] .

وقد يكون الوحى موجودا والرسول يبلغ رسالة ربه ، ولكن أصحاب القلوب المريضة ، ومن أعماهم الهوى وحب الدنيا ، لا يلتفتون إلى هذا الخير ، ولا يستجيبون لدعوة هذا الرسول ، فيعيشون فى ظلام

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن : للراغب الأصفهانى بتحقيق : نديم مرعشلى . دار الفكر للطباعة والنشر لبنان ص ١٠٠

(٢) انظر لسان العرب : لابن منظور ـ مرجع سابق م / ١ ص ٧١٤

(٣) معجم مقاييس اللغة : لأبى الحسين : أحمد بن فارس بن زكريا ١ / ٤٨٩ ط الثانية ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ـ بمطبعة مصطفى الحلبى بالقاهرة .

(٤) النساء ٤ / ١٦٥

(٥) الإسراء ١٧ / ١٥

الجهل ، وشقاء النفس ، وضيق الصدور ، وتسيطر عليهم الحيرة ، والتعاسة ويتخبطون فى دياجير الجهالة الحيلاء والضلالة العمياء ، ولذلك بعد أن ذكر الله ما ذكر من التوراة وما فى هذه الكتب المنزلة من هداية ونور وأن الله قد فرض على من نزلت فيهم أنْ يحكموا بما جاء فيها ، وأن الله جعل القرآن مصدقا لما بين يديه من هذه الكتب ومهيمنا عليها فهو الكلمة الأخيرة للعالمين ، وعلى بنى الإنسان أن يتحاكموا إليه، بعد ذلك قال :

{ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسنُ من الله حكمًا لقوم يوقنون}[1] .

وحين أمر أمهات المؤمنين بالقرار فى بيوتهن قال : **{ وقرْن فى بيوتكن ولا تبرجْن تبرج الجاهلية الأولى}**[2] وقد اختلف الناس فى الجاهلية الأولى فقيل :فى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، وقال الحكم بين عيينة : ما بين آدم ونوح ، وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس ، وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى ، وقال الثعلبى : ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، هذه هى الجاهلية الأولى أما الجاهلية الأخرى فهى ما حدث من خروج النساء بعد الإسلام على شرع الله وهديه ... "[3]

وبهذا يتضح لنا أن الجاهلية تطلق على تلك العصور التى تغيرت فيها معالم الرسالات بعد أن طُمِستْ مَعَالم الحق ، وحُرِّفتْ الكتب المنزلة

---

(١) المائدة ٥ / ٥٠

(٢)الاحزاب ٣٣/٣٣

(٣) انظر :الفتوحات الإلهية للعلامة الجمل ٣/٤٣٦

فى تلك الأمم التى عرفنا أن الله أرسل لها رسلا وأنزل فيها كتبا ، أو تلك الأمم التى لم يخبرنا كتاب ربنا أنه أرسل لها رسلا وأنزل فيها كتبا ، وإن كان قد ذكر لنا على وجه الإجمال أنه ما كان ليترك الناس يتخبطون فى دياجير الباطل فقال : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[١]

وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[٢] كما أن الجاهلية تطلق على كل من لم يحكم بشريعة الله التى أنزلها على محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا سنطوف فيما للمرأة من حقوق عند أصحاب الكتب المنزلة من اليهود والنصارى ،فى القديم والحديث إلى يومنا هذا ،وعند غيرهم من الصينيين واليونانيين والرومانيين وقدماء المصريين ، والعرب قبل الإسلام ، أما ما وقع فيه المسلمون من انحراف عن هدى الله وترك لشريعة الله ، وما نراه من سفور وتبرج فاق تبرج الجاهلية الأولى ، وأن هذا أيضا جاهلية، فلا يدخل فى تلك المقارنة بين ما كانت عليه المرأة فى الجاهلية وما صارت إليه فى شريعة القرآن لأن القرآن ما زال محفوظًا وسوف يبقى كذلك محفوظا بحفظ الله القائل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣] والقرآن لذلك حجة عليهم ، يكشف سترهم ، ويفضح جهلهم، ويدعوهم إلى التوبة النصوح... ولو تدبروا فيما عليه نساء العالمين فى ظل الشرائع المحرفة ، والقوانين الجائرة التى أذلت

---

(١) فاطر ٣٥ /٢٤

(٢)غافر ٤٠/٧٨

(٣)الحجر ١٥/٩

المرأة ، وامتهنت كرامتها ، وما جاء به كتاب ربهم من خير وسعادة وعزة وكرامة للمرأة، لو تأملوا هذا لاعتزوا بدينهم ولفاخروا به أهل الأرض ، ولكانوا دعاة إلى هذا الدين الذى هو كلمة الله الأخيرة للناس ، ولعلموا أنه لا أمان لهم ولا سعادة لهم فى غير هذا الدين العظيم ....

فماذا أعطت الجاهلية للمرأة من حقوق ، ثم ماذا أعطاها القرآن الكريم ؟

وهل أعطت الجاهلية للمرأة حقوقا حتى نتحدث عنها ؟ إن التاريخ يحدثنا عما لحق بالمرأة من ظلم ، وما وقع عليها من جور ، وما سلب منها من حق حتى عاشت مهينة ذليلة فى وسط ظلام دامس أحاط بها تحت وطأة أهواء النفوس ، وانحرافات البشر ، وما ساد الناس من فوضى وهمجية قبل بزوغ فجر الإسلام [1] فلما أشرق الإسلام بنوره بدد الظلمات ، وأنار السبل ، فمن سار فى طريقه، ومن استنار بنوره ، تذوق طعم الحياة الآمنة الهادئة ، ومن بقى على عناده ، وشقاقه ، وأصر على كفره وضلاله ، وأخذ يشرِّع لنفسه ، ضل الطريق ، ووقع فى مخالب الوحوش الضارية من هؤلاء الطواغيت الذين عبَّدوه لهم ، وكانت المرأة من جملة هؤلاء الذين ظلمتهم الأنظمة الجائرة ، والقوانين البشرين الظالمة ، كما سنرى ونحن نستعرض أحوال المرأة عبر العصور فى القديم والحديث.

ففى الصين :

لم يكن للمرأة قيمة تذكر ، يقول الفيلسوف الصينى " كونفوشيوس":

---

(١) اقرأ فى ذلك :ماذا خسر العلم بانحطاط المسلمين :لأبى الحسن الندوى، ومنهج القرآن فى تربية المجتمع :تمهيد:فى داسة موجزة للمجتمع العربى والعالمى قبيل نزول القرآن من ص١٣ -٨٢ /للمؤلف.

لا يجوز للمرأة أن تأمر وتنهى ، فإن عملها قاصر على الأشغال المنزلية ولابد من احتجابها فى البيت حتى لا يتعدى خيرها وشرها عتبة الـــدار وهذا ما دعا إحدى سيدات الطبقة العليا فى المجتمع الصينى إلى أن تكتب رسالة تقول فيها : " نشغل نحن النساء آخر مكانة فى الجنس البشـــرى ، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال " .

ومن أغانيهم : " ألا ما أتعس حظ المرأة ، ليس فى العالم كله شـيء أقل قيمة منها ، إن الذكور يقفون متمكنين على الأبواب كأنهم آلهة سقطوا من السماء ، أما البنت فإن أحدا لا يسر لولادتها وإذا كبرت اختبأتْ فـــى حجرتها تخشى أن تنظر في إنسان ، ولا يبكيها أحـــد إذا اختفــتْ مــن منزلها[1]

وفى الهند :

لم تكن المرأة أسعد حظا من نظيرتها فى الصين : إذ قـــد أشـــاع حكماؤهم أن النساء عندما خلقن ، خُلِقْن من أجل حب الفراش والمقــاعد والزينة والشهوات الدنسة ، والغضب والتجـــرد مـــن الشـــرف وســـوء السلوك، فالنساء دنسات كالباطل نفسه ، وقالوا : بأن الزوجة الوفية يجب أن تخدم سيدها أى زوجها كما لو كان إلها ، وألا تأتى شيئا من شـأنه أن يؤلمه حتى وإن خلا من الفضائل ، وكانت المرأة بناء على ذلك تخـاطب زوجها فى ذل وهوان ، قائلة : يا مولاى ، وتمشى خلفه بمسافة ، وقلَّمـــا يوجه هو إليها كلمة واحدة ، وكانت لا تأكل معه ، بل تأكل ممـــا يتبقـــى

---

(١) انظر :المرأة فى العصور القديمة :البهى الخولى -ط الخامسة دار القلم -الكويـــت ١٩٨٤ م ص ٧-٨.

منه... ولم يكن لها حق الحياة بعد وفاة زوجها إذْ يجب أن تموت يـــوم موته ، وإن تحرق معه فى موقد واحد ، واستمرت هذه العــــادة حتـــى القرن السابع عشر إلى أن أُبْطلت ... " [١]

وفى اليونان :

كانت المرأة فى نظرهم رجساً من عمل الشيطان ،وما ذلك إلا لأنها مثار شهوة ولا سلطان لها على أنوثتها ، ولذلك عزلوهـــا فـــى أعمـــاق البيوت ونادى بعض مفكريهم : يجب أن يُحبس إسم المرأة فى البيت كمـا يُحبس جسمها ، وما العلاقة الزوجية عندهم إلا وظيفة لاستيلاد الأطفـــال لاتعلو كثيراً عن وظيفة الخدمة فى البيوت . وكانت من الناحية القانونيـــة لا وزن لها فهى سلعة تباع وتشترى فى الأسواق ومن كان كذلك لاحـــق له فى ميراث ، ولا فى أن يُبرم عقداً من العقود ، وما إن تقدمـــت بـــلاد اليونان فى الناحية المادية حتى خرجت المرأة مـــن خدرهـــا وخـــالطت الرجال فى الأندية والمجتمعات فأثارت الشهوات وأشـــاعت الفاحشـــة ، حتى أصبح الزنا أمراً غير منكر ، وحتى غـــدت دور البغايـــا مركـــزاً للسياسة والأدب الرخيص . .

وفى المجتمع الرومانى :

كانت المرأة كأختها فى المجتمع اليونانى ، فاقدةً لكرامتها وأهليتها، لارأى لها، ولامشورة بل إن فقهاء الرومان جعلوها فى عداد من يحجـــر عليهم لنقص عقلها ، وبالتالى فهى غير صالحة للتملك ، ولا رأى لها فى اختيار زوجها ، ومن حق أبيها أن يزوجها ولو كان هـــذا علـــى غـــير

---

(١) المرجع السابق ص١٦ .

إرادتها ، بل كانت المرأة إذا تزوجت رجلاً أبرمت معهٔ عقداً يسمى " إتفاق السيادة " أى سيادة الزوج عليها ، وبه تنقطع صلتها بأهلها، ولقد بلغ من سيادته عليها أنها كانت تحال إليه إذا ما اتهمت فى ارتكاب جريمة ليحاكمها ويعاقبها بنفسه "

وعند اليهود :

وهم أصحاب الكتاب المنزل على موسى عليه السلام ، وهو التوراة ، نراهم قد انحرفوا عن القصد ، ولعبت الأهواء بما أنزل الله من كتاب ، ونال المرأة من جراء ذلك ظلم عظيم فحرمت من الميراث إذا كان لأبيها ذرية من البنين وعوملت معاملة الخدم ، وكان لأبيها أن يبيعها وهى طفلة أو دون البلوغ وهى عندهم لعنة لأنها أغوت آدم عليه السلام حتى أكل من الشجرة المحرمة ، فخرج بذلك من الجنة ، وتأمل معى ما جاء فى التوراة " المرأة أمرٌ من الموت ، والصالح أمام الله مَنْ ينجو منها " مما يدلك على أن هذا لايمكن أن يكون وحياً من الله.

وفى المسيحية :

طغت الأهواء على شريعة الحب والرحمة التى جاء بها السيد المسيح عليه السلام فتأثر رجال الكنيسة الأوائل بما رأوا من مظاهر الانحلال فى المجتمع الرومانى وخُيل إليهم أن المرأة مسئولة عن ذلك ، فقرروا كما قال القديس (ترتوليان) أن المرأة مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ، ناقضة لنواميس الله .

وفى فرنسا :

عقد مؤتمر عام ٥٨٦ م للبحث فى أمر المرأة : هل هى إنسان ؟ وبعد طول بحث رأوا أنها إنسان مخلوق لخدمة الرجل ، بل إن

رجال الكنيسة حمّلوا المرأة خطيئة آدم عليه السلام ، وظنوا أن حواء هى التى أغوت آدم حتى أكل من الشجرة المحرمة فخرج من الجنة ، وبنات حواء لذلك يتحملن هذه الخطيئة

وفى الحضارة المصرية القديمة : ـــ

" كان للمرأة حظ من الكرامة يجيز لها الجلوس على العرش ، ويبوئها مكان الرعاية فى الأسرة ، ولكن الأمة المصرية كانت من الأمم التى شاعت فيها عقيدة الخطيئة بعد الميلاد ، وشاع فيها مع اعتقاد الخطيئة الأبدية ، أن المرأة هى علة تلك الخطيئة ، وخليفة الشيطان ، وشرك الغواية والرذيلة ، ولا نجاة للروح إلا بالنجاة من أوهاقها وحبائلها " (١) .

وإذا كان هذا هو حال المرأة فى ظل الحضارات القديمة من الصينية والهندية واليونانية والرمانية والفرعونية بل فى ظل اليهودية والمسيحية بعد أن حُرِّفت كتبها وتغيرت معالم الحق فيها ، **فماذا عن المرأة فى العصر الحديث** ، وهى ما زالت ثائرة تعقد المؤتمرات والندوات وتخرج فى مظاهرات ، وتؤلف الجماعات التى تطالب بحقوق المرأة ، وهل أخذت حقها فى مساواة عادلة ، وحققت ذاتها ووجودها ؟

إنها خرجت من بيتها وما كان فيه من قهر إلى قهر من لون آخر : خرجت لتعمل لأن مجتمعها تخلى عنها ، وتركها أبوها وأهلها

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : عباس محمود العقاد ص ١٥٣
وانظر ــ الفلسفة القرآنية ــ للعقاد ص ٨٦ ، ٨٧

وعشيرتها لتواجه مطالب الحياة بنفسها ، وعليها أن تواصل هذا الطريق إلى نهاية عمرها حتى ولو كان لها أبناء من أكابر الأثرياء ، وأصبح جسدها سلعة تعرض فى كل مكان ، تعرض مفاتنها بكل وسيلة ممكنة ، ولا تتورع عن السقوط فى الرذيلة والفاحشة ، وحين تتزوج تفقد اسم أبيها وأسرتها وتنسب إلى زوجها ، وما تمتلكه لا حق لها فى التصرف فيه إلا بموافقته ، ومهما بلغت من العلم والخبرة لا تحصل إلا على نصف ما يحصل عليه الرجل من الراتب فى نفس موقعها ، لهذا كله انفرط عقد الأسرة فى الغرب ، وفى البلاد التى سارت فى ركابه ، ولم يعد هناك وقت للقيام بحقوق الزوج وإنجاب أطفال ورعايتهم ، مما يهدد هذه المجتمعات بأوخم العواقب .

وبعد هذا العرض الموجز لما كان عليه حالى المرأة فى القديم والحديث آن لنا أن نتوقف عند الأمة العربية : فهى الأمة التى نزل فيها القرآن ، واختارها الله من بين الأمم ليخرج منها خير أمة أخرجت للناس، وليجعلها موطنا للرسالة الخاتمة ، ويُحمِّلها أمانة دعوة العالمين إلى الحق ، ولعل الله العليم الحكيم حين اختار هذه الأمة لهذه الغاية السامية ، أراد أن يضرب منها المثل فى قوة وقدرة هذا الدين على إصلاح أى فساد ، وسد أى خلل ، وإقامة كل معوج مهما بلغ فساده وخلله واعوجاجه، وما ذلك إلا لأن هذه الأمة قبيل نزول القرآن قد وصلت إلى مرحلة من الفساد والاعوجاج لم تصلها أمة من قبل ، فإذا كان القرآن قد أصلح ذلك فهو على غيره أقدر[1] .

---

(١) اقرأ فى ذلك : منهج القرآن فى تربية المجتمع : للمؤلف

والمرأة فى الأمة العربية ـ وهى موضوع حديثنا ـ قد نالها من الظلم والاستبداد والامتهان والاعتداء والضياع ، ما أصاب المرأة فى كل الدنيا ، فهذا شأن الجاهلية حيثما كانت ، لا يحكمها غير قانون الهوى والقوة ، وهو قانون جائر لا يرحم : **{ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين }**[١] .

غير أن المرأة العربية قد تحملت من ذلك الكثير ، فجاء الإسلام بنوره فبدد عنها حجب الظلمات ، وأعطاها حقوقها كاملة ، وأنزلها المنزلة السامية ، وكرَّمها وأكرمها فى كل مرحلة من حياتها دون ثورة نسائية أو مؤتمرات ومظاهرات وندوات ، إنما هى منَّةُ الله على خلقه إذْ أرسل لهم نبىَّ الرحمة : محمدا صلى الله عليه وسلم بدين قويم فيه سعادة بنى الإنسان فى كل مكان وزمان ...

والقرآن وهو يعرض ما كانت عليه المرأة فى البيئة العربية يبين ما يجب أن تكون عليه من كرامة ومكانة ومنزلة وما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، ولم تبق هذه التوجيهات الربانية مجرد وصايا يأخذ بها من شاء ويتركها من أراد ، إنما جعلها منهج حياة ، وسلوك أمة ، وشرع لها من الضوابط ما جعلها حقًا واجب النفاذ

فماذا عن المرأة فى المجتمع العربى قبل الإسلام ؟

لقد نظرهذا المجتمع إلى المرأة فوجدها عبئا ثقيلا ، يلزمه أن يتخفف منه ، إذْ كانت الغارات التى يشنها الأقوياء على الضعفاء

(١) القصص ٢٨ / ٥٠

تفرض على أبناء القبيلة من الذكور حماية أعراضــــهم ، والدفـــاع عـــن نسائهم وبناتهم فإذا ما وقعت الهزيمة أُخذتْ نساء القبيلة وبناتها فى جملـة ما يؤخذ ليكنّ سبايا يستمتع بين الأعداء ، ولهذا شاع وأد البنات فى كثـير من قبائل العرب " وكيفية الوأد والطريقة التى يؤدى بها بشـــعة مجافيـــة للرحمة والإنسانية ، فإنهم كانوا إذا بلغت البنت ست سنوات يأمرون أمها بتطييبها وتزيينها ويذهب الواحد منهم بابنته هذه إلى الصحراء ، وهنـــاك يكون قد حفر لها بئرا فيقول لها : انظرى فيها ، ثم يدفعها مـــن خلفـها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض ... "[١]

وصورة أخرى يرويها ابن عباس رضى الله عنهما فيقول : " كانت الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفـــرة فإذا ولدت بنتًا رمت بها فى الحفرة ، وإذا ولدت ولداً حبسته "[٢] .

والوأد المحقق للبنت المشوهة الخلقة ، تشاؤمًا من هذا التشويه ...

والقرآن يصور استقبال الآباء لنبأ ولادة الأنثـى تصويـرا موحيـا فيقـول : **{وَإِذَا بُشِّـرَ أَحَدُهُـمْ بِالْـأُنْثَى ظَـلَّ وَجْهُـهُ مُسْـوَدًّا وَهُـوَ كَظِيمٌ(٥٨)يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُـونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}**[٣] ويقول : **{ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ}**[٤] .

---

(١) منهج القرآن فى تربية المجتمع ـ ص ٢٣ ـ للمؤلف

(٢) العرب وأطوارهم : محمد عبد الجواد الأصمعى ١ / ٢٥٢

(٣) النحل ١٦ / ٥٨ ، ٥٩

(٤) الزخرف ٤٣ / ١٧

وسوف يحاسبهم ربهم على ذلك كما قال تعالى { وإِذَا الْمَوْءودَةُ سُئِلَتْ(٨)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟}[١]

والله يسوق كراهيتهم للبنات مؤنبا لهم على فهم خاطئ اعتقدوه زورا وبهتانا حيث تصوروا لجهلهم أن الملائكة بنات الله ، مع أن الملائكة لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، ولذلك حين كانوا يئدون بناتهم يقولون : ألحِقُوا البنات بالبنات ، أى ألحقوا البنات الموءودات بالملائكة ولذلك قال تعالى : {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى(١٩)وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى(٢٠)أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى(٢١)تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى... }[٢]

أى قسمة جائرة ظالمة ... ويقول : {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ(١٤٩)أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ(١٥٠)أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١)وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢)أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ(١٥٣)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ... }[٣] إلى غير ذلك من الآيات ، فإن نجت البنت من الوأد ، عاشت ذليلة ، كسيرة الجناح لا مال لها ، ولا ميراث ، فإن الميراث كان عندهم لمن يحمل السلاح ويزود عن العشيرة، بل إنها كانت من جملة ما يورث من المتاع ، يقول العقاد : " كل قيمتها بين الذين يستحيونها ولا يقتلونها فى طفولتها أنها حصة من الميراث تنقل من الآباء إلى الأبناء ، وتباع وترهن فى قضاء المنافع وسداد الديون..."[٤]

---

(١) التكوير ٨١/٨،٩

(٢) النجم ٥٣ / ١٩ ـ ٢٢

(٣) الصافات ٣٧ / ١٤٩ ـ ١٥٤

(٤) المرأة فى القرآن : للعقاد ص ٩١

فإذا ما تزوجت عاشت حياة زوجية كلها خوف وقهر واستغلال :

فللرجل أن يتزوج ما شاء من النساء دون التقييد بعدد ، وليس لواحدة من هؤلاء النسوة حق عليه يطالب به ، وله أن يُطَلِّقَ وقبل أن تنتهي العدة يراجعها ، يفعل ذلك إضراراً بها حتى تفتدى نفسها منه ، وأحياناً يطلقها ويشترط عليها ألا تتزوج إلا بمن يريد أو تفتدى نفسها منه بما كان أعطاها كله أو بعضه ، وكثيرا ما كان أولياؤها يمنعونها من العودة إلى زوجها الذى طلقها حميَّةَ الجاهلية مع رغبتها ورغبة زوجها فى إصلاح ما أفسدا واستئناف حياة زوجية هادئة ، وكان هناك نوع آخر من التسلط يتمثل فى المرأة إذا مات عنها زوجها فقد كان من حق أحد أبناء زوجها أن يلقى عليها ثوبا فتصير ملكا له إن شاء تزوجها [وكان يسمى نكاح المقت] وإن شاء زوجها من غيره ، وإلا افتدت نفسها منه لتتزوج أو بقيت حبيسة بيتها إلى آخر حياتها ...

وكان الرجل يحلف ألا يعاشر امرأته معاشرة زوجية فتبقى هكذا محرومة من حقها فى الاستمتاع برجلها حتى يرضى ، وقد لا يرضى فتعيش ما تبقى من عمرها فى هذا الحرمان ، إلى غير ذلك من صور المهانة والإذلال ، وما كانت تَعز المرأة إلا إذا كانت زوجة أو أما لعزيز قوم ، فتعز بعزته لا لأنها من جنس النساء ، لها من الحقوق ما يضمن لها حياة كريمة إذ لم تعرف المرأة العربية ذلك إلا فى ظل الإسلام العظيم ـــ مما سنعرضه فيما تبقى من نقاط هذا البحث ، ومنه يتضح ما صارت إليه المرأة فى شريعة القرآن فنقول سائلين الله من فضله أن يلهمنا الصواب والرشاد والسداد .

٢ ـ مساواتها مع الرجل فى أصل الخلقة والتكليف والمسئولية :

أول مراحل الإصلاح فى هذا الباب هو إزالة ما علق بالأذهان من أن المرأة دون الرجل فى خلقتها ، وأن النساء من عمل الشيطان ، وأن الشيطان مولع بالظهور فى شكل أنثى وأنهن الخطيئة المجسمة ، فجاء القرآن منذ اللحظة الأولى يقرر أن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة ، وخلق حواء من ضلعه الأيسر لتكون شقيقة نفسه وجزءا من كيانه يحن إليها وتحن إليه ، ويسكن إليها وتسكن إليه ، ثم كان أبناء آدم عن طريق التزاوج بين ذكورهم وإناثهم يتدرج الإنسان فى مراحل الخلق من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن تصير المضغة عظاما يكسوه الله لحما فإذا هو خلق آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . وتلك المراحل لا فرق فيها بين الذكر والأنثى إلا ما منحه الله لكل منهما من خصائص تؤهله للقيام بما خُلق من أجله ، وآيات القرآن ترسى هذه الحقيقة فى جلاء ووضوح ، ومنها هذه الآيات المكيّة : يقول الله تعالى: **{ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}**[1] .

ويقول : **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا..}**[2] .

ويقول : **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ... }**[3] .

---

(١) الحجرات ٤٩ / ١٣

(٢) الأعراف ٧ / ١٨٩

(٣) النحل ١٦ / ٧٢

ويقول : {وَمِنْ ءايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[1] .

ويقول : {فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا...}[2] .

ويقسم فى جملة ما يقسم به فى سورة الليل بالذكر والأنثى فيقول : { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(٢)وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٣)إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}[3] .

ويقرر هذا فى سورة النجم فيقول : **{ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٤٥)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى }**[4] . ويسوق هذا فى مقام إثبات قدرته على بعث خلقه وحسابهم فيقول : **{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(٣٦)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(٣٧)ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨)فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٣٩)أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟ }**[5] .

وقد واصل القرآن طريقه فى إزالة ركام الجاهلية فتراه فى المدينة وقد نزلت سورة كاملة تحمل اسم " سورة النساء " تبدأ بهذا النداء الموحى : **{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُون**

---

(١) الروم ٣٠ / ٢١

(٢) الشورى ٤٢ / ١١

(٣) الليل ٩٢ / ١ ـ ٤

(٤) النجم ٥٣ / ٤٥ ، ٤٦

(٥) القيامة ٧٥ / ٣٦ ـ ٤٠

به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا... }[1] . وفى هذه السورة من سور القرآن العظيم يقرر للنساء حقوقا ، ويزيل عنهن ظلم وظلمات القرون ، وتستعيد المرأة مع شريعة العدل والمساواة مكانتها مع الرجل فى مساواة عادلة ، بل إن الله منحها من الخصائص ما لم يمنحه للرجال ففطرها على رقة الإحساس ، ولطف المشاعر ، ودقة العواطف حتى تسع بعاطفتها ولطفها ومشاعرها فلذات كبدها ، لتربى للإنسانية أجيالا من الرحماء ، وقلوبا تعرف معنى الحب ، لا قوالب جافة جامدة لا تعرف الرحمة إلى قلبها سبيلا فهى كالحجارة أو أشد قسوة .

وقد رتب القرآن على هذا الفهم وهذه الحقيقة : حقيقة المساواة فى الخلقة بين الرجل والمرأة والذكر والأنثى ، وجوب الإحساس بالنعمة فى ولادتها كما يُفرح بالذكر ، وأن ما عليه العرب من كراهية البنات ، والشعور بالحزن والتعاسة إذا ما بشر أحدهم بالأنثى إنما هو خطأ ناتج من عدم الإدراك لحقائق الأمور ، ولذلك ترى القرآن يعبر عن عطائه أطفالا لمن شاء من خلقه بأنه هبة ومِنّةٌ ، يستوى فى ذلك الذكور والإناث بل إنه يقدم الإناث فى التذكير بهذه النعمة فيقول : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(٤٩)أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }[2] .

وما دامت مساوية للذكر فهى إنسان له حق الحياة ، ومن اعتدى

---

(١) النساء ٤/ ١

(٢) الشورى ٤٢ / ٤٩ ، ٥٠

على حياتها فوأدها ــ كما رأينا من حال العرب ــ فقد خسر خسرانا مبينا ، قال تعالى : { **وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون**} وقال بعد هذه الآية بآيتين : { **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين** }[1] .

ومن المناسب أن نعلم أن العرب كما كانوا يئدون البنات خشية العار كانوا يقتلون البنين إذا ما نزلت بهم الحاجة وضاق بهم الرزق ، بل كان بعضهم يقتل الأبناء ذكورا أو إناثا خشية فقر متوقع ، وهذا ما جاء القرآن يعالجه وهو يقول في وصاياه الجامعة في سورة الأنعام : {**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم**}[2] وهذا علاج لفقر حاصل ، وفي الإسراء يقول : {**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا...** }[3] . وهذا دواء لفقر متوقع ... ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : {**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** } وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يئدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، ولهذا ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل

---

(١) الأنعام ٧ / ١٣٧ ، ١٤٠

(٢) الأنعام ٧ / ١٥١

(٣) الإسراء ١٧ / ٣١

ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك " ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ... }[1] الآية .

ومن منطلق أنها مساوية للرجل فى أن الله خلقها كما خلقه ، ولها حق الحياة مثله فإنها مكلفة بما كلف به الرجل إلا ما قام الدليل على اختصاصه بواحد منهما وما دامت مكلفة كالرجل فلها من الجزاء مثله ثوابا أو عقابًا ، ومن البداية ترى القرآن يفصلُ فى قضية من القضايا التى ضلت فيها الأفهام وزلت فيها الأقدام وهى مسئولية حواء وبالتالى بناتها عما وقع من الأكل من الشجرة المحرمة حتى كان هذا سببا لخروج آدم وحواء من الجنة ، وقد حمَّلت الفلسفات المُغرضة ، والكتب التى تنسب إلى الأديان زوروا وبهتانا ــ وهى كتب محرفة ــ حواء هذه الخطيئة وما ترتب عليها من تعب ومشقة للجنس البشرى ، والقرآن يبين أن الجنس البشرى لم يخلق ليسكن الجنة من البداية إنما خلق لغاية سامية هى أن يعمر هذه الأرض بمنهج الله ثم يعود الطائعون ليسكنوا هذه الجنة فى النهاية ، وبدأت القصة من أب البشر آدم عليه السلام ــ كما أوضحنا من قبل فى خلق آدم ــ وذكرنا خلافته وخلافة أبنائه فى الأرض لا فى السماء كما قال تعالى : **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ**

---

(1) تفسير القرآن العظيم : لابن كثير ١/ ١٨٨ ، وانظر كتاب : الوصايا العشر ــ دراسة ــ مقارنة لآيات من أواخر سورة الأنعام ــ للمؤلف ــ الوصية الثالثة من ص ٦٨ ــ ٧٧

نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[1] وترى فى القصة فى سورة البقرة قوله تعالى : {وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(٣٥)فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ...}[2] .

وفى الأعراف نقرأ قول الله تعالى : {وَيَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(١٩)فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ(٢٠)وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ(٢١)فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ(٢٢)قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢٣)قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٢٤)قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}[3].

فكل من آدم وحواء أمر بالسكن فى الجنة وعدم القرب من الشجرة وكلاهما سيكون ظالما لنفسه لو عصى ربه ، وكلاهما وسوس له

---

(١) البقرة ٢ / ٣٠

(٢) البقرة ٢ / ٣٥ ، ٣٦

(٣) الأعراف ٨ / ١٩ ــ ٢٥

الشيطان وقال له ما قال ، وكلاهما وقع فى المعصية وأكل من الشجرة المحرمة ، وكلاهما توجه إليه اللوم والعتاب ، وكلاهما تاب من ذنبه واستغفر ربه ، وقد قبل الله توبتهما وكانت تجربة لهما ، ليعرفا من هو عدوهما ، وليبدآ رحلة الحياة على هذه الأرض وقد عرفا وعرف أبناؤهما من بعدهما أن الشيطان لهما عدو ، وسيبقى عدوا لأبنائهما : **{يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(٥)إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السعير... }**[1] ولذلك توجه النداء بعد ما ذكر الله ما ذكر فى سورة الأعراف إلى بنى آدم ــ ذكورهم وإناثهم ــ أربع مرات كان منها قوله تعالى : **{يابني ءادم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون}**[2] .

وفى ذلك أبلغ الدلالة على براءة أمنا حواء مما ظنه الجاهلون ، وأنها مخاطبة منذ اللحظة الأولى بالاستجابة لنداء الله ، وأن آدم عليه السلام قد هبط إلى الأرض ومعه حواء بعد أن أكرمهما الله بالتوبة ليباشرا مهمة الخلافة فى الأرض وفق منهج محدد خلاصته ما قال الله تعالى : **{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(١٢٣)وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى...}**[3] .

---

(١) فاطر ٣٥ / ٥ ، ٦

(٢) الأعراف ٨ / ٢٧

(٣) طه ٢٠ / ١٢٣ ، ١٢٤

ولذلك حين يقول المخرفون بأن حواء هى التى أغوت آدم حتى أكل من الشجرة المحرمة فكان من أمره وأمرها ما كان ، فنقول لهم : كذبتم وصدق الله ربنا ، ومثل هذا يقال لمن ادعوا زورا وبهتانا أن عيسى عليه السلام صلب وضحى بنفسه تكفيرا عن خطيئة آدم نقول لهم: كذبتم وضللتم فآدم ومعه حواء هبطا إلى الأرض وهما نقيان طاهران تائبان ، لا يحتاجان من أبنائهما إلى من يقدم نفسه قربانا لله تكفيرا عن خطيئة غفرها الله لهما ...

ونعود إلى قصة آدم وحواء لنرى فيها مظهرا للمساواة فى التكليف والمسئوليات والثواب والعقاب ، وأن كل واحد منهما أمر ونهى ، ووسوس له الشيطان وأخرجه مما كان فيه من ستر الطاعة ، ولذة القرب، ونعيم الله في جنته ، وأن كل واحد منهما تاب وأناب واستغفر ربه فغفر له ، وقد تواصلت رسالات الأنبياء فى تقرير هذه الحقيقة . وجاء القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فإبراهيم خليل الرحمن وأبو الأنبياء ، ومن ابتُلى فصبر حتى جعله الله إماما فى الخير ، ورائدا فى الدعوة إلى الحق ، هذا النبى أبوه آزر صانع الأصنام، ونوح عليه السلام الذى يضرب به المثل فى طول العمر فى الدعوة إلى ربه كما قال تعالى : **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}**[1] هذا النبى العظيم لا يصدق برسالته أقرب الناس إليه : ابنه وزوجه ، وهكذا نرى امرأة لوط وقد كفرت بما جاء به ، وعلى الجانب الآخر : نرى امرأة

---

(١) العنكبوت ٢٩ / ١٤

فرعون الذى ادعى الألوهية تؤمن بالحق ، ونرى من جمعت بين الخبر من أطرافه : مريم عليها السلام ، وما كان من قنوتها وطاعتها لربها ، وكل واحدة من هؤلاء أخذت جزاءها ، والآيات فى ذلك معلومة مشهورة نكتفى منها بما جاء فى سورة التحريم من قول الله تعالى : **{ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين(١٠)وضرب الله مثلا للذين ءامنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين(١١)ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين}**(١) .

وما كان من أمر ما ذكر الله فى التاريخ الإنسانى مما رأينا أمثلة له فى امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون ومريم ابنة عمران هو ما نراه فيمن توجهت إليهم دعوة الإسلام ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وكان من الفريقين رجال ونساء ، بل كان أول من أسلم من النساء أم المؤمنين خديجة عليها رضوان الله ورأينا من بين المهاجرين إلى الحبشة نساء تحملن تبعات الإيمان بالله ورسوله وفارقن الأهل والديار ، وكان منهم ابنة أبى سفيان بن حرب أم المؤمنين رملة ، التى هاجرت وزوجها إلى الحبشة فارتد هناك وتركها تعانى الغربة والألم ، وثبتت على دينها فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى فعقد عليها وأصبحت

---

(١)التحريم ٦٦ / ١٠ ـ ١٢

من أمهات المؤمنين تكريما لها وحفظا لها من الضيـــاع ، ولعـل هــذا يشتـــل سخيمة عداء أبيها للإسلام فيعود للإيمان بعد الكفر ...

وبعض النسوة كُنَّ يتسللن من ديار الكفر والظلم في مكـــة ليلحقـــن بالمسلمين في المدينة ، فماذا قال الله لرسوله والمؤمنين ؟ قال : ﴿يَاأَيُّـــهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُـــهَاجِرَاتٍ فَـــامْتَحِنُوهُنَّ اللَّـــهُ أَعْلَـــمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُـــنَّ حِـلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَـــا أَنْفَقْتُـــمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ...﴾[1] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبـــايع النســـاء كمـــا يبـــايع الرجال، وبيعته للنساء ليست في جملة بيعته للرجال إنما كانت بيعته لـــهن خاصة ، وفي ذلك جاء قوله : ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَـــايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـــادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ...﴾ [2] .

بل إن من أعظم الأدلة على استقلال المرأة بالمسئولية وما يـــترتب عليها من ثواب وعقاب ما نقرأه من آيات سورة الأحزاب في شأن أمهات المؤمنين ، فمع ما لهن من عظم المكانة ، ومع ما لرسول الله صلـــى الله عليه وسلم من منزلة كريمة عند ربه ، ومع أن الله قال في أهـــل بيـــت

---

(١)الممتحنة ٦٠ / ١٠

(٢)الممتحنة ٦٠ / ١٢

رسوله ومنين أميات المؤمنين : {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا ...} مع ذلك كله لابد من العمل الصالح فبه وحده النجاة ، بل إن ما وعد الله من ثواب ، وما أوعد من عقاب لهن فيه ما لغيرهن ، لأنهن موضع القدوة لأمة الإسلام ، ومبلغات رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يطلع عليه إلا هُنَّ ، وفى ذلك نقرأ فى جملة ما نقرأ : {يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(٣٠)وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما(٣١)يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا}[1] إلى آخر هذه الآيات النيرات المباركات .

ومن هذا المنطلق جاءت الآيات الكثيرة فى مساواة المرأة للرجل فى هذا الجانب واستقلالها بالمسئولية ، وتحملها لنتائج ما تختار وما تقدم عليه ، فنقرأ فى ذلك قول الله تعالى: {فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض}[2] . وقوله فى سورة التوبة فى جانب الكفر والنفاق : {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون(٦٧)وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم

---

(١)الأحزاب ٣٣ / ٣٠ ـ ٣٢

(٢) آل عمران ٣ / ١٩٥

عذاب مقيم} كما نقرأ فـي جـانب الإيمـان والجـهاد قولـه تعـالى : {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعـون اللـه ورسـوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيـم(٧١)وعـد اللـه المؤمنيـن والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبـة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم}[١] .

وفى سورة النحل : {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمـن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}[٢] .

ومثل هذا المعنى نقرؤه فى سورة غافر علـى لسـان مؤمـن آل فرعون إذ يقول لقومه : {ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الـآخرة هي دار القرار(٣٩)من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيـها بغـير حساب}[٣] .

ومع أن النساء مخاطبات بما خوطب به الرجال إلا ما جاء الدليـل على أنه خطاب لواحد منهما فقد قالت النساء ومنهن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما لنا لا نذكـر فـى القرآن كما يذكر الرجال ، فنزل قوله تعالى فى سورة الأحزاب : {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفـر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيمـا(٥)ويعـذب المنـافقين

---

(١) التوبة ٩ / ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢

(٢) النحل ١٦ / ٩٧

(٣) غافر ٤٠ / ٣٩ ، ٤٠

والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا...}[1] فالرجال والنساء إذن فى تكاليف العقيدة وفضائل الأخلاق ومطالب الروح والعقل والوجدان سواء ، كما أنهما فى الأجر سواء .

٣-الخصوصيات التشريعية للمرأة تتناسب مع وظيفتها الاجتماعية: ــ

خلق الله حواء من ضلع آدم ، **{خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها...}**[2] فهى سكنه وراحته ، يأوى إليها من هجير الحياة فيجد الواحة الوارفة والسعادة الفياضة ، إنها زوجه وهو زوجها ، أم أبنائه ورفيقة دربه ، وهو رجلها ، يحميها من عوادى الزمان ، ويظللها برجولته وشهامته وقدرته على الكدح والعمل ، يكسب لها قوتها ، ويوفر لها ولأبنائها أسباب الراحة والأمان ، وهذا من دلائل القدرة الإلهية التى ترشد إلى حكمته فيما خلق ، وبعض ما يفهم من قول الله تعالى ــ الذى ذكرناه آنفا ــ : **{ومن ءاياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}**[3] .

ولهذه الغاية التى خلق الله المرأة من أجلها أعدها جسمانيا وعقليا ونفسيا ووجدانيا ، وشرع لها من الأحكام ما يتناسب مع هذه الغاية النبيلة رحمة منه وكرما وفضلا ...

ففى جانب العبادات : فى الصلاة : إذا ما كانت حائضا أو نفساء لا

---

(١) الفتح ٤٨ / ٥ ، ٦

(٢) الزمر ٣٩ / ٦

(٣) الروم ٣٠ / ٢١

تصلى ولا تقضى هذه الصلوات ، وليس عليها الخروج لصلاة الجمعة في المسجد لا في الصلوات المفروضة ، ولا في صلاة الجمعة بل إن صلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد ، وقد وردت بذلك الأحاديث ومنها ، ما رواه أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تمنعوا نساءكم المساجد " فإن رغبت في شهود الخير وحضور الجماعة مع الإمام في المسجد فلا حرج عليها ولها ثواب الجماعة ،وإن صلت في بيتها ، كان أجرها أعظم ، روى الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها " وروى أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ... "

ولكن عليها إذا ما خرجت إلى المسجد أن تكون ملتزمة بآداب الإسلام بألا تكون متطيبة ولا متزينة ، ولا بثياب شهيرة تلفت إليها الأنظار ، وألا يؤدى هذا إلى الاختلاط بالرجال ، وأن يكون الطريق إلى المسجد آمنا ليس فيه ما يجر إلى مفسدة ، إلى غير ذلك مما فيه حفظ كرامة المرأة وشرفها .

ولكم نحن بحاجة فى هذا الزمان الذى خرجت فيه المرأة إلى كل مجالات الحياة ، أن نفتح لها أبواب المساجد ، وأن ندعوها إلى حضور الجماعة وأن نحببها في بيوت الله ، ما دمنا قد حققنا الشروط التى اشترطها أئمة الإسلام وما دام هذا لا يتعارض مع واجباتها فى بيتها ولنجعل من المساجد مراكز دعوة وتعليم وتثقيف لنسائنا وبناتنا ، وقد تخرجت من جامعاتنا الإسلامية فى أقسامها المتخصصة في الدراسات الإسلامية من حصلن على أعلى الشهادات الجامعية وأصبحن عضوات

للتدريس ، وعميدات للكليات ، وهناك عدد كبير من الخريجات في التخصصات الإسلامية الكثيرة ، وهناك شيوخنا الأفاضل وأساتذتنا الأجلاء ، وهؤلاء جميعا يستطيعون أن يجعلوا مساجدنا منابع خير ، ترتوى من حياضها بناتنا وفتياتنا ونساء المسلمين بعد طول غياب عن الثقافة الإسلامية ، مما يَسَّر لأعدائنا طريق الوصول إلى عقول نسائنا فتغيرت المعالم ، وتبدلت المفاهيم ، وغُـزينا فى عُقَرْ دارنا ، ولا سبيل لنا إلا بخطة إعلامية تربوية سياسية تتعاون فيها كل الجهات المسئولة ، لنعود بنسائنا إلى طريق هذا الدين فنحظى بالعزة والسيادة فى عالم يموج بالشهوات ، وتقوده شياطين الإنس والجن إلى تعاسته وشقائه .

هذا فى الصلاة ، أما فى الصيام ، فقد أوجب عليها الإفطار إذا اعتراها الحيض أو كانت نفساء ، ونظرا لأن الصيام لا يكون إلا فى شهر رمضان بخلاف الصلاة التى أوجبها الله خمس مرات فى اليوم والليلة ، لم تطالب المرأة بقضاء الصلاة ، ولكن فرض عليها قضاء الصوم ، تقضيه فى أى وقت شاءت بعد رمضان ، ولا يشترط فى القضاء التتابع كما أفطرت أياما متتابعة إنما تقضى ما فاتها متتابعا أو غير متتابع ، وهذا من رحمة الله بها .

وفى الحج حمى أنوثتها وكرامتها فجعل من شرط الاستطاعة الموجبة لأداء هذه الفريضة أن يكون معها زوجها أو أحد محارمها ممن تحرم عليه حرمة مؤبدة كأبيها و أخيها ، بل إنها لا تسافر مسافة تعد سفرا إلا و معها زوجها أو ذو محرم منها ، كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :"لا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم ،و لا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم، فقال رجل : يا رسول الله إنى أريد أن أخرج فى

جيش كذا و كذا و امرأتى تريد الحج ، فقال صلى الله عليه و سلم :"اخرج معها "(١) و أخرج الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه و سلم"نهى أن تسافر المرأة مسيرة يومين إلاومعها زوجها أو ذو محرم "(٢).و قد رأى بعض الأئمة أن المرأة إذا لم تجد زوجها ولا محرما فلابد لها _ على الأقل ـــ من رفقة صالحة من النساء أو من النساء والرجال ، و ليس هذا وصاية عليها ، ولا حظرا على حركتها ونشاطها إنما هو تكريم وحفظ لها و قيام بحقها ، و تخفيف لأعباء السفر ومشقاته ، و ما يمكن أن تتعرض له ممن فى قلوبهم مرض.

كما اشترط عليها للخروج للحج ألا تكون فى عدة وفاة أو طلاق فإن المعتدة لا تخرج من بيتها إلى أن تنقضى عدتها و كم فى ذلك من حكم تشريعية ، فاذا خرجت للحج أو العمرة ، ووصلت إلى الميقات وكانت حائضا أو نفساء لم يمنعها ذلك من إحرامها وأداء مناسكها ، وتفعل ما يفعل الرجال من الغسل فى هذا الموطن ،كما تفعل ذلك كالرجال أيضا فى المواطن التى يشرع فيها الاغتسال و منها : الإحرام ودخول مكة والوقوف بعرفة ، و الوقوف بالمزدلفة ، و رمى الجمرات الثلاث..و قد جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:"النفساء والحائض تغتسل و تحرم و تقضى المناسك كلها ،غير أن لا تطوف بالبيت"(٣) وهى حين تؤدى مناسكها لا تصلى شيئا من الصلوات لا المفروضة ولا المسنونة ، فقد خفف الله عنها ذلك وروى الإمام مسلم

---

(١) أخرجه البخارى

(٢) أخرجه مسلم

(٣) رواه أبو داود و الترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبى بكـــر ، فأرســـلت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم : كيف أصنع ؟ قـــال: اغتســـلى و استثفرى بثوب واحرمى "[1] فإذا اغتسلت المرأة جاز لها قبل أن تلبـــس ملابس إحرامها أن تختضب بالحناء و أن تضع شيئا من الطيب ثم ترتدى ملابسها التى تلبسها عادة، ولا يشترط فيها أن تكون على لون مخصوص أو هيئة مخصوصة ، إنما هي الملابس التى تتحقق فيها شـــروط لبـــاس المرأة المسلمة ، غير أنها لا تستر وجهها وكفيها ، إلا إذا كان ذلك فـــى حضور الرجال ، و قد قال صلى الله عليه وســـلم : "لا تنتقـــب المـــرأة المحرمة ولا تلبس القفازين "[2].

و روى أحمد و أبو داود وابن ماجه عن السيدة عائشة رضـــى الله عنها قالت :" كان الركبان يمرون بنا ونحن محرمـــات مـــع رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها علـــى وجهها فإذا جاوزونا كشفناه".

فإذا ما لبست ملابس إحرامها لبت بما تريد مـــن ألـــوان النســـك : إفرادا أو قرانا أو تمتعا ، ثم تلبى طوال فترة إحرامها إلى ان تبـــدأ فـــى رمى جمرة العقبة الكبرى ، و هى فى ذلك كالرجال لكن خصوصيتها فى ذلك أنها لا ترفع صوتها بالتلبية ، فإذا ما دخلت المسجد الحرام طـــافت بالبيت إن لم تكن حائضا أو نفساء ، وهو طواف القدوم للمفرد والقارن و طواف العمـــرة للمتمتـــع، وليـــس لـــها أن ترمـــل[3] كالرجـــال ولا

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى و أحمد و النسائى و الترمذى.

(٣) الرمل: إسراع المشى مع مقاربة الخطو من غير وثب، و هو سنة للرجـــال فـــى طـــواف القدوم و طواف العمرة فى الأشواط الثلاثة الأولى .

تضطبع[1] و شأن المرأة فى كل طواف أن تحاول بقدر الإمكان البعد عن الرجال بأن تختار الليل لطوافها و أن تكون فى حاشية المطـــاف ، إلا إذا كان المطـاف خاليا من الرجال فيستحب لها القرب من الكعبـــة ، كمـــا لا يسن لها لمس الحجر الأسود أوتقبيله إلا عند خلو المطاف ليلا أو نهارا ، فإذا ما انتهت من طوافها وصَـــلَّت خلف مقام إبراهيم ركعتى الطـــــواف خرجت للسعى بين الصفا و المروة ولا يسن لها أن ترقى أعلى الصفـــــا والمروة كما يفعل الرجال إلا إذا كان المكان خاليا ،كما لا يسن لـــــها أن ترمل بين الميلين كما يرمل الرجال ، فإن كانت متمتعة أو فــــى عمــرة قَصَّرتْ من شعرها وأحلَّتْ من إحرامها ، و إن كانت غير ذلـــك بقيــت على إحرامها حتى تكمل مناسك حجها إفرادا أو قرانا ، و فى اليوم الثامن تخرج للمبيت بمنى ثم تتجه فى صباح يوم عرفة إلى عرفة للوقوف بـــها إلى مغيب الشمس ثم تفيض إلى المزدلفة ، وهى مناسك يتســـاوى فيـــها الرجال و النساء ، فإذا ما كانت فى المزدلفة و صلّتْ المغرب والعشــــاء جمع تأخير ، وقفت تدعو الله بما تحب ، ثم خرجت قبل الفجر إلى منى ، فإذا وصلتها رمت جمرة العقبة ، و السنة للرجال البقاء فى المزدلفة إلــى طلوع شمس يوم النحر ، ولكن رسول الله صلى الله عليه و سلم رخـــص للنساء و الضعفة من الصبيان و غيرهم و مـــن يقــوم علـــى خدمتـــين بالخروج من المزدلفة قبل طلوع الفجر ، رحمةً بهم وتخفيفا عنهم ، وقــد وردت بذلك الأحاديث فى أنه صلى الله عليه و سلم أذن فـــى ذلــك لأم المؤمنين سودة رضى الله عنها كما روى مسلم عن أم حبيبة ــ رضـــــى

---

(١)الاضطباع :أن يجعل رداءه وسطه تحت عاتقه الأيمن ، و طرفه على عاتقه الأيسر و هذا لا يمكن أن يكون للنساء لأنهن لابسات لثيابهن الساترة لكل البدن عدا الوجه والكفين.

الله عنها ــ أن النبي صلى الله عليه و سلم بعث بها من جمع بليل[1](وجَمْعٌ هي المزدلفة) و في صحيح مسلم أن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ : كان يُقدِّم ضعفة أهله فيقفون عند المشعر الحرام بالمزدلفة بالليل فيذكرون الله ما بدا لهم ، ثم يدفعون قبل أن يقف الإمام و قبل أن يدفع ، فمنهم من يقدم "منى" لصلاة الفجر و منهم من يقدم بعد ذلك ، فإذا قدموا رمَوْا الجمرة ، و كان ابن عمر يقول : "أرْخَصَ في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم "[2]

و من رحمة الله بالنساء ما شرعه لهن من النيابة في رمى الجمرات في يوم النحر و ما بعده من أيام التشريق إلا إذا لم يكن هناك زحام فعليهن الرمى بأنفسهن ، روى ابن ماجه عن أبى الزبير عن جابر قال: حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم و معنا النساء و الصبيان ، فلبينا عن النساء و الصبيان و رمينا عنهم "[3]

فإذا ما تم الرمى رجعت المرأة إلى المنحر فاختارت هديا طيبا تتوافر فيه الصفات الشرعية فنحرت هديها إن كانت قارنة أو متمتعة ، وهى لا تنحر الهدى بنفسها إنما تنيب عنها من يذبح لها، وبعد الذبح تقصر شعرها بأخذ أطراف منه ، و بهذا يحصل التحلل الأول ثم تستعد للذهاب لمكة لأداء طواف الإفاضة وهو الذى يسمى بطواف الصدر وطواف الركن ، وعليها أن تبادر لأداء هذا الطواف خشية نزول دم الحيض لأنها إن حاضت فليس لها حق دخول المسجد و الطواف بالبيت

---

(١)صحيح مسلم بشرح النووى ٤٠/٩

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٤١/٩

(٣) رواه ابن ماجه

و عليها أن تنتظر إلى أن تطهر ثم تؤدى هذا الركن ، لكن ماذا تصنع إن كانت مرتبطة بسفر و رفقة، و ليس فى الإمكان البقاء فى مكة لهذا الأمر؟ هل كان يجب أن تستعد لهذا بأخذ بعض الأدوية التى تؤخر نزول الحيض حتى يتم لها طواف الإفاضة كما رأى ذلك ابن عمر رضى الله عنهما ووصف للنساء ماء الأراك ؟ أو تأخذ برأى المالكية و الحنابلة و أحد قولى الإمام الشافعى فى أن عليها انتهاز فرصة إنقطاع الدم خلال أيام حيضها لتغتسل و تستثفر (أى تضع قطنا وما شابهه في موضع نزول الدم وتشده بشيء) ثم تؤدى طوافها ؟ أو كما قال الأحناف : لها أن تطوف ولكن عليها بدنة ، أى أنها إذا طافت و ذبحت ناقة أو بقرة فقد تم حجها ، و قال بعض أصحاب مالك بأنها إذا كانت قد طافت طواف القدوم فإنه يجزىء عن طواف الإفاضة فكلا الطوافين واجب ، و كل منهما يغنى عن الآخر ، و لعل راى الإمام ابن تيمية يحل هذا الإشكال فقد رأى أن الطواف لابد فيه من الطهر ولا يغنى طواف عن طواف ولكن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : إذا أَمَرتُكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، و هذا معنى قوله تعالى :" فاتقوا الله ما استطعتم " ولقد أباح الله للمستحاضة و لمن به سلس بول الصلاة و الطواف ، و لم يؤاخذهما بعذرهما فكذلك هنا يباح للحائض المضطرة التى لاتستطيع ترك رفقتها أن تطوف ولا شىء عليها ، بعد أن تغتسل و تأخذ الاحتياطات الواجبة التى تأخذها المستحاضة حين تؤدى صلاتها و يَرُد رحمه الله على من أذن لها بالطواف وأوجب عليها دماً ، بأن الواجب إذا تركه المكلف من غير تفريط فلا دم عليه ، بخلاف إذا ما تركه ناسيا أو جاهلا ، ويقول : وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أسقط عن الحائض طواف الوداع، و من قال إن الطهارة فرض فى

الطواف وشرط فيه فليس كونها شرطا فيه أعظم من كونها شرطا في الصلاة ، و معلوم أن شروط الصلاة تسقط بالعجز ، فسقوط شروط الطواف بالعجز أولى وأحرى(1) فإذا ما طافت طواف الإفاضة ، أدت سعيها إن لم تكن قد أدته مع طواف القدوم ، و هذا لها إن كانت مفردة أو قارنة أما إذا كانت متمتعة فإن طوافها الأول حين دخلت مكة وسعيها إنما كان طواف العمرة و سعيها ، و عليها الآن أن تؤدى سعى الحج كما سبق فى طريقة الأداء الخاصة بالنساء ، ثم تعود لمنى للمبيت بها يومين أو ثلاثة ترمى فى كل يوم الجمرات الثلاث ، بنفسها إن أمكنها ذلك ، وإلا أنابت عنها من يرمى ، وهذا ما استحسنه العلماء فى مثل هذه السنوات التى كثر فيها عدد الحجاج و أصبح الزحام فى رمى الجمرات بل و فى غيرها شديدا ، فإذا ما انتهت أيام التشريق عادت إلى مكة لطواف الوداع ، إلا إذا كانت حائضا فلا تؤدى هذا الطواف لما روى عن ابن عباس قال :أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خفف عن المرأة الحائض"(2) و ما رواه مسلم عن عائشة فى أن أم المؤمنين حفصة بعد الإفاضة وطواف الركن حاضت فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " فلتنفر "(3)

---

(1)انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام :ابن تيمية جـ ٢٦ ص (٢٢٥ ـ٢٤١)
(2)رواه الشيخان
(3) رواه مسلم

فلتسافر معنا دون طواف.(١)

وفي الجهاد: ويقصد به جهاد الأعداء بقتالهم ، و هذا قد يكون فرض عين أو فرض كفاية ، فيكون فرض عين إذا التقى الجمعان فيجب على من حضر من المسلمين ، ذكراً أو أنثى أن يثبت فى الميدان و ألا يفر من الزحف ، كما يكون فرض عين إذا دعا الإمام قوما للخروج إلى القتال أو عَيَّن شخصا لذلك ، يتساوى فى هذا الذكر و الأنثى ، كما يجب على الجميع أن يقاتلوا إذا هجم الكفار على بلد من بلاد المسلمين فيجب على أهل هذه البلد ومن قرب منهم ، إن لم تحصل بهم كفاية و هكذا من يليهم إلى أن يتم دفع الكافرين أو إخراجهم من البلدة التى إحتلوها ، وعلى ولى أمر المسلمين أن يعلن الجهاد العام لتحقيق هذه الغاية، بل إن على المسلمين أن يبادروا بجهاد عدوهم وإن تكاسل الإمام عن ذلك ، كذلك يتعين على السلمين رجالا ونساء قتال عدوهم إذا كان هؤلاء الأعداء قد أسروا مسلما أو مسلمة ، كما يجب القتال على الجندى المسلم الذى انخرط فى سلك الجندية و يتقاضى راتبًا عن ذلك ، و المرأة فى هذا الجهاد المفروض كالرجل سواء بسواء ، ولكن خصوصيتها فى هذا الجهاد المفروض أنها لا تشارك الرجال فى الجهاد إلا للضرورة إذا

---

(١) يقرأ فى هذا :

١ــ فقه النساء فى الحج /محمد عطية خميس ــ دار القلم بيروت

٢ــ أحكام عبادات المرأة فى الشريعة الإسلامية / د. سعاد صالح ــ دار الضياء ــ القاهرة ط الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

٣ــ المفصل فى أحكام المرأة د/عبد الكريم زيدان جـ١ مؤسسة الرسالة بيروت ط الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣ م

احتاجوا إليها و لها مع جند الله موقع متميز لا يستغنى عنه المقـاتلون ألا وهو إعداد ما يلزم للمقاتلين من غذاء و كساء ، و مـداواة للجرحـى ، ونقلهم إلى أماكن علاجهم ، و ما إلى ذلك من أمور تقوم بها المرأة خير قيام ، أما الجهاد الذى هو من فروض الكفاية فهو ما شـرعه الله لنشـر دينه وإعلاء كلمته من تبليغ دعوة الحق إلى النـاس ، فيعـرض عليـهم الإسلام فإن قبلوه فهم أخوة للمسلمين يبقون فى ديارهم و أرضهم وملكهم لا سلطان لأحد عليهم ، و إن لم يقبلوا دين الله عـرض عليـهم الأمـر الثاني: وهو الدخول مع المسلمين فى عقد ذمة يدفعون بمقتضاه الجزيـة للمسلمين و يخضعون لأحكام الإسلام ، والجزية مبلغ زهيد مـن المـال يدفعه الرجال القادرون على حمل السلاح فحسب فإن لم يرتضوا هـذا أو ذاك ، قاتلهم المسلمون حتى يفتحوا بلادهم عنوة و يُخضعوهم لحكم الله ، و هذا الجهاد يجند له الجنود و تعد له القوة، ولا يجب على كل مسلم إنما يَبقى الجهاد والاستشهاد أملا يراود القلوب وتهفو إليه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من مات ولم يغز ، و لم يحدث به نفسه فقد مـات على شعبة النفاق"(١) و هكذا كان رسول الله صلى الله عليـه وسـلم و أصحابه ومن بعدهم إلى أن أوصلوا كلمة الله إلى أهل الأرض وحققـوا قول الله تعالى : **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْـهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}**(٢) و قد خفـف الله هـذا الفـرض

---

(١) رواه مسلم في الإمارة باب ذم من مات ولم يغزُ ولم يحدثْ نفسه بالغزو، وأبو داود : فـي الجهاد / باب كراهية ترك الغزو ، والنسائي : في الجهاد / باب التشديد في ترك الجـهاد ، وأخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٣٤٧.

(٢) التوبة ٩/ ٣٣

الكفائى عن النساء ، و لم يطلب منهن ذلك ، و جعل قيامهن على تربيـة أبنائهن و حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل ما يقوم به الرجال من حضـور الجمع والجماعات ومواطن القتال فى سبيل الله ، فهى شريكة الرجل فـى الأجر ، لأنه لن يتمكن من أداء مهمته إلا برفيقة دربه وشـريكة كفاحـه ومن تقوم على بيته و أبنائه فى غيابه . و قد روى البخاري بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يا رسول الله نرى الجـهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال: لكن أفضل الجهاد حج مـبرور" ([1]) فقـد فهمت رضى الله عنها أن ما خاطب الله به المؤمنين من الـترغيب فـى الجهاد هو خطاب للمؤمنات أيضا ، و هى نقلة ربانية فى تاريخ المـرأة حيث ساواها بالرجل فى التكاليف الشرعية ، فسألت عن الجهاد فى سبيل الله و دور المرأة فيه، فبين لها الرسول الكريم أن الحج المبرور لون مـن الجهاد يناسب طبيعتها و ضعفها ، و كأنه صلى الله عليه و سلم يشير إلى أن الله لم يكلفها بهذا فلها دور مشكور مأجور مبرور فى الجـهاد خلـف المجاهدين بحفظ أموالهم و أبنائهم و بيوتهم ومع ذلـك إذا مـا توفـرت الظروف و سنحت الفرصة و أرادت أن تشارك فى هذا الجهاد فإن ديـن الله لا يحرمها من هذا الخير بشرط:

١ــأن تخرج بإذن زوجها .

٢- وأن يكون خروجها للحاجة إليها و فيه مصلحة راجحة

٣ــ وألا يكون فى خروجها مفسدة لها أو لغيرها بأن تكون شـابة تخشى الفتنة على نفسها أو على غيرها.

٤- وأن يأذن إمام المسلمين لها في الخروج وفق مـا يـراه مـن

([1]) رواه البخاري وغيره وابن خزيمة في صحيحه.

مصلحة فى خروجها ، فإن تحققت هذه الشروط خرجت فأدت ما يناط بها من أعمال ، كما سبق ذكره فى الجهاد العينى ، و تاريخ الجهاد الإسلامى يحمل علامة مضيئة كريمة للمرأة المسلمة فقد أخرج البخارى عن الربيع بنت معوذ قالت : كنا نغزو مع النبى صلى الله عليه و سلم نسقى ونداوى الجرحى ، و نرد القتلى إلى المدينة " ([1]) • وفى مسلم عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء ويداوين الجرحى" ([2]) . بل إن صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها فى غزوة الخندق رأت يهوديا يطوف بالحصن الذى هى فيه فضربته ضربة أردته قتيلا فكانت أول امرأة قتلت رجلا من المشركين "([3])

وعن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعى قالت : شهدنا القادسية – وكانت موقعة القادسية فى زمن عمر بن الخطاب مع سعد بن أبى وقاص – مع أزواجنا ، فلمل أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوى ، ثم أتينا القتلى ، فمن كان من السلمين سقيناه و رفعناه، و من كان من المشركين أجهزنا عليه " ([4]) و أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن أم عطية الأنصارية قالت : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم فأصنع لهم الطعام و أداوى الجرحى ، و أقوم على المرضى "([5])

([1]) رواه البخاري

(٢)رواه مسلم

(٣) زاد المعاد لابن القيم ٤/ ١٢٤، ١٢٥

(٤) البداية والنهاية : لابن كثير ٤٦/٧

(٥) رواه مسلم جـ ١٢ ص ١٩٤، وابن ماجه : في سننه جـ ٢ ص ٩٥٢

و أخرج الإمام البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه و سلم قال : و لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر الصديق ، و أم سليم ، و إنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم " (1) بل إن المرأة المسلمة خاضت غمار الحرب و الجهاد حين تَطلَّبَ الموقف ذلك ، فهذه أم عمارة: نسيبةُ بنت كعب المازنية رضى الله عنها تقول : خرجت أول النهار (أى يوم أحد) أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو فى أصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقمت أباشر القتال و أذب عنه بالسيف و أرمى عنه بالقوس حتى خلصت الجراح إلى ، و يوضح المقريزى هذا الموقف لأم عمارة فيقول كانت أم عمارة: نسيبة بنت كعب قد شهدت معركة "أحد" هى وزوجها و ابناها ، و معها شن لتسقى الجرحى ، فقاتلت و أبلت بلاء حسنا يومئذ وهى حاجزة ثوبها على وسطها حتى جُرِحَتْ اثنى عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، و ذلك أنها كانت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم هى و ابناها عبد الله و خبيب ،وزوجها غزية بن عمرو يذبون عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما انهزم المسلمون جعلت تباشر القتال و تذب عن رسول الله صلى الله عليه و سلم بالسيف و ترمى بالقوس ، و لما أقبل ابن قمئة – لعنه الله – يريد النبى صلى الله عليه و سلم ، كانت فيمن اعترض له ، فضربها على

---

(1) البخاري بشرح القسطلاني جـ ٦ ص ٧٨ ـ وخدم سوقهما : أي خلاخيل سوقهما

عاتقها ضربة صار لها فيما بعد ذلك غور أجوف ، و ضربته هي ضربات فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم " لمقام نسيبة بنت كعب اليوم ، خير من مقام فلان وفلان " و قال صلى الله عليه و سلم : ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دوني " قالت أم عمارة : يا رسول الله : ادع الله أن نرافقك في الجنة ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة ، قالت ما أبالي ما أصابني من الدنيا " [1] و على هذا الدرب الذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم من إعطاء المرأة مكانتها بما لها من خصوصية فيما شرع الله من حمل مسئولية هذا الدين و الدفاع عنه - سار أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و من بعدهم ، فهذه أم عمارة التي ذكرنا جهادها مع رسول الله، نراها بعد رسول الله تشارك المسلمين في حرب الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، يقول ابن حجر : " شَهِدَتْ أم عمارة قتال مسيلمة الكذاب ، و جرحت يومئذ اثنتى عشرة جراحة ، و قطعت يدها ، و قتل ابنها خبيب " [2] ويذكر ابن حجر ما كان من أمر أم حكيم بنت الحارث التي خرجت مع زوجها عكرمة بن أبي جهل إلى غزو الروم فاستشهد زوجها ، وتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص ، و قاتل الروم حتى قتل ، فلما رأت ذلك شدت عليها ثيابها فقتلت يومئذ بعمود فسطاط سبعة من الروم.[3]

إنها المرأة المسلمة و ما اختصها الله به من كرامة في ظل دين

---

(١) إمتاع الأسماع : للمقريزي ص ١٤٨ ، ١٤٩

(٢)الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلاني جـ ٤ ص ٤٧٩

(٣)المرجع السابق جـ ٤ ص ٤٤٤ ، والاستيعاب: لابن عبد البر جـ ٤ ص ٤٤٤

الإسلام فيهي المؤمنة الصابرة المجاهدة المسئولة عن دينها وعقيدتها ، تتحمل الأذى في سبيله حتى الموت كما كان من أمر أم عمار السيدة الشهيدة : سمية التي صمدت في وجه الكفر و جبروته حتى فاضت روحها تحت وطأة التعذيب في مكة ، و هي المهاجرة بدينها إلى الحبشة و المدينة ، و هي الأنصارية الكريمة التي تجود بما ملكت يداها هي وزوجها للمهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وهي المشيرة بما يجمع أمر المسلمين كما كان من أمر أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها فيما أبدت لرسول الله صلى الله عليه و سلم من مشورة صادقة في الحديبية ، و هي سند المجاهدين تدفعهم وتحثهم وتحمي ظهورهم و تقوم على شئونهم برعاية أموالهم و أبنائهم ، وهي معهم في الميدان تأسو جراحهم ، وتداوي مرضاهم ، و تعد لهم طعامهم و شرابهم و كساءهم ، و تحمل السلاح في جرأة وإقدام إن احتاج المجاهدون لوقوفها معهم ، لقد حملها الإسلام منذ اللحظة الأولى مسئولياتها كاملة ، فهذا رسول الله صلى الله عليه و سلم حين قال الله له: " **وأنذر عشيرتك الأقربين** "([1]) قام فقال : " يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ، و يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، و يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا " ([2]) . فالمرأة ليست مجرد تابع وظل للرجل،

([1]) الشعراء ٢٦/ ٢١٤

([2]) رواه البخاري

ولا هى التى لا قيمة لها و لا كرامة ، توأد وتُعْضَل وتظلم و تحرم من كل حقوقها ، إنما هى المساواة فى الحقوق والواجبات ، يسوى رسول الله صلى الله عليه و سلم فى ندائه سادة قريش و بنى عبد مناف و عمه العباس بصفية وفاطمة و يذكر انه لا يغنى عنهم من الله شيئا.

ومن منطلق هذه المساواة ما جعله الإسلام للمرأة من حق الإجارة والأمان و إبداء الرأى فى الأسرى و استحقاقها لنصيبها فى الأجر فى الآخرة و نصيبها من الغنيمة ، فهذه أم هانىء بنت أبى طالب و أخت على كرم الله وجهه تجير رجلا من المشركين هو ابن هبيرة وكان أخوها على رضى الله عنه قد توعده بالقتل لما ارتكبه من جرائم فى حق الإسلام فجاءت أم هانىء تشكو لرسول الله صلى الله عليه و سلم فقال لها: قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء " ([1]) و نرى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقسم مروطا بين نساء من نساء المدينة فبقى مرط جيد فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين اعط هذا ابنة رسول الله صلى الله عليه و سلم التى عندك (يريد أم كلثوم بنت على حفيدة رسول الله صلى الله عليه و سلم) فقال عمر أم سليط أحق ، و أم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله صلى الله عليه و سلم ، قال عمر فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد ، أى تخيطها .([2])

بقى لنا – ونحن نتحدث عن الخصوصيات التشريعية للمرأة فى

([1]) البخاري ٤/ ١٢٢

([2]) البخاري ٤/ ٤٠

الجهاد – أن نعرف موقف الإسلام منها إذا كانت مشركة ، و قد جاءت توجيهاته صريحة أن النساء كالأطفال و الشيوخ لا يقتلون ، أخرج أبو داود في سننه وابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال :" انطلقوا باسم الله ، و بالله ، و على ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا صغيرا ولا امرأة . "([1]) لكنها لو اشتركت في القتال و حملت السلاح أو حرضت قومها ، و دلتهم على عورات المسلمين ،فهي محاربة لله و لرسوله تقتل ولا كرامة لها ، كما أن الضرورة قد تبيح قتلها ، كما إذا هجم المسلمون على الأعداء ليلا ولم يميز جند الله بين الرجال والنساء ، أو إذا تترس الكفار بنسائهم و أطفالهم و لم يتمكن المسلمون من الوصول إليهم إلا بقتل النساء والأطفال ، و لكن يبقى هذا في حدود الضرورة القصوى ، وعلى المسلمين أن يتجنبوا هذا بقدر المستطاع..

هذه أضواء كاشفة فيما اختص الله به النساء من أحكام في بعض العبادات وفي الجهاد ، ذكرناها لا على سبيل الاستقصاء إنما هي مجرد أمثلة توضح ما هنالك من فروق بين الرجال و النساء فيما شرع الله ، وأن هذه الفروق من مقتضيات الحكمة الإلهية لتنتظم حياة بني الإنسان، وتتكامل بطرفيها بين الذكور والإناث ، وسوف نتابع هذه الفروق في جوانب أخرى في شريعتنا الغراء ، فماذا نرى؟؟

في الميراث: و قد أكرمها الله و رفع عنها ظلم الجاهلية التي جعلت التركة لمن يذود عن الحمى ، و يدافع عن العشيرة ، و لم يكن للمرأة حق في الميراث فجاء العدل الإلهي يقول : –

([1]) سنن أبي داود ٧/ ٢٧٤، وسنن ابن ماجه ٢/ ٩٤٨

{للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا}[1] لكن حكمة الله جرت أن يكون الميراث وفق ما كلف الله به كلا من الذكر والأنثى من أعباء مالية، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين في الأعم الأغلب و لذلك نجد التساوي بينهما إذا كانا أبوين ولابنهما ولد ذكر قال تعالى : **{ ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد }** [2] و نرى ذلك في الأخوة لأم إذا ورثوا أخا لهم مات كلالة دون أن يكون له والد ولا ولد : قال تعالى **{وإ ن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث}**[3]يقتسمون هذا الثلث بالسوية بين ذكورهم و إناثهم ، إنه شرع الله الذي لا يظلم أحدا على حساب أحد ، نراه يعطي في الميراث للذكر ضعف ما للأنثى لأنه كلفه بالإنفاق والرعاية ، فهو المكلف بكل نفقات الزواج من شبكة وهدايا و مهر ووليمة ،و بعد الزواج عليه الإنفاق على زوجته و أبنائه و أسرته ، و عليه أن يساهم بالنصيب الأوفى فيما يفرض **على الأسرة من واجبات الضيافة و الإعانات الاجتماعية و ما إلى ذلك مما لا تتحمل منه المرأة شيئا إلا ما تجود به عن طيب خاطر ، و أمر** آخر لابد من ملاحظته في شريعة الله في الميراث و هو أن الإسلام ينظر

---

(1) النساء ٤/٧

(2) النساء ٤/ ١١

(3) النساء ٤/ ١٢

إلى المرأة باعتبارها زوجاً لها زوج يُكَوِّنان أسرة، باجتماعهما يتم التكافل الإنسانى ، و إذا كان للزوج وهو الرجل سهمان و لزوجه سهم فهذه ثلاثة أسهم و أخت هذا الرجل تأخذ سهما و زوجها سهمان فهذه ثلاثة أسهم فى أسرة أخرى و هكذا ، تتعادل كفتا الميزان ، و الأسر يخلف بعضها بعضا،" **سنة الله فى خلقه و لن تجد لسنة الله تبديلا** " و بهذا تتضح بعض جوانب الحكمة الإلهية فيما شرع الله و تبطل دعاوى المغرضين الحاقدين على دين الإسلام.

و في الشهادة:قرر القرآن أن شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين وذلك فى قوله تعالى فى آية الدَّيْن من سورة البقرة :{ **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى**} .. [1] وهذا فى الأموال أما فى الحدود و القصاص فلا تقبل شهادتها ، وهذا وذاك ليس بعيب فى المرأة ،ولا أن لها مكانة دون الرجل فإن شهادتها فى الأمور الخاصة بالنساء كالولادة و الرضاع والبكارة و الثيوبة ونحو ذلك، هى التى يؤخذ بها ولا يؤخذ فيها بشهادة الرجل ، و لكن الله أوجب مشاركة امرأتين فى الشهادة لأن العادة جرت بأن ما لا يشغل به الإنسان نفسه كثيرا ما ينسى تفصيلاته و ملابساته فيحتاج إلى من يذكره ، و المرأة لا تكترث كثيرا بالمعاملات المالية فهى مشغولة ببيتها وأبنائها و واجباتها فإذا ما طولبت بالشهادة فى ذلك قد يخفى عليها و يغيب عنها بعض ما يجب أن يُذْكَر فتحتاج إلى من يُذَكِّرُها، و هذا هو الذى بينه ربنا

---

[1] البقرة ١/ ١٨٢

بقوله:"..أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى " يقول الإمام محمد عبده : " إن الله جعل شهادة المرأتين شهادة واحدة فإذا تركت إحداهما شيئا من الشهادة كأن نسيته أو ضل عنها تذكرها الأخرى و تتم شهادتها، و للقاضي – بل عليه – أن يسأل إحداهما بحضور الأخرى ، ويعتد بجزء الشهادة من إحداهما ، وبباقيها من الأخرى ، أما الرجال فلا يجوز له أن يعاملهم بذلك ، بل عليه أن يفرق بينهم ، فإن قصر أحد الشاهدين أو نسي فليس للآخر أن يذكره ، وإذا ترك شيئا تكون شهادته باطلة ، يعني إذا ترك شيئا مما يبين الحق ، فكانت شهادته وحده غير كافية لبيانه، فإنها لا يعتد بها ، و لا بشهادة الآخر وحدها وإن بينت"([1]).

كما أن الله الذي خلق النساء و أودع في فطرتهن الرقة و العاطفة المشبوبة علم أنهن إذا رأين ما يستوجب إقامة الحد من القتل و غيره ، يجزعن جزعا شديدا قد يؤدي إلى عدم ضبط ما رأين، فكيف تكلف المرأة بالشهادة في مثل ذلك ، و لهذا لا تقبل شهادتها في تلك الأمور المتعلقة بالحدود و الدماء و القصاص، و كما يقول صاحب المنار :"وكأن حكمة ذلك إبعاد النساء عن مواقف الفواحش و الجرائم و العقاب والتعذيب ، رغبة في أن يكن دائما غافلات عن القبائح لا يفكرن فيها ، ولا يخضن مع أربابها و أن تحفظ لهن رقة أفئدتهن فلا يكن سببا للعقاب"([2]).

دية المرأة:

من التشريعات التي اختص الله بها المرأة أن جعل ديتها في القتل الذي لا يستوجب القصاص بأن كان خطأ أو ما يشابهه على النصف من

([1]) تفسير المنار ج٣ ص ١٢٣

([2]) تفسير المنار ج٤ ص ٨٣٥

دية الرجل فهل يعني ذلك انها أقل شأنا من الرجل ؟؟ إن الإسلام الذي كرمها و أكرمها وأعطاها حقها كاملا في مساواة عادلة ، يرى أن الدية ليست عوضا عن حياة المقتول ، فإن الحياة الإنسانية في ميزان الإسلام لا توزن بكنوز الأرض . يقول الرسول صلى الله عليه و سلم : " لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم " ([1]) و يقف عليه السلام أمام الكعبة فيقول :" ما أطيبك وأطيب ريحك ، وما أعظمك وأعظم حرمتك . والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك : ماله ودمه :([2]) و لكن الإسلام ينظر على ما ترتب على موت كل من الرجل والمرأة من خسارة مادية لأهله و عشيرته ، فيعوض أولياء كل منهما بقدر هذه الخسارة أو بما يعينهم على مشقات الحياة بعد فقد من فقدوه ، ومن الواضح أن موت الرجل فيه خسارة ليست كالخسارة فى موت المرأة فهو العائل لأسرته ، و المكلف بالإنفاق عليها ، و إن لم يكن قد وصل إلى مرحلة من العمر يتحمل فيها هذا العبء ، لكنه سيتحمله عاجلا أوآجلا ، أما المرأة فالخسارة في فقدها خسارة معنوية ، مما يحدث لأهلها من حزن وألم ، وتبدو عظمة الإسلام وهو يسوى بينها وبين الرجل فى القصاص فلو قتل رجل امرأة عمدا قتل بها كما قال بذلك جمهور الأئمة ، فقد قال تعالى":

{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} ..الآية " ([3]) و هى والرجل سواء فى الإنسانية وفى حق الحياة ..

الحجاب:

و هذا مما اختص الله به النساء حفظا لهن من نظرات من فى

([1]) رواه الطبراني

([2]) رواه النسائي

([3])المائدة ـ/ ٤٥

قلوبهم مرض ، و قطعًا لأطماع الطامعين و المفسدين ، و حمايـــة لأمـــة الإسـلام أن تشيع فيها الفاحشة ، و يضطرم فيها نار الشـــهوات ، و مـــا شاعت الفاحشة فى قوم إلا عاجلهم الله بعقوبته ، و أحل بهم نقمته ، وكان مصيرهم إلى الزوال ..

و آيات الحجاب جاءت أولا فى سورة الأحزاب فى قوله تعالى : **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنيـن يدنيـن عليـهن مـن جلابيبهن،ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين و كان الله غفورا رحيما** ".

و قد جاء فى هذه السورة المباركة من التوجيهات الربانيـة لنســاء النبي صلى الله عليه و سلم قوله تعالى:" **يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَـأَحَدٍ مِـنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْـنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا(٣٢)وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْـأُولَى..** "

كما جاء التوجيه لأصحاب رسول الله صلى الله عليـــه و سـلم بكيفيـة التعامل مع أميات المؤمنين فى قوله سبحانه :" **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُـوا لَـا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَـانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَـأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَـانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُـمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا..** " (1)

و سورة "الأحزاب" التى وردت فيها هذه الآيات ، سميت بذلـك لأن

---

(1) الأحزاب ٣٣/ ٥٩،٣٢،٣٣،٥٣

اليهود لما غاظهم ما حدث لهم من إخراج من المدينة المنورة استنفروا كل أعداء الإسلام من المشركين وأذنابهم وجاءوا للمسلمين في المدينة يريدون استئصالهم لولا أن ألهم الله المسلمين بحفر خندق حول المدينة فحجزهم فلم يصلوا إلى غرضهم إلى أن أرسل الله عليهم ريحا وجنودا من عنده ، فقلعت خيامهم و كفأت قدورهم و ألقى الله الرعب في قلوبهم فولوا الأدبار هاربين ، و لذلك سميت هذه الغزوة بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق و بعدها قال الرسول لأصحابه : "لن تغزوكم قريش بعد اليوم وإنما أنتم الذين تغزونهم " ([1]) و قد حدث هذا في شوال من العام الخامس الهجرى ، و لهذا التاريخ ولهذا القول لرسول الله صلى الله عليه و سلم أهمية خاصة في الحديث عن الحجاب ، لأننا سنعرف مسيرة التشريع في هذا الأمر و نحن نحدد تاريخ نزول آيات سورة النور ، وفيها الحديث عن حد الزنا و القذف واللعان وحديث مستفيض عن حادثة الإفك ،ثم كان البيان عن الاستئذان و آدابه ، و الأمر بغض البصر وحفظ الفروج ، و أمر النساء بالحجاب في قوله تعالى : ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها .. الآية فإن المشركين ومن على شاكلتهم من المنافقين وأهل الكتاب حين عجزوا وهزموا في ساحات المعارك انتقلوا إلى ساحات معارك أخرى في محاولات يائسة لزلزلة المجتمع المسلم و نشر ألوان من الفساد في ربوعه ، فنزلت الآيات تكمل بناء هذا المجتمع . وتحصنه بالأخلاق الفاضلة ، و المبادىء القويمة ، بعد أن أرسست في وجدانه وشعوره وقلبه أسس التوحيد لرب العالمين في ربوبيته و ألوهيته

([1]) رواه البخاري في الجهاد / باب غزوة الأحزاب

و أسمائه و صفاته ، و سلكت به مسالك العبودية للإلــــه الخــالق فيمــا شرعته من عبادات فى الصلاة و الصيام و الزكاة .. و كان من جملة ما نزل تلك الآيات التى رأيناها فى سورة الأحزاب ثم كانت الآيــــات فـــى سورة النور التى نزلت بعد غزوة بنى المصطلق و قد كانت فى شـــعبان سنة ست للهجرة و فيها قوله تعالى :{ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُــونَ(٣٠)وَقُــلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَــهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّــا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِــهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَــائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْــلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَــمَ مَــا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّــهِ جَمِيعًــا أَيُّــهَا الْمُؤْمِنُــونَ لَعَلَّكُــمْ تُفْلِحُونَ}"(1)

و الآيات فى الأحزاب والنور واضحـــة الدلالـــة علـــى معناهـــا، والمعركة التى تشتعل بين الحين و الآخر حول الحجاب يجب أن تتوقــف إذ لا يستفيد منها إلا أعداء الإسلام ، فإن الجميع متفق على أن بدن الحرة كله عورة ما عدا الوجه والكفين ، و هنا كان الخلاف : هــل للمــرأة أن تبدو أمام من لم يَرِدْ ذكرُهم فى آية النور ، سافرة الوجه كاشفة عن يديها أو هذا مما يجب ستره ؟

---

(1) النور ٢٤/ ٣٠: ٣١

إن تتبع مسيرة التشريع الإسلامى قد تفيدنا فى الإجابة على هذا السؤال فإن هذا التشريع قد ينتقل بالمكلفين من السهل إلى الصعب أو العكس و قد ينتقل إلى المساوى كما رأينا فى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة تعويدا للمؤمنين على الطاعة المطلقة لله رب العالمين، و آية الأحزاب سابقة على آية النور ، و فيها أمر من الله لنساء النبى وبناته ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين، وقد فهم بعض الصحابة أن المراد بذلك تغطية المرأة لوجهها, قال بذلك ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه عنه على بن أبى طلحة قال: أمر الله نساء النبى إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب و يبدين عينا واحدة "

و قال بعضهم إن المراد بإدناء الجلابيب أن تشد على الجباه و يبقى الوجه مكشوفا ، و هذا رأى آخر لابن عباس قال : كانت الحرة تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن ، وإدناء الجلباب أن تقنع و تشد على جبينها ، و بمثل هذا قال قتادة ومجاهد..

أما آية النور ففيها : " و لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها..

فما المراد من " إلا ما ظهر منها " ؟!

هل المراد : إلا ما ظهر منها بحكم الضرورة من هبوب ريح ونحوه ، وعلى المرأة أن تستر جميع بدنها بما فى ذلك الوجه والكفان ، ولا يجوز إظهار ذلك إلا فى حالات الضرورة كما فى حالات العلاج والتحقق من الشخصية فى الشهادة وغيرها .. يقول ابن عطية : يظهر لى بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تبدى ، و أن تجتهد فى الإخفاء

لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابد منه أو إصلاح شأن و نحو ذلك " (1) و بهذا قال ابن مسعود والحسن و ابن سيرين ، و أبو الجوزاء وإبراهيم النخعى ، و الآية بذلك متطابقة مع ما جاء فى سورة الأحزاب على الرأى الأول .

أو أن المقصود بما ظهر منها : الوجه والكفان ، فالجميع متفق على أنهما ليسا من العورة ،و ما دام الأمر كذلك فلا حرج من كشفهما و هذا رأى ابن عباس و سعيد بن جبير و عطاء و الأوزاعى ، و قد اختاره ابن جرير والقرطبي و الجمهور و أبو حنيفة و مالك والشافعى و هو أحد الرأيين للإمام أحمد.

يقول القرطبى "إنه لما كان الغالب من الوجه و الكفين ظهورهما عادة و عبادة و ذلك فى الصلاة و الحج يصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما " (2)ولكل فريق حجته ، حتى اتسع الخلاف بين المسلمين فرأينا فريقا من الكتاب و المؤلفين من العلماء و الباحثين بل و غير المتخصصين في الدراسات القرآنية يحرم النقاب، و فريقا آخر من أكابر العلماء وصفوتهم يحرم السفور ويوجب على المرأة ألا تكشف عن وجهها و يديها و يغمزون الفريق الأول غمزا يصل إلى الدين و الإيمان والفهم..

و لو أنصف الفريقان لعلموا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و من بعدهم من أئمة التابعين و فقهاء الإسلام رأى كل منهم رأيا

---

(1) القرطبي ١٢/ ٢٢٩

(2) القرطبي ١٢/ ٢٢٩

فما أفسد اختلاف الرأى للود قضية ، إنما كانوا إخوة أحبابا ، و لو عدنا لحكمة التشريع الإسلامى و جمعنا بين آيتى الأحزاب و النور لرأينا أن الثانية جاءت مخصصة للأولى ، و لذلك رأينا قولا لابن عباس رضى الله عنهما فى آية الأحزاب رواه عنه على ابن أبى طلحة ، و هو أصح الطرق عن ابن عباس و فيه يرى تغطية الوجه ، و رأينا قوله الثانى فى آية النور ، و فيه يرى جواز كشفه .. و رأيه الثانى رواه جمهور الأئمة، و ما كانوا غافلين عما جاء فى آية الأحزاب و يبقى الأمر بعد ذلك أن يكون ما جاء فى آية الأحزاب عزيمة و ما جاء فى آية النور رخصة ، فمن أخذت بالعزيمة فغطت وجهها فهو أمر حسن و من كشفت وجهها فلا حرج ، و بهذا نستطيع أن نجمع بين الأحاديث و الأخبار والآثار التى تبين أن بعض المؤمنات كن منقبات و منهن أمهات المؤمنين عليهن رضوان الله،و بعضهن كن غير منقبات،.

أما من قال بجواز كشف الوجه و اليدين للمرأة العجوز و لغير الجميلة كما قال بذلك بعض علماء المالكية يقول ابن خويزمنداد " إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك ، و إن كانت عجوزا أو قبيحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها " فهذا قول لا دليل عليه سوى النظر فى مقاصد الشريعة ، و من مقاصدها فى الأمر بالحجاب منع الفتنة ، و سد الطريق إلى إثارة الشهوات ، و قصر ذلك على ما أحل الله ، و لكن ما هى مقاييس الجمال فى المرأة الجميلة ؟

وهى تختلف من واحد لآخر ، و من من النساء تسلم بأنها عجوز لم يعد للرجال فيها مأرب ؟ و قد قيل:" لكل ساقطة فى الحى لاقطة " فليبق المقياس فى الجواز و المنع هو ما جاء فى كتاب ربنا و سنة نبينا صلى الله عليه و سلم ، و ما جاء فيهما يشير إلى ما اتبعه هذا الدين فى تربية أتباعه ، يأمرهم بالأمر فيه شدة ، ثم يخفف عنهم والعكس صحيح ـ كما قلنا ـ و يبقى الأمر الأول لأصحاب الهمم و العزائم القوية و لا حرج على من اختار الثانى ، فهذا هو ما فهمه المسلمون الأوائل فى مسألة الحجاب و لعل هذا الذى رأيته بعد طول تأمل لا يروق لهؤلاء ولا لأولئك ، و مع أنى فى تفسير آيات سورة النور فى كتاب لنا عنوانه : فى ضوء القرآن عام ١٣٩٤هـ ـ١٩٧٤ م مِلْتُ إلى الرأى الأول و هو وجوب ستر المرأة لوجهها و كفيها ، و لكنى حين جمعت الآيات و ما جاء من أحاديث و أخبار وآراء للأئمة و نحن نتدارس لونا من التفسير هو التفسير الموضوعى تبين لى دقة فهم الصحابة و التابعين و الأئمة لآيات الحجاب ، و أن الأمر ليس فيه خلاف إنما هى العزيمة فى الأمر الأول الذى جاءت به آية سورة الأحزاب ، و الرخصة فى الأمر الثانى الذى جاءت به آية سورة النور ، فإن كنتُ قد وفقت فى هذا فمن الله ، وإن كانت الأخرى فمن نفسى و من الشيطان ، و ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب .

٤ ـ العلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على المودة والرحمة والتعاون، لاعلى الصراع والتنازع :

الإنسان الذى خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، هو آدم ـ عليه السلام – وما كان لآدم ـ عليه السلام ـ أن يكون له نسل وذرية لو بقى وحيدا ؛ ولذلك خلق الله له حواء من نفسه ، من ضلعه الأيسر ؛ وأصبحت كلمة الإنسان تطلق على الرجل كما تطلق على المرأة ، فكلاهما يقال له إنسان ، وإذا ماتم الارتباط بينهما بعقد الزواج فكلاهما يقال له : زوج ، مع أن كل واحد منهما فرد ،وهذا دليل على ما بين الرجل والمرأة ـ منذ الخلق الأول ـ من تلاحم وترابط ، والآيات التى تحدثت عن ذلك كثيرة منها قوله تعالى :{ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً**}[١] وقوله : { **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ**}[٢] وقوله : { **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**}[٣] وقوله : {**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا.. **}[٤] وقوله : { **فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ**}[٥] ، (أى يكثركم

---

(١) النساء ٤ / ١

(٢) الأنعام ٦ /٩٨

(٣) الأعراف ١٨٩/٧

(٤) الزمر ٦/٣٩

(٥) الشورى ١١/٤٢.

بسبب هذا التزاوج) والآيات تساق فى موضع بيان آيات الله فى خلقه ، وأن هذا دليل وحدانيته وألوهيته وربوبيته ، ولذلك لاغنى للرجل عن المرأة ولا غنى للمرأة عن الرجل ، مهما امتلك كل منهما من وسائل الرفاهية والراحة. لإحساس كل منهما بأنه جزء من الآخر إحساسا فطريا يستولى على كيانه ، ويدفعه للإلتحام بجزئه الذى يفتقده ، فإذا ماتم ذلك أحس بالسكينة وراحة البال ، وانشراح الصدر ؛ وهذا مايشير إليه قوله تعالى : { **وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**} [(١)].بل إن القرآن يعبر عن هذا الإمتزاج وذلك التلاحم بقوله : { **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** }[(٢)] فتأمل التعبير بكلمة " لباس " وما فيها من تنكير يفيد التفخيم والتعظيم ؛ فكما أن اللباس يستر صاحبه عن أعين الناس ، ويبدو به فى مظهر حسن ، ويحميه من أن يصاب بمكروه ، فكذلك كل من الزوجين ، كلاهما ستر للآخر وحماية له من الوقوع فى الفواحش ، وموضع سره ، وعنوان فضله ، والزواج ليس مجرد " صفقة تجاريةبين شريكين فى المعيشة ،ولا ضرورة لإسكات صيحات الجسد ، والاستراحة من غوايته الشيطانية ، ولا تسويغ الشهوة بمسوغ الشريعة ، ولا هى علاقة عدمها خير من وجودها إذا تأتى للرجل أو للمرأة أن يستغنيا عنها " [(٣)]إنما هى علاقة من لون فريد ، علاقة مؤانسة ومودة ورحمة تقوم على كلمة الله ، وتبنى على أساس من شرع

---

(١) الروم ٣٠ /٢١

(٢) البقرة ٢ /١٨٧

(٣) الفلسفة القرآنية : للعقاد صـ ٦٨ ، ٦٩

الله ، وفيها إثراء للحياة بنسل صالح ، وترابط بين الناس ، نراه فيما يترتب على هذا الزواج من أصول وفروع ، في علاقات إنسانية متينة مشدودة بحبل الله ، فهناك الآباء والأبناء والأجداد والجدات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ... إلى غير ذلك مما يربط الناس بعضهم ببعض، ويجعل لكل منهم حقوقاعند الآخرين ، فتقوم بذلك الوحدة الإنسانية الجامعة ، والتي كان أساسها أن الله خلق الذكر والأنثى ، وربط بينهما بهذا الرباط المقدس ؛ رباط الزوجية فقال : **{ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }**(1)

بل إن القرآن جعل العقد الذي يتم بين الرجل والمرأة بالإيجاب والقبول وحضور الولي والشاهدين ميثاقا غليظا،لايجوز نقضه إلا في حالات الضرورة حين تعجز كل الوسائل عن إصلاح ما بين الزوجين ، يقول تعالى في معرض الحديث عن المهر وأنه لايجوز استرداده ما دام البغض من جانب الزوج : **{ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وءاتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا(٢٠)وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا}**(2) **يقول الزمخشري : (والميثاق الغليظ : حق الصحبة** والمضاجعة ، كأنه قيل : وأخذ الله به منكم ميثاقا غليظا ، أي بإفضاء بعضكم إلى بعض، ووصفه بالغلظ ، لقوته وعظمه ، فقد قالوا : صحبة

---

(١) الحجرات ٤٩ / ١٣

(٢) النساء ٤ / ٢٠، ٢١

عشرين يوما قرابة ، فكيف بما يجرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج ؟؟ }[1]

إنها علاقة المودة والرحمة والتعاون التي تجمع بين الرجل والمرأة، لا علاقة الصراع والتنازع ، تلك التي عرفتها أمم لاتدين بالإسلام، فقامت فيها النساء يطالبن بالمساواة وبحقهن في حياة كريمة ، فما وصلت المرأة في هذه الأمم إلا أن أصبحت سلعة رخيصة تعرض مفاتنها في كل مكان ، وتتزاحم الرجال بحثا عن توفير متطلبات حياتها ، لكن دين الرحمة جعلها موضع عنايته ورعايته ووفر لها الحماية والنصرة والكرامة ، وجعلها على قدم المساواة مع الرجال فيما يمكن أن تكون فيه المساواة ، وجعل صلتها بزوجها قائمة على التراحم وإعطاء كل ذى حق حقه ، ولم يجعل هذه الصلة صلة أيام تنقضى وأعوام تمر ، تنتهى بانتهاء أيام الدنيا لكل منهما ، إنما جعلها صلة الأبد والخلود، فهناك بعد الانتقال من هذه الدار ، جنة ونار ، والمؤمنون يتمتعون في الجنة ومعهم زوجاتهم من الحور العين ، أما الكافرون فإنهم يعذبون في النار ومعهم زوجاتهم الكافرات ، يقول تعالى ـ في أهل الإيمان- **{وبشر الذين ءامنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون}**[2] [أي أزواج من الحور العين ، ومن أزواجهم في الدنيا]ومعنى مطهرة ، كما يقول مجاهد (تلميذ ابن عباس ـ رضى الله عنهما) : لا يبلن ولا

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ١ / ٢٠٧

(٢) البقرة ٢/ ٢٥

يتغوطن ولا يلدن ولا يحضن ، ولا يمنين ولا يبصقن)[1]

وفى تفسير الجلالين : "ولـهم فيـها أزواج" من الحـور العيـن وغيرها"مطهرة " من الحيض وكل قذر)[2]

وفى هذا النعيم ، وتلك الحياة الخالدة يقول القرآن أيضا : {لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }[3].

ويقول تعالى فى الكافرين وأزواجهم: "احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ(٢٢)مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ"[4].

يقول الإمام النسفي: والمقصود بأزواجهم : أشباههم وقرناؤهم من الشياطين ، أو نساؤهم الكافرات [5] .

لكن يرجع الرأى الثانى أن الله حين عرض نعيم المؤمنين ليغيظ به الكافرين فى نفس سياق الآيات من السورة قال : "**وعندهم قاصرات الطرف عين(٤٨)كأنهن بيض مكنون**" [6] . فحين يتوجه النداء الى المؤمنين بأن يدخلوا الجنة مع أزواجهم المؤمنات تكون حسرة الكافرين حين يؤمرون بأن يحشروا هم وأزواجهم فى النار ، وهى صورة متقابلة

---

(١) انظر تفسير القرطبى ١ /٢٠٧

(٢) تفسير الجلالين ـ بهامش تفسير البيضاوى جـ ١ صـ ٣٦

(٣) آل عمران ٣ / ١٥

(٤) الصافات ٣٧ / ٢٢ ، ٢٣

(٥) تفسير النسفى ٤ / ١٩

(٦) الصافات ٣٧ / ٤٨ ، ٤٩

كثيراً ما نراها فى سياق آيات القرآن الكريم حين يعرض صور الثواب والعقاب (١) . بل إن آيات القرآن لتذكر هذا وهى تذكر لنا ما يكرم الله به الأسرة المسلمة حيث يجمعها فى مستقر رحمته ليكمل السرور ، وتتم السعادة ، حين يجتمع الآباء والأبناء والزوجات والأزواج فى جنات النعيم يقول تعالى : "جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ(٢٣)سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" (٢) وهذا دعاء حملة العرش للصالحين من عباد الله يقول تعالى : "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٧)رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٨)وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (٣) وربما نتساءل : كيف يكون هؤلاء فى مكان واحد فى الجنة ، والجنة درجات "ولكل درجات مما عملوا" ، ولكن الاله الكريم يمن على المقصر منهم برحمة من عنده فيرفعه الى الدرجة الأعلى ، قال تعالى :

"مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ(٢٠)وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ" (٤).

---

(١) منهج القرآن فى تربية المجتمع للمؤلف ص ٣٠٩

(٢) الرعد ١٣ / ٢٣ ، ٢٤

(٣) غافر ٤٠ / ٧ – ٩

(٤) الطور ٥٢ / ٢٠ ، ٢١

عن ابن عباس يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال : إنهم لم يدركوا ما أدركت ، فيقول : "يارب إنى عملت لى ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم" (١) وما أعظمها من صلات ربطت بين أفراد الأسرة المؤمنة فى الدنيا والآخرة وما أجلها من علاقة ودودة رحيمة قامت على نورها وهديها رابطة قوية متينة لاتستطيع عواصف الزمان أن تزلزل بناءها لأنها قامت على إيمان وثيق الصلة بالله ، ومثل هذا الإيمان وما ترتب عليه لا يحتاج الى قوة السلطان ليعطى ثماره ، وليبلغ مداه . .

هذا هو الشق الأول فى العلاقة بين المرأة والرجل وهو الأساس الذى أقيمت عليه هذه العلاقة ، وبه حمى الإسلام مبادئه وتشريعاته من الحلل ، وضمن لها دقة التنفيذ ، وربطها بمبدأ القوة التى تهيمن على القلوب ، وتحاسب على خلجات النفوس كما سنرى فى الشق الثانى من هذه العلاقة وهو ما شرعه الإسلام فى تحديد أبعادها فى وضوح تام ، عرف كل طرف ما له وما عليه دون ظلم لواحد على حساب الآخر ، ففى كل ما شرع نراه يقول : **إن الله بما تعملون بصير ، إن الله بما تعملون خبير ، واعلموا ان الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، ان الله بكل شىء عليم ، ان الله سميع بصير ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً** ، إلى كثير من مثل هذه التعبيرات الموحية فى الحديث عن الحقوق الزوجية مما زادها قوة ومتانة ضمنت للأسرة المسلمة البقاء

(١) الفتوحات الإلهية لتعلامة الجمل ٤ / ٢١٦

إلى يوم الناس هذا مما جعل أعداء الإسلام ينظرون إلينا نظـــرة حســد وحقد ، فأجمعوا أمرهم على هدمها "يُرِيـــدُونَ أَنْ يُطْفِئُـــوا نُـــورَ اللَّـــهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(٣٢)هُـــوَ الَّـــذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّـــهِ وَلَـــوْ كَـــرِهَ الْمُشْرِكُونَ" (١).

فماذا عن هذه الحقوق التى جعلت العلاقة بين الرجل والمرأة فـــى الإسلام تقوم على المودة والرحمة لا على الصراع والتنازع ، كما هـــو الشأن فى أمم لم تسعد بالانضواء تحت لواء دين الرحمة والمحبة والأمـن والسلام ؟؟

إن أول خطوة على الطريق تبدأ بالخطبة :

ومعناها اختيار الرجل لامرأة لتكون له زوجاً وشروطها ألا تكـــون الفتاة أو المرأة مخطوبة لرجل آخر : "لا يخطب أحدكـــم علـــى خطبـــة أخيه(٢) ، فهذا ما يقطع علاقة الود والمحبة بيـــن النـــاس ، وألا تكـــون معتدة عدة رجعية فقد يراجعها زوجها ، ولا فى عدة وفاة حفاظـــاً علـــى حق الأخوة ، إلا أن يكون ذلك تلميحاً لا تصريحاً قال تعالى : **"ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم ، علـم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفـــاً ، وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَـا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ"** (٣) .

---

(١) التوبة ٩ / ٣٢ ، ٣٣

(٢) رواه البخارى وأحمد والنسائى

(٣) البقرة ٢/ ٢٣٥

فإذا ما اتضح أنه ليس هناك مانع من الخِطْبة بدأ كل من الخاطب والمخطوبة ووليها فى البحث عن مدى صلاحية كل منهما للآخر ليكون له زوجاً .

وأهم مايجب البحث عنه هو الخلق والدين ، فهذا هو الشرط الذى لا تفريط فيه "فاظفر بذات الدين تربت يداك" (١) .

"إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض"(٢) والإسلام يحث على أن ينظر كل من الخاطب والمخطوبة لصاحبه : (انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)(٣) دون إفراط ولا تفريط : فبعض من لا فقه لهم يمنعون نظر الخاطب إلى من يريد خطبتها فلا يراها إلا حين يدخل بها وهناك قد يكتشف أحدهما فى صاحبه ما ينفر منه ولكن بعد فوات الأوان ، وبعض الجاهلين بدينهم يبيحون لبناتهم الخلوة وأحاديث الهوى لتستطيع الفتاة أن تختار عن معرفة بمن تريد أن ترتبط به برباط الزواج ، وقد لا تتم الخطبة ، والبعض لا يتورع عن ذلك إذا تمت الخطبة فترى الخاطب يخلو بمخطوبته ، ويخرج بها ، ويسافر هنا وهناك ، وقد لا يتم الزواج لأمر ما ، فيكون الندم والتعاسة والضياع ولات ساعة مندم ، فقد حدث مالا تحمد عقباه ، وبعض أولياء أمور الفتيات يسارعون بعقد الزواج ، خروجا من هذا الحرج ، وهذا أمر جيد لو تم الدخول بعد العقد بوقت

---

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) أخرجه الترمذى

(٣) رواه الترمذى والنسائى

قصير ، ولكن الدخول قد يتأخر لزمن بعيد لما اعترى المجتمعات الإسلامية من ظروف اقتصادية، وقد تَجِدُّ مشكلات تؤدى إلى الانفصال ، فماذا تصنع الفتاة وماذا يصنع أهلها ؟ والرجل الذى ارتضوه لابنتهم ينكر أنه دخل بها ، حتى لا يتحمل ما يلزم الزواج من حقوق ، وقد تكون حملت منه ، وهو ينكر هذا ، والعرف قد جرى أن الرجل لا يدخل بمن عقد عليها إلا فى جو من الفرح والبهجة والسرور وإقامة وليمة تعرف بوليمة العرس يحضرها الأهل والأحباب ، فإن حدث لقاء بين الزوجين قبل هذا الإعلان فهذا أمر مستهجن ، لما فيه من ضرر بالغ إذ كيف يكون الحال وقد انتقلت المرأة إلى بيت زوجها وهى حامل فوضعت مولودها بعد شهور قلائل ؟ وما هو أشد أن يحدث خلاف فيتم الطلاق وينكر الزوج أنه قد دخل بها ؟ لذلك كثيراً ما أنصح أولياء أمور الفتيات بأن يؤخروا عقد الزواج إلى ما قبل الزفاف بوقت قصير ، حتى لا يكون هذا العقد باباً للوقوع فى الكثير من المشاكل ، فقد أصبحت بهذا العقد حلالاً له ، وقد لا يصبران الى أن يعلن دخولهما فيحدث ما لا نحبه وما لا نرتضيه .

وعقد الزواج الذى جعله دين الله وسيلة لارتباط رجل بامرأة هو كلمة الله التى جعلت كلا من الرجل والمرأة حلالا للآخر يرى منه ما لا يجوز أن يراه أب أو أم أو أخ "أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله"(١) وهذا العقد يتم بإيجاب وقبول وحضور ولى أمر الفتاة

---

(١) من خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع كما ذكرها ابن هاشم فى السيرة النبوية ٦٠٤/٤

وشاهدين عدلين بعد موافقة الفتاة على هذا الزواج موافقة صريحة عن طريق سكوتها إن كانت بكرا فمنعها الحياء من الحديث ، ولكن لابد من أن يكون السكوت دليل الرضا ، فإذا كان دليل الرفض فلا تجبر على ما لا تريد وإن كانت ثيبا أبدت رأيها في وضوح فهذا عقد سيبقى مدى الحياة ، وإذا كنا في صفقة تجارية يهون ما فيها من ربح أو خسار لا نستطيع أن نجبر أحد الطرفين على القبول وإلا كان العقد باطلا ، فما بالنا وهذه صفقة العمر ، وشركة الحياة ؟؟

نعم إنها صفقة العمر ولهذا لا يجوز أن يكون عقد الزواج مؤقتا ، ولا أن يحمل شرطا فاسدا وإلا فهو باطل ، وما دام قد استكمل شروطه وتم إيقاعه فقد وجب به على كل من الزوجين للآخر حقوق يجب مراعاتها ، جماعها قول الله تعالى "**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**"(١) .

و أول هذه الحقوق على الزوج : المهر : وقد سماه الله صداقا لأنه ليس ثمنا للمرأة ، إنما هو دليل على الرغبة الصادقة في الزواج ، ودليل تكريم لها ، ولذلك رغب الإسلام في عدم المغالاة فيه حتى لا يكون عقبة في طريق الناس ليحيوا حياة العفة والطهر بزواج سعيد لا مشقة فيه ، وكم من مشكلات اجتماعية في عالمنا الإسلامي جرنا إليها مغالاة الكثير منا في المهور ، ومع أن المهر حق واجب على الزوج إلا أن الله سماه (نحلة) أي عطية وهبة وهدية فقال : "وآتوا النساء صدقاتهن نحلة" وجعل من حق المرأة أن تتنازل عن جزء منه لزوجها فقال : "**فإن طبن لكم عن**

---

(١) البقرة ٢٢٨/٢

شيء منه نفسا **فكلوه هنيئا مريئا**"[١] وما دام حقا لها فيو حين تطـــ به ومن حقها ألا تنتقل الى بيت الزوج حتى يؤدى لها ما تم الإتفاق عليه في مقدم الصداق ، والمؤخر منه يبقى فى ذمة الزوج تستوفيه فى أقرب الأجلين : الطلاق أو موت الزوج فإن طلقها قبل الدخول والخلوة الصحيحة وجب لها نصف المهر إن كان قد سمى مهرا وإلا وجبت لها متعة بقدر وسع الزوج ويساره أو عدم يساره ، قال تعالى : "**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الوسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ، وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقد النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير**"[٢] فإذا ما ساق لها مهرها وعقد عليها ودخل بها وجبت عليه النفقة لها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وما الى ذلك مما ييسر للناس حياة كريمة بقدر طاقة الزوج قال الله تعالى : "**لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما ءاتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما ءاتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا**" [٣] كما يجب عليه أن يعدل فى النفقة والمبيت إن كانت له زوجة أو زوجات غيرها قال تعالى : "**وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى**

---

(١) النساء ٤/٤

(٢) البقرة ٢/٢٣٦/٢٣٧

(٣) الطلاق ٦٥/٧

الا تعولوا"(1) ولا يكلف بما لا يقدر عليه من العدل في الميــــل القلبــي لواحدة منهن قال تعالى : "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النســـاء ولــو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فــإن الله كان غفورا رحيما"(2) وبهذا نرد على من فهم أن الإســـلام لا يجــيز التعدد لأنه اشترط لذلك العدل ولكنه قال "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بيـــن النساء ولو حرصتم" فنقول لهم هذا في الميل القلبي ، والمطالب به الرجل هو العدل في المبيت والنفقة وما الى ذلك مما هو في مقدور كل إنسان .

فإذا ما أدى ما افترض الله عليه ، وجبت عليها طاعته فــي غــير معصية الله فلا تخرج من بيته إلا بإذنه ، ولا تســـافر دون رضـــاه ولا تتصرف في ماله الا بموافقة منه ولا تدخل في بيته من لا يرغب فيه ولا يعني هذا تسلطا وتجبرا وإذلالا للمرأة ، وإنقاصا من كرامتها ومنزلتـــها ومكانتها ، إنما هذا نابع من فلسفة الاسلام في القيادة : (إذا خرج ثلاثـــة في سفر فليؤمروا أحدهم(3) وربما كان هؤلاء الثلاثة فــي ســفر لأيــام معدودات لكن أمرهم لا ينتظم الا بأن يكون لهم أمير يأتمرون بـــأمره ، فما بالنا وهذه رفقة الحياة بكل ما فيها ، ولكم تحتاج إلـــى مـــن يتولــى أمرها، فلمن تكون الإمارة في مملكة البيت ؟

لعل النظر الصحيح يقول : الرجل هو الأجدر والأحق بذلــك قــال تعالى : "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعـض

---

(1) النساء ٤/ ٣

(2) النساء ٤/ ١٢٩

(3) رواه أبو داود / في الجهاد / باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم

وبما أنفقوا من أموالهم. .(١) والتعبير القرآنى (بما فضل الله بعضهم على بعض) ليس فيه أن الرجال أفضل من النساء وإنما يشير الى أن الرجل أفضل من المرأة فى جوانب وهى أفضل منه فى جوانب أخرى ، فليس فى قدرتها – إلا بمشقة شديدة – أن تقوم بما يقوم به الرجال من أعمال تحتاج الى جهد ومجالدة وتعب ، وليس فى قدرة الرجل أن يقوم بما تقوم به المرأة من حمل وإرضاع وسهر وجهد فى رعاية الأبناء وما إلى ذلك مما لا يتحمله الرجال ، فهذه القوامة إذا مسئولية يقوم بها الرجل بشروطها من العدل والحكمة والمشورة والمودة ، وفى النساء بحمد الله كثرة عظيمة لهن حسن الرأى وصدق المشورة مما جعل أزواجهن يأخذون برأيهن فى كل أمر ، والمسلمون لا ينسون مشورة أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها فى الحديبية حين أشارت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أشارت به فكان فى رأيها الخير للمسلمين ، وإذا كانت هذه هى حقوق كل من الزوجين على الآخر فإننا لا ننسى أن هناك حقوقا يشترك فيها الزوجان ، ومنها : حق الإستمتاع ، وثبوت النسب ، وحرمة المصاهرة ، وحسن المعاشرة ، والتوارث.

فلكل من الزوجين أن يستمتع بالآخر ، ولا يقال بأن هذا حق للزوجة فحسب وعلى زوجها أن يؤدى لها هذا الحق بل هو حق عليها لزوجها كذلك وهنا نجد كلاما للأئمة والباحثين فى تحديد المدة التى يحق للزوجة أن تطالب فيها بهذا الحق وهل هى مازاد على أربعة أشهر ، أو فى كل طهر ، أو فى ليلة من أربع ليالى ، وأولى الأراء أن ذلك لا

---

(١) النساء ٣٤/٤

ضابط له إلا الابتعاد عن قصد الضرر وتعمد الحرمان ، وعلى الزوج أن يجتهد فى إعفاف زوجته بقدر طاقته ، كما يسوقون كثيرا من الأحـــاديث التى توجب على الزوجة أن تستجيب لزوجها إذا ما دعاها لفراشه علـــى أية حال كانت ، وأنها إن أبت لعنتها الملائكة حتى تصبح مـــا دام ليـــس لديها مانع شرعى من حيض أو نفاس أو صيام فرض أو ما الى ذلـــك ، وسواء كانت مشغولة بعمل أم لا ، فى ليل أو نهار ، ولكن فقه التوجيهات النبوية والآيات القرآنية فى هذا الأمر ، وأن الزواج سكن ومودة ورحمة، وعلاقة أبدية ، فى الدنيا والآخرة ترشدنا الى مايجب على الزوج إذا مـــا رغب فى ذلك من التلطف والمداعبة حتى لا يكون لقاء الرجل بامرأتـــه وكأنه حالة اغتصاب وقهر ، وقد قال بذلك أعداء الإسلام فى مؤتمراتهم، وطالبوا بالتحرر من قيد الزواج لتكون العلاقة بين الذكر والأنثى بعيـــدة عن فراش الزوجية ومن هنا كان البحث فى هذه المؤتمرات عـــن حكـم الإجهاض لو حملت المرأة من هذه العلاقة الفاسدة التى لا يترتب عليـــها أى حق لطرف منهما على الآخر ، وتؤدى إلى خـــراب الدنيـــا وفســـاد أجيالها وهدم بيوتها ، أما فى الإسلام فيستطيع كل من الزوجين أن يصـل إلى ما يريد من صاحبه بالوسائل التى رسمها ديننا العظيم ، ليكون لقـــاء الزوجين متعة وسعادة وأنسا وودا وحبا ، تتوثق بـــه القلـــوب ، وتنمـــو العواطف ، وتحل به المشكلات وينشأ فى ظله الأبناء ، ويبقى حنين كـــل منهما للآخر مشبوبا ، لا يؤدى كل منهما لصاحبه ما يؤديه على أنه حـق شرعى يريد أن يتخلص منه ، فيسلم جسده للآخر لقضاء وطره ، وإنمـــا هناك تعانق الأرواح، وتلاقى القلوب ، ولحظات الرضا التى تذوب فيـــها الهموم وتشفى بها الجروح ، وتستقيم بها الحياة، ويشرق ديـــن الإســـلام

بمنهجه الربانى على دنيا الناس ليقول لهم بأن هذا المنهج هو واحتهم التى يلتقطون فيها الأنفاس ، وإلا لفحهم هجير صحراء مجدبة يؤدى بهم الى الهلاك .

الحق الثانى : هو ثبوت النسب :

فإذا حملت الزوجة ووضعت حملها نسب هذا المولود لأبيه ، فيقال هذا ولد فلان كما يقال بأن هذه أمه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الولد للفراش ، وللعاهر الحجر"(١) ومعناه أن النسب إنما يثبت بعقد النكاح ، لا بمجرد اتصال رجل بامرأة فولد الزنا لا نسب له ، والزانى والزانية إن كانا محصنين لهما الحجر أى الرجم بالحجارة ، والمسلمون يحفظون المولود من الزنا ، ويقومون بتربيته ، ولا يحاسب نفسيا ولا اجتماعيا ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة عما كان قد حدث فى الحرام فأدى إلى وجوده فى هذه الدنيا ، ومن عيره بذلك فهو قاذف يقام عليه حد القذف .

ومن أراد نفى نسب مولود له فعليه أن يلاعن من زوجته وأن ينفى فى لعانه نسبة المولود إليه قال تعالى : "**والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين(٦)والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين(٧)ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين(٨)والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين**" (٢) .

---

(١) بدائع الصنائع ٣٣١/٢

(٢) النور ٢٤/٦-٩

وإذا كان الرجل قد استطاع أن ينفى نسب مولود عنه بالملاعنة ، فإن الزوجة قد تدعى أن المولود ليس ابنها الذى ولدته ، وعليها إثبات ذلك فإن فعلت لا يقال بأن هذا ابنها وأن هذه أمه ، ومن حق كل مولود أن يكون له أب وأم فمن جاء بمولود من حرام ومن نفى عن نفسه نسب ولد له وهو يعلم أنه كاذب ، ومن فعلت ذلك عدوانا وظلما ، كل هؤلاء حقت عليهم لعنة الله وغضبه ومقته ، لما يترتب على هذا من فساد كبير وبلاء عظيم .

الحق الثالث : حرمة المصاهرة :

وهذه الحرمة تترتب على عقد الزواج أو على الدخول بعقد الزواج، ومثال الأول: حرمة أم الزوجة بمجرد العقد على الزوجة ، ومثال الثانى حرمة بنت الزوجة بالدخول بالزوجة فالقاعدة : أن العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات كما قال تعالى فى تحريم من حرم الزواج بهن : "**وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم**"[1] ومن ذلك تحريم الزواج من زوجة الإبن ، وتحريم الجمع بين المرأة وأختها" كما ذكر الله عز وجل فقال "**وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف**" وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمع بين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها.

---

(١) النساء ٤/٢٣

الحق الرابع : حسن المعاشرة :

ماهى المعاشرة ؟ يقول ابن منظور : العشير : المعاشر ، وعشير المرأة : "زوجها لأنه يعاشرها وتعاشره ، كالصديق والمصادق . . " [1] ويقول ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة : العين والشين والراء أصلان صحيحان ، أحدهما فى عدد معلوم ثم يحمل عليه غيره ، والآخر يدل على مداخلة ومخالطة " [2] فما بين الزوجين إذا من هذا القبيل : مداخلة ومخالطة يعبر عنها القرآن فيقول : "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن" فماذا فى القرآن من التوجيهات لتكون هذه المداخلة وتلك المخالطة على أحسن وجوههما ، فيها صدق المودة ، وإخلاص السريرة ، وحسن المعاملة ، وهل هذا حق للنساء على الرجال أو هو حق للرجال على النساء ؟ لم يرد فى القرآن الأمر بالمعاشرة الحسنة إلا فى موضوع واحد يأمر الله فيه الأزواج بأن يحسنوا الى نسائهم إحسانا يجعلهم يتحملون ما بدا لهم من أسباب الكراهة لهن إذ يقول تعالى : "**وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**" [3] .

كما نرى فى القرآن توجيهات لهذه المعاشرة بالمعروف وبخاصة إذا نشب الخلاف بين الزوجين، والزوج بيده العصمة ، وقد يسىء إستعمال هذا الحق ، وليس هذا من المعاشرة بالمعروف ، فنقرأ قول الله تعالى : "**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**" وقوله :

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٤/٢٩٥٥

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/٣٢٤

(٣) النساء ٤/١٩

"**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**"(١) وقريب من هذا قوله فى سورة الطلاق : "**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**" (٢) ولكن قول الله تعالى : "**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**" (٣) يبن لنا أن حق المعاشرة بالمعروف كما هو حق للمرأة على زوجها هو حق لزوجها عليها ، إذ بذلك تدوم المحبة ، وتنتظم حياة الزوجين ، وفى السنة ما يبين ذلك ، فنرى جملة من الأحاديث توصى الأزواج بزوجاتهم خيرا ، وتلفت أنظارهم الى ما فى طبيعة المرأة من عوج ، وأن على الأزواج أن يقدروا هذا : "**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر**"(٤) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء (٥) وفى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع قال : ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان . . (٦) (أى أسيرات) فهى شبيهة بالأسيرة إذ لا وسيلة للخروج من رباط الزوجية إلا بأن يطلقها زوجها أو

---

(١) البقرة ٢/٢٢٩، ٢٣١

(٢) الطلاق ٦٥/٢

(٣) البقرة ٢/٢٢٨

(٤) رواه مسلم

(٥) رواه الشيخان

(٦) رواه ابن ماجه والترمذى وقال : حديث صحيح

تفتدى نفسها منه بما أعطاها .

كما نرى الكثير من الأحاديث التي توصى الزوجة بحسن تبعل زوجها والقيام بحقوقه فهو كما ذكرت الأحاديث: جنتها ونارها ، وسبيلها لمرضاة ربها ، وهو أعظم الناس حقاً عليها .والأحاديث فى ذلك كثيرة ومشهورة ، وهذا الحق المشترك بين الزوج وزوجته هو ما قال به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من العلماء . . يقول ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى : "ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف" ، "لهن من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف على أزوجهن مثل الذى عليهن من الطاعة فيما أوجبه الشرع عليهن لأزواجهن" (١) ويقول : إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لى ، لأن الله تعالى يقول : "ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف" ويشرح صاحب المنار هذا الحق المتبادل فيقول : هذه الآية الكريمة : "ولَهن مثل الذى عليهن بالمعروف" تعطى للرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجته فى جميع الشئون والأحوال ، فإذا هَمَّ بمطالبتها بأمر من الأمور تَذَكَّرَ أنه يجب عليه مثله بإزائه ، وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة ، وأنهما أكفاء ، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها ، إن لم يكن مثله فى شخصه فهو مثله فى جنسه ، فهما متماثلان فى الحقوق والأعمال كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل (٢) .

---

(١) تفسير القرطبى ١٢٣/٣ ، ١٢٤

(٢) تفسير المنار ٣٧٥/٢

وقال الإمام علاء الدين الكاساني : المعاشرة بالمعروف هي: المعاشرة المرضية وهي التي يرضى بها الشخص لنفسه ، بمعنى أن من وجبت عليه هذه المعاشرة أن يؤديها الى من وجبت له على نحو يرتضيها هو لنفسه لو فُعِلَت له ، فيدخل في ذلك المعاشرة الجميلة من المرأة مع زوجها بالإحسان باللسان واللطف بالكلام والقول المعروف ، الذي يطيب به نفس الزوج . . (١) .

الحق الخامس : التوارث :

فكل من الزوجين يرث صاحبه وفق قاعدة الإسلام في الميراث والتي تقوم على أن الغرم بالغنم ، وما دام الإسلام قد حمَّل الرجال مسئولية الإنفاق فإنه بعدله أعطاهم في الميراث غالبا ضعف ما أعطى للنساء ، يقول تعالى : **"وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ"** (٢) .

ومع هذه الحقوق الواضحة والتي لو أُديَتْ كما أمر الله لعاش الزوجان حياة ملؤها السعادة والرضا ، إلا أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، فماذا أرسى الإسلام من قواعد إذا حدث هناك تنافر وتناكر بين الزوجين؟ هل بعقد الزواج دخل

---

(١) "البدائع" للكاساني ٢/٣٣٤

(٢) النساء ٤/١٢

كل منهما فى سجن لاخروج منه أبداً ، وهل فى الإمكان أن تنتظم الحياة فى ظل هذا الزواج ؟ الواقع يقول بأن هذا مستحيل وقد أدى فى البلاد التى فعلت ذلك إلى أن بقى هذا الزواج شكلاً لا موضوعاً ، وانطلق كل من الزوجين يبحث عن سعادته وراحته بل وقضاء وطره بعيداً عن هذا السجن الرهيب ، وكم فى هذه الحياة على هذا النحو من عذاب وبلاء وقلق وضياع وهدم لبناء الأسرة مما أدى الى تشرد الأبناء ، وكثرة اللقطاء ، وشيوع ألوان من الفساد لا تحيط بها العبارات.

ولكن الإسلام العظيم مع تقديسه للرابطة الزوجية وحمايته لها وضع فى خطته حسابات دقيقة لما يعترى هذه الرابطة من وهن وضعف ، وما للعوامل النفسية و الاجتماعية والتربوية وغيرها من آثار قد تجعل كلاً من الزوجين لا يستريح للآخر ، بل قد يصل الأمر الى أن كلاً منهما لم يعد يطيق النظر للآخر ، ولابد من الفراق ؟

فماذا فعل الإسلام لحل هذه المعضلات ؟

إذا جمعنا آيات القرآن الكريم فى هذا وما جاء فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظرنا فيما فيها من علاج شاف وكاف لاحتاج الأمر بنا الى مؤلف خاص ، لكنا على وجه الإجمال نلخص هذا العلاج فى الآتى :

(١) لابد أن يعلم كل من الزوجين أن الكمال لله وحده وأن الإنسان فيه نقص وضعف كما أن فيه جوانب كثيرة مضيئة خيرة فليقدر كل منهما هذه الجوانب ولينظر الي الجوانب المشرقة ويتغاضى

عن الجوانب المظلمة ، وعلى الرجل في هذا العبء الأكبر فإنه رب الأسرة والقائم على أمرها وقد منحه الله ما أهله لهذا من قدرته البدنية والتحكم في عواطفه وانفعالاته ، بخلاف المرأة التي أعطاها الله رقة في بدنها ، ورقة في عواطفها لتكون نسمة هواء عليل في بيتها فيسعد بها زوجها وأبناؤها ، وعلى هذا جاء قول الله تعالى موجهاً الخطاب للرجل : "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا" (١) ، وقد علمنا أن المعاشرة بالمعروف حق مشترك كما يجب على الزوج لزوجته يجب على الزوجة لزوجها ، وعليها أن تدرك أن ما تكرهه من زوجها قد يكون بصبرها عليه من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ، بل إن الله رغبها إذا ما بخل زوجها عليها ببعض حقوقها أن تتنازل عن هذه الحقوق استبقاء للعلاقة بينهما ، فقد ترى الزوجة أن بقاءها مع زوجها أفضل لها من فراقه ، وإن تنازلت عن بعض حقوقها ، حرصا منها على أبناء صغار في حاجة إليها ، وعلاقات اجتماعية تخشى أن تنالها ألسنة السوء وما إلى ذلك من اعتبارات ، وهذا ما نقرؤه في قول الله تعالى : **"وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا"** (٢) ومثل هذا التوجيه القرآني نجده في السنة المشرفة فعن أبي هريرة رضي الله

---

(١) النساء ٤/١٩

(٢) النساء ٤/١٢٨

عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر [(١)] .

(٢) المرحلة الثانية من مراحل العلاج هي الوعظ بكلمات تصل إلى القلب فيها المصارحة والبحث الدقيق عن سر الخلاف ، والتذكير بحق الله وحق كل منهما على صاحبه ، وما هنالك من أبناء وأهل وما يترتب على الفراق من ضياع وشتات .

(٣) إن لم ينجح الوعظ فليكن الهجر في المضاجع وهو عقوبة نفسية تتأدب بها المرأة ، وليست عقوبة جسدية تحرمها من لذة الجسد بضعة أيام أو بضعة أسابيع ، وإلا لكانت عقوبة للرجل أيضا ، وهي درس قاس يصيب المرأة في الصميم لأن أبلغ العقوبات- كما يقول العقاد- هي العقوبة التي تمس الإنسان في غروره ، وتشككه في صميم كيانه ، في المزية التي يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه، والمرأة تعلم أنها ضعيفة الى جانب الرجل ولكنها لا تأسى لذلك ماعلمت أنها فاتنة له ، وأنها غالبة بفتنتها ، وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها ، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل بإحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه.. [(٢)] والتعبير القرآني بالهجر في المضاجع يبين أنه ليس هجرا للمضاجع بأن يترك البيت أو الحجرة التي تنام فيها ، وإنما يهجرها وهو معها في فراشها فلا يكلمها ولا يلتفت لها وإنما يوليها ظهره بما يشعرها بغضبه ، والمؤمنة الصالحة تبذل قصارى جهدها

---

(١) رواه مسلم - معنى لا يفرك : لا يبغض

(٢) الفلسفة القرآنية : للعقاد ص ٧٤ ، ٧٥

لإرضاء زوجها خوفا من غضب الله ومقته وهى تعلم من الأحاديث النبوية الكثيرة ما يترتب على غضب الزوج من سخط الله عليها[1] .

(٤) فإذا ما استحكم الخلاف ولم يجد الوعظ ولا الهجر كان الضرب الذى لا يكسر عظما ولا يقطع لحما ، ولا يؤذى وجها علاجا لطبيعة معوجة فى بعض النساء ، وربما ثار بعض المتحذلقين من دعاة التحرر على هذه المرحلة التى شرعها الإسلام فى إصلاح الأسرة ، ولو أنصفوا لعلموا أن المجتمع أعطى حق التأديب بالضرب للمؤدبين والآباء والقادة ، ومملكة البيت أعظم من ذلك وأخطر ، ثم إن الإسلام لا يلجأ لهذا إلا فى حالة الضرورة القصوى وحين يعلم الزوج أن هذه وسيلة تؤدى الى رد زوجته إلى طريق الصواب .

(٥) فإذا لم تفلح كل هذه الوسائل كان لابد من تدخل الأمة ممثلة فى أمرائها وحكامها لإصلاح هذا الخلل ، فعليهم أن يختاروا حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة لينظرا فيما بين الزوجين من خلاف ، قال تعالى : "**وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا** [2] . قال الشافعى : المستحب أن يبعث الحاكم عدلين ويجعلهما حكمين ، والأولى أن يكون واحد من أهله وواحد من أهلها ، لأن

---

(١) اقرأ في ذلك باب حق الزوج على المرأة ص ١٤١-١٤٣ رياض الصالحين للإمام النووي، ترغيب الزوج في الوفاء بحق زوجته وحسن عشرتها ، والمرأة بحق زوجها وطاعته، وترهيبها من إسقاطه ومخالفته ص ٤٨-٤٩ من الترغيب والترهيب للإمام المنذري ج٣ وغيرهما من كتب السنة.

(٢) النساء ٤/٣٥

أقاربهما أعرف بحالهما من الأجانب وأشد طلباً للصلاح ، فإن كانا أجنبيين جاز ، وفائدة الحكمين أن يخلو كل واحد منهما بصاحبه ويكتشف حقيقة الحال ، ليعرف أن رغبته في الإقامة على النكاح أو المفارقة ، ثم يجتمع الحكمان فيفعلان ما هو الصواب من إيقاع طلاق أو خلع (١) .

(٦) وقد أشرنا في المرحلة الأولى من مراحل العلاج إلى ما رغب فيه الإسلام من تنازل الزوجة عن بعض حقوقها استبقاء للحياة الزوجية وأن الصلح خير من الفراق ، فإن استحكمت النفرة ولم تجد كل هذه الوسائل كان الطلاق من الزوج أو الخلع من الزوجة ، ليجرب كل منهما حياة بعيدة عن صاحبه ، ربما وجد فيها راحة نفسه وهدوء باله : "**وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما**"(٢). والطلاق بالصفة التي شرعها الإسلام علاج ناجع لأمراض المجتمعات، ودليل واضح على أن هذا تشريع من رب العالمين الذي خلق الخلق وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير ، وبهذا نستطيع أن نقول حقا بأن العلاقة بين الرجل والمرأة في ظل الإسلام تقوم على المودة والرحمة والتعاون ، لا على الصراع والتنازع .

٥ – اختلاف وظيفة المرأة عن وظيفة الرجل أمر تقتضيه طبيعة الحياة القائمة على التخصص والتكامل :

في حديثنا عن مساواة المرأة مع الرجل في أصل الخلقة و التكليف

---

(١) تفسير الفخر الرازي – المجلد الخامس – ص ٩٦

(٢) النساء ٤/ ١٣٠ .

والمسئولية ، وفى بياننا للخصوصيات التشريعية للمرأة وأنها تتناسب مع وظيفتها الاجتماعية ، مايدل على أن اختلاف وظيفة المرأة عن وظيفة الرجل أمر تقتضيه طبيعة الحياة القائمة على التخصص والتكامل ، وتلك من حكمة الله فيما خلق من الذكر والأنثى ، وما أعطى كل واحد منهما من الخصائص البدنية والعقلية والعاطفية مما أهَّلَه للقيام بوظيفته خير قيام، فالإله الحكيم قد أعد الرجل للكدح والعمل ، بما فيه من مشقة وجهد لكسب قوته وقوت من يعول من زوجة وأبناء كما أعد المرأة لتربية الأبناء ورعايتهم وتهيئة بيت الزوجية ليكون واحة تستريح لمرآها العيون، وتهدأ فى كنفها الأعصاب المكدودة المجهدة ،وهذا الذى نقول هو ما أثبته العلم الحديث ؛ ولنقرأ فى ذلك ما كتبه الكسيس كاريل ، فى كتابه" الإنسان ذلك المجهول " إذ يقول : (إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لاتأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم ، إذ إنها طبيعية أكثر من ذلك إذ إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محدودة يفرزها المبيض . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا ،وأن يمنحا قوى واحدة ، ومسئوليات متشابهة ، والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ؛ والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها ؛ وفوق كل شيئ، بالنسبة لجهازها العصبى . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبى ؛ فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها ، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى ، فعلى النساء أن

ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن من غير أن يحاولن تقليد الذكور ، فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال ، فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحدودة [1] و لعل هذا هو بعض ما يشير إليه قول الله تعالى : وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، **فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى**"[2] فأسند الى آدم وحده فعل الشقاء وهو التعب في طلب القوت لأنه هو المكلف بالكد والسعي وتوفير أسباب الحياة لحواء ، ومن هذه الآيات فهم الفقهاء أن نفقة الزوجة على الزوج وأنها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور [3].

ومن خالف سنة الله فيما خلق ظلم نفسه ووقع في بلاء عظيم ، وخسر السعادة والأمن والاستقرار النفسي والاجتماعي ، والواقع خير شاهد على ما نقول ، فهذه هي الأمم التي فهمت المساواة بين الرجال والنساء فهما خاطئا ، وخيل إليهم أن النساء قادرات على القيام بما يقوم به الرجال في جميع وجوه الحياة ، هذه الأمم في سبيلها للفناء إذ توقف نسل بعض دولها ، ونقص نسل بعضها الآخر ، ومن يزيد نسلها يزيد بمعدلات بطيئة ، انتشرت فيها الأمراض الجنسية ، وأصبحت البطالة في

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كارل ص ٧٨.

(٢) طه ٢٠ /١١٦ ـ ١١٩ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ١١/٢٥٣ .

صفوف الرجال مظهرا من مظاهر الحياة يبحثون لها عن علاج ، وفقدت الأسرة معناها ومغزاها ، وأصبح البيت مجرد مكان يأوى إليه الزوجان فى نهاية العمل اليومى للمبيت ، وقد لا يلتقيان إلا نادرا نظرا لاختلاف أوقات العمل ، وفى وسط هذه الفوضى ضاع الأبناء ،ولم يجدوا لهم أبا يرعاهم ولا أما تمنحهم الحنان والحب ، وكم تتمنى هذه المجتمعات أن تعود نساؤها إلى البيوت للقيام بأعظم وظيفة ألا وهى رعاية الرجال وتهيئة البيت ليكون محضنا أمينا يتربى فيه الأبناء فى ظل أسرة يسودها الود والتراحم ، قال تعالى "**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**"(١)

وليتم هذا ، ولتتحقق الغاية من الزواج وضع الله عن النساء كثيرا من التكاليف التى تحتاج إلى الخروج من البيت ، كما رأينا فى الخصوصيات التشريعية التى جعلها الله لها ، وجعلها راعية لبيت زوجها ومسئولة عنه ،وجعل أداءها لمهمتها فى بيت زوجها مساويا لما يقوم به الرجال من الجهاد فى سبيل الله ، وما لهم من ثواب عظيم فى شهود الجمع والجماعات ــ أخرج البزار والطبرانى أن أسماء بنت يزيد الأنصارى ــ رضى الله عنها ــ أتت إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو بين أصحابه ، فقالت : يا رسول الله : إنى وافدة النساء إليك ، إن الله بعثك بالحق للرجال والنساء ، فآمنا بك واتبعناك ، وإنا ــ معشر النساء ــ محصورات ، قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم ، وأنتم ــ

---

(١) الروم ٣٠ / ٢١ .

معشـــر الرجـــال ــ فضلتـــم علينـــا بـــالجمع والجماعـــات، وعبـــادة المرضى،وشهود الجنائز ،وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله تعالى،وإن الرجل إذا خرج حاجا أو مرابطا أو معتمرا حفظنا لكم أموالكم وغزلنـــــا لكم أثوابكم ،وربينا لكم أولادكم ، أفلا نشارككم فى هذا الخير والأجر يـــا رسـول الله؟؟ فالتفت ــ صلى الله عليه وسـلم ــ بوجهــه الكريــم إلـــى أصحابه ثم قال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن من هذه عن أمر دينـها ؟ فقالوا : يارسول الله ما ظننا امرأة تهتدى إلى مثل هذا، فالتفت النبـــى ــ صلى الله عليه وسلم ـ إليها ثم قال : انصرفى أيتها المرأة وأعلمـــى مـن خلفك من النساء ؛ أن إطاعة الزوج ــ اعترافا بحقــه ــ يعـدل ذلــك ، وقليل منكن من يفعله ، فانصرفت وهى تهلل حتى دخلـت علـى نســاء قومها من العرب وعرضت عليهن ما قاله رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ ففرحن وآمن جميعهن)

وقد أثبت الواقع صدق ما جاء به كتاب الله وهدى رسوله ــ صلـى الله عليه مسلم ــ والمسلم ليس فى حاجة إلى أن يخوض التجارب برأيــه وفكره واجتهاده ليصل فى النهاية إلى أن ما جاء به دينه هو الحق ، فــهو من البداية مؤمن بأن السعادة كل السعادة ، والخير كل الخير فيمـــا بيــن يديه من شرع ربه ، وأن هذا الدين من عند الله الذى خلق الخلق ، وهــو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير ..

ولنتأمل ما وصلت إليه أمم الأرض من الذيــن لا يدينــون بديــن الإسلام، ومن سار فى ركابهم من المنتسبين للإسلام حين أغفل هــؤلاء جميعا تلك الفوارق الجسدية والعقلية والنفسية بين الذكر والأنثى ،فســاووا

بينهما فى الأعمال ، فاضطربت مسيرة الحياة ،وإذا كانوا قد جعلوا المرأة تقوم بما يقوم به الرجال من الأعمال الشاقة ؛ مخالفين بذلك ماخلق الله المرأة عليه من رقة وضعف بدنى ، فإنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا الرجال يقومون بما تقوم به النساء من حمل وولادة ورضاع وتربية أبناء ، ورعاية بيت ..

وقد نقل العلامة الدكتور / مصطفى السباعى فى كتابه :" المرأة بين الفقه والقانون " كثيرا من أقوال وتقارير الباحثين فى قضية المساواة وعمل المرأة ،وأثبت من أقوالهم وتقاريرهم مدى ما أصاب المجتمعات من تمزق وضياع وما آل إليه مصير المرأة ، وأنها تتمنى أن تعود لبيتها وتسعد برعاية زوجها وأبنائها ، وأن المرأة الغربية والأمريكية تود أن تحيا كالمرأة فى بلاد الإسلام .

فلنقتطف ـ على وجه الاختصار ـ من بعض ما ذكره ما يوضح هذه الحقائق يقول :

قال العلامة الإنجليزى " ساموبل سمايلس " ـ وهو من أركان النهضة الإنجليزية : " إن النظام الذى يقضى بتشغيل المرأة فى المعامل مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية ، لأنه هاجم هيكل المنزل ، وقوض أركان الأسرة ومزق الروابط الاجتماعية ، فإنه بسلبه الزوجة من زوجها والأولاد من أقاربهم، صار ـ بنوع خاص ـ لا نتيجة له إلا تسفيل أخلاق المرأة ، إذ وظيفة المرأة الحقيقية هى القيام بالواجبات المنزلية مثل ترتيب مسكنها ، وتربية

أولادها ، والاقتصاد فى وسائل معيشتها ؛ مع القيام بالاحتياجات البيتية ، ولكن المعامل تسلخها من كل هذه الواجبات بحيث أصبحت المنازل غير منازل ، وأضحت الأولاد تشب على عدم التربية ،وتلقى فى زوايا الإهمال، وطفئت المحبة الزوجية ،وخرجت المرأة عن كونها الزوجة الظريفة والقرينة المحبة للرجل ،وصارت زميلته فى العمل والمشاق،وباتت معرضة للتأثيرات التى تمحو غالبا التواضع الفكرى والأخلاقى الذى عليه مدار حفظ الفضيلة "

وينقل من مقال للأستاذ على أمين ما تنادى به الخبيرة الأمريكية الدكتورة " ايدا ايلين " من ضرورة عودة الأمهات إلى البيت حتى تعود للأخلاق حرمتها، وللأبناء الرعاية التى حرمتهم منها رغبة الأم فى أن ترفع مستواهم الاقتصادي ، ونقل ما نشرته جريدة الأهرام تحت عنوان " مع المرأة . " ومما جاء فى ذلك ما دار من مناقشات بين أعضاء الكونجرس الأمريكى فى موضوع منع المرأة التى لديها أطفال من الاشتغال مهما كلفها ذلك : قال عضو منهم فىتبريره للمنع : إن اشتغال الأمهات يسبب مشكلات اجتماعية واقتصادية لا حصر لها ؛ وقال آخر : إن الله عندما منح المرأة ميزة إنجاب الأولاد لم يطلب منها أن تتركهم لتعمل فى الخارج ، بل جعل مهمتها البقاء فى المنزل لرعاية هؤلاء الأطفال ، وقال ثالث : إن المرأة تستطيع أن تخدم الدولة ؛ حقا إذا بقيت فى البيت الذى هو كيان الأسرة ، وقال رابع : إنه لمن الواجب اتخاذ

قرار سريع بمنع المرأة التى لديها أطفال دون الثامنة من العمل ، وقال خامس : إن الأم كالفيتامين ؛ إذا حرم الأولاد منها مرضوا وماتوا، واتفقوا -في النهاية - على السماح للمرأة بالتعليم حتى تفيد أولادها مستقبلا ، أما العمل فلا .

وينقل الدكتور / مصطفى السباعى مقالا منشورا فى مجلة " حضارة الإسلام " المجلد الثانى ص ٥٥٤ عنوانه : " عمل الأمهات " للدكتور / هلتسي كبر خهوف " ترجمه الأستاذ / توفيق الطيب ، ومما جاء في آخره " إن تزايد دخول المرأة في مجال عمل الرجل دفع الأخصائيين الاجتماعيين وأطباء العمال - فى وقت مبكر - إلى عقد مقارنة بين الطاقة على العمل والقابلية له بين كلا الطرفين ، ففى البداية قيل : أن عمل النساء أقل قيمة من عمل الرجال ، فإن المرأة لا تملك غير ٢٠ - ٣٠ % من القدرة العضلية للرجل . فالفروق الفسيولوجية والتشريحية بين الرجل والمرأة تتطلب الانتباه عند تقسيم العمل وتجهيز مكانه حتى فيما يتعلق بوضع الآلة .

إن الشكل العام للمرأة والذى يتميز بزيادة وزن النصف العلوى منها والشكل الواسع والعميق للفراغ البطنى فى الأنثى ، وشكل الحوض الذى جهز بشكل خاص من أجل الحمل ، وما ينتج عن ذلك من تغير نوعى فى توازن المرأة ، والعادة الشهرية و التغيرات التى تتسبب عن الحمل والولادة ، كل هذا يتطلب حرصا كبيرا لوضع المرأة من الآلة

وحمايتها ، فالقدرة الوظيفية المتناقصة لجهاز الدوران التنفسى نعبـــف ، وقد تحول ــ أحيانا ــ وبلا شك ، من مقدار الطاقة على العمل ، كذلـــك فإن جسم المرأة ليس مخلوقا فى الأصل للعمل المستمر ، وفى مقابل ذلك ، فإن المرأة أفضل موهبة من الرجل فى الأعمال التى تتطلب مهارة .

وهكذا فعندما يتطلب عمل المرأة ــ على أســـاس فـروق البيئـة وتغيرات أطوار حياة المرأة خاصة فيما يتعلـــق بوظـائف التناســل ــ انسجاما كليا مع معطياتها التشريحية والفسيولوجية والنفسية ، فإنه سـوف نتفادى المتاعب العصبية فى عمل المرأة فى المستقبل ، وخاصـــة فـى مجال الصناعة ، حيث أصبحت الأهمية فيه حتـى اليـوم للاعتبـارات الجسمية أكثر من النفسية والروحية ، ولقد وصف لنا الكاتب المختـص (جراف graf) هذا الوضع بشكل مؤثر حيث قال : " إن العامل أصبـح بدرجة متزايدة ــ سواء قلت أو كثرت ــ جهاز ضرائب لآلات العمـل ، ولذا فقد وضعت مسألة قدرة المرأة على الأعمال الصناعية فـى غـير محلها " وإننا لنتفق معه أيضا حينما يتابع قوله : " إنه لكى نحكـم علـى طاقة العمل ، يجب أن نفحـص دور المتطلبـات الروحيـة والأعبـاء العصبية، وأن نقيـم لـهذا الـدور وزنـا أكـثر ممـا عرفنـا حتـى اليـــوم)[1] فهذه شهادة القوم على أنفسهم ، تبين لنـا أن اختـلاف وظيفة المرأة عن وظيفة الرجل أمر تقتضيه طبيعة الحياة القائمـة علـى

---

(١) انظر الكتاب المذكور صـ ٢٥٢ وما بعدها - ط الثالثة - المكتب الإسلامى دمشق بيروت.

التخصص والتكامل ، وهذا هو المنهج الذى جاء به الرسـول الخـاتم ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأعفى المؤمنين به من التخبـط فـى متاهـات التجارب الفاشلة ؛ ودلهم ــ منذ البداية ــ على الطريق الصحيح "**صـراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصـير الأمور**"(١)

إن الرجال لن يستطيعوا القيام بما كلفوا به من أعبـاء إلا إذا كـان هناك في بيوتهم من يرعى لهم أبناءهم ،ومن يحفظ لهم أموالـهم ،ومـن يوفر لهم أسباب الراحة والسعادة .. وهذه -فى نظر الإسلام ــ ومايقرره الواقع ، هى وظيفة المرأة التى تحصل بها على مرضـاة الله ،وعظيـم ثوابه ،وهى لا تقل منزلة عما يقوم به الرجال ،كما ذكرنـا مـن قبـل ، وبأداء كل واحد لوظيفته تتحقق الغاية من اسـتخلاف الله للإنسـان فـى الأرض ، ويتمكن هذا الإنسان ــ ذكرا وأنثى ــ مـن تعمـير أرض الله وفق منهج الله : **(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكـم فـوق بعض درجات ليبلوكم في ما ءاتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفـور رحيم)**.(٢)

فإن ألجأتها ظروف الحياة للخروج من بيتها ، خرجت ملتزمة بمـا شرع الله من غض البصر ، وألا تبدى من زينتها إلا ما ظهر منها ، وإذا

---

(١) الشورى ٤٢ / ٥٣ .

(٢) الأنعام ٦ /١٦٥

تحدثت لاتخضع بالقول حتى لا يطمع فيها من فى قلبـــه مــرض ، وإن كانت ممن تتولى عملا ، فليكن هذا العمل فى إطار توجيهات ديــن الله ، بعيدا عن أماكن الريبة والشبهات ، ليست فيه خلوة بالرجال ، أو اختلاط تنتهك فيه الحرمات ، ويؤدى إلى مالا تحمد عقباه ، وأن يكون هذا العمل أيضا مما يتناسب مع أنوثة المرأة وقدرتها ، وإذا كان فى مجال النســـاء كان أفضل : فى تعليمين ، وتطبيبين ، وما إلى ذلك من الأعمال .

وبذلك يتضـــح لنـــا أن الإســـلام كـــرم المـــرأة ، وصانـــها مـــن الابتذال،وجعلها جوهرة مصونة غالية ، ووفر لها حيـــاة هادئـــة ، ولـــم يكلفهامن الأعمال ما يتنافى مع فطرتها وأنوثتها ، ولم يطالبها بالإنفـــاق على زوج أو ولد ، بل ولا على نفسها إنما جعل ذلك علـــى الرجـــال ، وهى منزلة لم تحظ بها النساء فى هذه الدنيا إلا فى ظل الإسلام ، فـــهل نفقه عن الله وحيه وشرعه ؟ وهل نعود إلى رحاب هذا الديـــن لنلتقـــط أنفاسنا اللاهثة ، بعد أن تعبنا وشقينا بما جربناه من مناهج البشر ، فمـــا جنينا غير الأشواك والدموع والحسرات ؟ وآن لنا أن نعود لربنا تـــائبين مستغفرين ، نلوذ بكتابه ، ونهتدى بهديه ، ونستنير بنـــوره ، فـــهذا هـــو الطريق ، الذى لاطريق لسعادتنا سواه ،فاللهم رد أمتنا لدينك ردا جميدا ، وهيئ لنا من أمرنا رشدا ، والحمد لله رب العـــــــــــالمين.

الفصل الثالث

الأخلاق فى القرآن



الفصل الثالث
الأخلاق في القرآن

١_دعوة القرآن إلى مكارم الأخلاق.

٢-أثر العقيدة في الأخلاق

٣-أثر العبادة في الأخلاق

٤-قيم خلقية في القرآن:

١-التعاون

٢-الوفاء

الفصل الثالث

الأخلاق فى القرآن

الأخلاق في القرآن :؟

ماذا يعني هذا العنوان؟ هـل يعني أننا سنتتبع الأخلاق الحميدة التي دعا إليها القرآن خُلُقًا خُلُقًا نجمع ما في ذلك من الآيات لدراسة كل خلق وفق منهج التفسير الموضوعي في القرآن الكريم ثم نفعل ذلك في كل خلق ذميم نفَّر منه القرآن ورهَّب منه؟إن ذلك يحتاج إلي عدة مجلدات وقد فعل علماؤنا ذلك بحمد الله ،ولذلك فنحن لانفعل هذا إنما سندرس في فصل واحد تأصيلا لأخلاق القرآن وبيانا لما دعا إليه كتاب الله من التحلي بمكارم الأخلاق وكيف أقام هذه الدعوة علي أساس من العقيدة ثم وضع لنا منهجا عمليا فيما شرعه من العبادات ثم نقدم بعض النماذج لأخلاق القرآن .

وقد اخترنا منها: التعاون * والوفاء * لتكون دليلا علي عظمة هذا القرآن في دعوته وتربيته لخير أمة أخرجت للناس.

الأخلاق في القرآن؟؟

ما هي الأخلاق ؟؟

قد نقول : الأخلاق أوضح من أن تُعرَّف، فَمَنْ من الناس : عامتهم فضلا عن خاصتهم يجهل :ماهي الأخلاق،وأقول هذا الذي نراه واضحا ، ضلت فيه الأفهام وزلت الأقدام ،وقال فيه من قال، من المسلمين وغير المسلمين، وخاض فيه الفلاسفة والمتصوفة وقال فيه أصحاب المدرسة

الوضعية والمدرسة المثالية والمدرسة النفعية وغيرهم،ولذلك لابد من تحديد واضح لمفهوم الأخلاق، حتى لا نُدْخِل في الأخلاق كل سلوك بشري (لأن الأصل في السلوك الإنساني أنه يهدف إلي تحقيق مطالب جسدية أو نفسية أو فكرية أو روحية، سواء أكان ذلك لصالح الفرد أو لصالح الجماعة ، وأي سلوك لتحقيق مطلب من هذه المطالب ،إما أن يكون سلوكا خلقيا ،وإما أن يكون سلوكا لاعلاقة له بالأخلاق إيجابا وسلبا)[1]

وإذن فما هي الأخلاق؟

يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته:{الأخلاق جمع خُلُق ،والْخَلْق والخُلُق في الأصل واحد كالشُّرب والشَّرب،والصُّرم والصَّرْم[2]،لكن خُصَّ الْخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر ،وخُصَّ الخُلُق بالقوي والسجايا المدركة بالبصيرة،قال تعالي:{وإنك لعلي خلق عظيم}[3]

فكأن الخلق عند الراغب :اختيار لمجموعة من القوى والسجايا يقوم على البصيرة النافذة التي ترى الخير فترغب فيه وتنظر الي الشر فتنأى عنه .

ويرى ابن منظور في (لسان العرب) أن الخلق { بضم اللام وسكونها }هو : الدين والطبع والسجية ،وحقيقته أنه لصورة الإنسان

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن الميداني-ج١ /ص١٣ ط -دار القلم- دمشق- بيروت ط -الرابعة /١٤١٧هـ-١٩٩٦م

(٢) الصرم :القطع البائن،وعم به بعضهم القطع، أى نوع كان، وصرمه يصرمه صَرما وصُرما فانصرم (انظر لسان العرب : لابن منظور ١٢/٣٣٤)

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني ص ١٥٩ .

الباطنة–وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بـها بمنزلـة الخلـق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولها أوصـاف حسنة وقبيحـة والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكـثر ممـا يتعلـق بأوصاف الصورة الظاهرة }[1].

وهذا معناه أن الخلق ليس انفعالا بما أدت إليه البصيرة فكان خلقـا حسنا ،إنما الخلق عند ابن منظور طبع وسجية ،وقد يكون الطبع حسـنا والسجية طيبة، وقد يكون الطبع قبيحا والسجية شريرة ، وهـذا كمـا أن الصورة الظاهرة منها الجميل والقبيح ،فكذلك الأخلاق ، منـها الجميـل والقبيح

وعند ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: أن الخاء واللام والقـاف أصلان : أحدهما تقدير الشئ والآخر ملامسة الشئ، ومن الأول –وهـو تقدير الشئ: الخُلق وهو السجية، لأن صاحبه قد قدر عليه)[2]

فكأن الخلق سلوك ملازم لصاحبه ،كأنه مفروض عليه ومقدر، فـهو ينبعث في تصرفاته الحسنة والقبيحة من تلقاء نفسه ، لما تَعَّودَ عليه مـن هذا السلوك، حتي أضحي سجية له وطبعا .

وهذا المعنى الذى ذكره ابن منظور وابن فارس نراه عند الإمـام الغزالى فى عبارة واضحة حيث يقول فى (الإحياء) : الخَلْق والخُلُـق : عبارتان مستعملتان معا ، يقال ، فلان حسن الخَلْق والخُلُق، أى حسـن الظاهر والباطن، إلى أ ن يقول :فالخُلُق : عبارة عن هيئة فـى النفـس

---

(١) لسان العرب لابن منظور م/١٠/٨٦،٨٧-دار صادر بيروت .

(٢) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس ٢/٢١٣،٢١٤ ط الثالثة ١٤٠٢هـ-١٩٨١م-مكتبة الخانجى بمصر

راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة : عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة –التى هى المصدر–خلقا سيئا)

وهناك إذن أمور أربعة: أحدها : فعل الجميل و القبيح ، والثانى:القدرة عليهما ، والثالث : المعرفة بهما ، والرابع : الهيئة الراسخة فى النفس ،والتى تدعو صاحبها إلى أن يميل إلى أحد الجانبين فى يسر وسهولة ،وهذه الهيئة هى الخلق الذى قد يكون حسنا أو غير حسن ، أما مجرد فعل الشئ أو القدرة عليه ،أومعرفته فلا يعد من الأخلاق، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أولرياء، كما أن القدرة على فعل الحسن وغيره لاتجعل الفعل من الأخلاق، لأن القدرة على الفعل – إيجابا وسلبا – واحدة ، فكل إنسان خلق بالفطرة قادرا على الإعطاء والإمساك ، وذلك لايوجب خلق البخل ولا خلق السخاء، كما أن مجرد المعرفة لاتكفى، فإنها تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد،فالخُلُق –إذن –: عبارةعن هيئة النفس وصورتها الباطنة)(١)

بهذا تتميز الأخلاق عن غيرها من ألوان السلوك البشرى ،ويتضح لنا أن الأخلاق التى سنتحدث عنها هى هذه السجايا المستقرة فى النفس التى تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر ، وحديثنا عن الوجه المشرق من هذه السجايا ، وهو الأخلاق الجميلة ، والتى سندرسها من خلال النقاط

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين : للإمام الغزالى ٣/٥٢

الأربعة المذكورة في صدر هذا المبحث وأولها :

{ دعوة القرآن إلى مكارم الأخلاق }

جاء دين الإسلام بعد أن خبا ضوء الرسالات، وضاعت معالم الطريق، فكان من رحمة الله بخلقه أن أرسل إليهم رسولا هو محمد – صلى الله عليه وسلم– وجعله خاتم الرسل ، وأنزل عليه كتابا هو القرآن الكريم ،وجعل هذا القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فختم به الكتب ، ولهذا جاء رسول الله – صلى اله عليه وسلم –وما معه من الكتاب يرسي للإنسان دعائم السعادة ، ويرتاد به الطريق إلى الله، فعرفه من هو إلهه الحق ،ودله على طريق عبادته لهذا الإ له ،وأرشده إلى جملة من الأخلاق الكريمة التي تنشر الأمن والسكينة في الأفراد والمجتمعات، ولا حياة لأمة لاتتخلق بتلك الأخلاق التي جاء بها دين الله :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولذلك اعتنى القرآن بهذا الجانب عناية فائقة ،وجاءت السنة المشرفة فلم تترك خلقا كريما إلا وحثت عليه ورغبت فيه ، ولم تدَعْ خلقا ذميما إلا نفرت منه ورهبت من الاتصاف به.

وأخلاق القرآن لا تقتصر على ما نراه من كلمة (خلق)والتي لم ترد بمعنى الصورة المشرقة للقلب المشرق بنور الحق، الملتزم بكل خلق حميد،إلا وصفا لمن جمع مكارم الأخلاق واستحق هذه الشهادة الربانية من الله عز وجل، ذلكم هو محمد–صلى الله عليه وسلم–فيما قال سبحانه **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**[1]

---

(١) القلم ٦٨/٤

وأما ماجاء بعد ذلك من هذه المادة -مادة" الخاء واللام والقاف" فى القرآن فإنما جاءبمعنى النصيب كما فى قوله تعالى فى موضعين من البقرة ١-{وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ}
٢-{فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ }(١)

وكما فى قوله فى التوبة : {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا.. }(٢)

يقول الفخر الرازى : " الخلاق :النصيب ، وهو ماخُلق للإنسان، أى قدر له من خير ، كما قيل له: قسْم ، لأنه قسم ونصيب، لأنه نُصِبَ أى ثبت.."(٣)

أو بمعنى العادة ،وذلك فىقوله تعالى عن قوم هود : {قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين، إن هذا إلا خلق الأولين، وما نحن بمعذبين }(٤) أى هذه عادة من سبقنا ، يبنون ويبطشون ويمضون حياتهم فى الدنيا ويموتون ولا يرجعون ، فنحن نقتدى بهم .

فأخلاق القرآن تحتاج إلى أن ننقب فى آياته لامن باب مادة : الخاء،واللام،والقاف (خلق) وإنما من باب ماتعنيه الأخلاق الحميدة من كل وصف جميل يتصف به الإنسان، وسوف نستعين فى ذلك بالبحث فى

---

(١) البقرة/٢ / ١٠٢، ٢٠٠
(٢) التوبة ٩ / ٦٩
(٣) تفسير الفخر الرازي : مفاتيح الغيب م/ ٨ جـ ١٦ ص ١٣١
(٤) الشعراء ٢٦ /١٣٦ - ١٣٨

السنة المطهرة ، فهي البيان لكتاب الله كما قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}(١)

وحينذاك سوف نرى بابا واسعا جمع فيه العلماء الكثير من الأخلاق الحميدة،وذكروا ما جاء فيها من كتاب الله وسنة رسوله _ صلى الله عليه وسلم _

وهذه كتب التفسير والحديث موسوعات مليئة بهذا الفيض ، وهذه مؤلفات علمائنا فى الدراسات الإسلامية تفيض بيانا لعظمة أخلاق هذا الدين، ولايتسع المقام لذكر بعض هذه المؤلفات، قديما وحديثا،واقرأ في ذلك : الترغيب والترهيب :للحافظ المنذري،ورياض الصالحين:للإمام النووي،وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي،إلي غير ذلك من مؤلفات علمائنا الأوائل ،واقرأ للشيخ محمد الغزالي :خلق المسلم، وللعقاد: الفلسفة القرآنية ، وللدكتور أحمد الشرباصي :"موسوعة أخلاق القرآن " وفي كتاب "منهج القرآن في تربية المجتمع " :الباب الثاني :القرآن والتربية الأخلاقية ،وكتاب :المسلم في عالم اليوم :بحوث في الأخوة والموالاة وبناء المجتمع المسلم: (جزءين)وكتاب الوصايا العشر : دراسة موضوعية لآيات من أواخر سورة الأنعام ،وغير ذلك مما كتبته ،ذكرت الكثير من هذه الأخلاق،وبقراءة بعض هذه الكتب، في القديم أو الحديث يتضح لنا أن مكارم الأخلاق هدف مقصود من أهداف القرآن الكريم، وما ذلك إلا لأن القرآن جاء من الله لإسعاد بني الإنسان، ولا سبيل لذلك إلا بإيجاد الإنسان الصالح،الذى تحرر من كل عبودية إلا عبوديته لخالقه

---

(١) النحل ١٦/٤٤

ورازقه وإليه: خالق السموات والأرض، الإنسان الصالح الذى أشرق فؤاده وقلبه ووجدانه بنور كتاب الله ،الإنسان الصالح الذى يعيش مع نفسه ومع الآخرين :ميتنيا بيدى الله ،يفيض برا وعدلا وحياء وخيرا وسلاما وصدقا وعفة، وما إلي ذلك من أخلاق كريمة جاء بها كتاب الله وجلتها بيانا قوليا وعمليا أقوال وأفعال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وحسبك أن تقرأ بعض ماجاء في القرآن من الوصايا الجامعة والتوجيهات الإلهية لمحاسن الأخلاق، كالوصايا العشر في سورة الأنعام: { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١)وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢)وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[1]

وكوصايا سورة الإسراء ، وفيها يقول الله تعالي : {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا(٢٢)وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا(٢٣)وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا(٢٤)رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي

(١) الأنعام ٦/١٥١-١٥٣.

نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} إلي آخر هذه الوصايا التي تختم بقوله عز وجل " {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}[1]

ومثل ذلك من الدعوة للأخلاق الكريمة وصايا لقمان وفيها يقول رب العزة : {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢)وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣)وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤)وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥)يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(١٦)يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧)وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(١٨)وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[2]

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي طهرت القلوب ،وزكت النفوس ، وحققت الهدف من بعثة رسول الله– صلي الله عليه وسلم – بقول ربنا جل وعلا : {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو

---

(١) الإسراء ١٧/٢٢_٣٩

(٢) لقمان ٣١/١٢-١٩

عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}(١)

إنها النعمةالكبرى، والمنة العظمي علي أهل الإيمان : { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}(٢)

ثانيًا:أثر العقيدة في الأخلاق:-

ماذا نقصد بالعقيدة حين نتحدث عن الأخلاق في القرآن؟ ونحن نرصد ماجاء في كتاب الله وسنة رسوله *صلي الله عليه وسلم* لنري أثر العقيدة في الأخلاق ؟ هل نجد أثرا في آيات القرآن الكريم أو في السنة المشرفة يوحي بأن العقيدة هي ماأشربه القلب وانعقد عليه وتغلغل في كيان الإنسان حين يقال بأن عقيدة فلان كذا ؟بل إن جاز لنا أن نتوسع – بعض الشئ – في هذا الباب لقلنا :في أي شئ وردت كلمة العقيدة بمعناها الشائع المعروف ؟ في كتب اللغة ؟ في كتب العلوم ؟ في كتب التعريفات ؟ في غير ذلك من مؤلفات العلماء ؟ فلنستعرض شيئا من ذلك علي سبيل الإختصار لنحدد : ماذا نقصد بالعقيدة حتي نعرف أثرها في غرس الأخلاق الكريمة ؟؟ في كتاب الله : وردت مادة (العين ،والقاف ،والدال) في سبعة مواضع من القرآن الكريم ، ليس من بينها ما يشير إلي الاعتقاد في الله ربا ،وما إلي ذلك من هذه المعاني ، ففي سورة البقرة قوله تعالي :{ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ

---

(١) الجمعة ٦٣ /٢

(٢) آل عمران ٣ / ١٦٤

أَجَلَهُ} وقوله { إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}(١) فعقدة النكاح في الآيتين هي عقد الزواج بالإيجاب والقبول . وفي النساء:{ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ }(٢)فهذا عقد موثق بالأيمان، يقوم مقام القرابة في استحقاق الميراث ،وقد كان هذا قبل نزول آيات المواريث كما قال بذلك ابن عباس وغيره : كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر فأنزل الله : {وأولو الأرحام بعضهم أولي ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا } يقول ابن عباس : إلا أن توصوا لهم بوصية فهي لهم جائزة من ثلث المال(٣).وفي سورة المائدة:أول آية فيها { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} والعقود هنا : العهود وهي كما يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : ماأحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله ولا تغدروا ولا تنكثوا .(٤) وقال الحسن : أوفوا بالعقود :يعني بذلك عقود الدِّين وهي ماعقده المرء علي نفسه من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق وغير ذلك من الأمورماكان ذلك غيرخارج عن الشريعة ،وكذلك ماعقده علي نفسه لله من الطاعات كالحج والصيام والإعتكاف والقيام والنذر وما أشبه ذلك من طاعات ملة الإسلام .(٥) وفي السورة أيضا قوله تعالي : {لَا

---

(١) البقرة ٢ /٢٣٥ / ٢٣٧
(٢) النساء -٤ /٣٣
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤٩٠/١
(٤) تفسير ابن كثير ٣/٢
(٥) تفسير القرطبي /ج٦ ص ٣٢

يُؤَاخِذُكُمُ اللَّــهُ بِــاللَّغْوِ فِــي أَيْمَــانِكُمْ وَلَكِــنْ يُؤَاخِذُكُــمْ بِمَــا عَقَّدْتُــمُ الأَيْمَانَ}[1] ومعناه كما قال مجاهد : تعمدتم :أي قصدتم .[2] وليس لذلك من صلة بموضوع العقيدة ،وفي سورة "طه" ماذكره الله عن موسى ـ عليه السلام ـ : {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي(٢٥)وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي(٢٦)وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يفقهوا قولي }[3] وهذه العقدة هي احتباس لسانه عن الكلام بطلاقة ، إما أنه كان خِلْقَةً منذ طفولته ، أو بسبب ما كان وهو في قصر فرعون ، إذ أخذ بلحية فرعون ونتفها ، فهَمَّ فرعون بقتله وقال: هذا هو الذي يزول ملكي علي يده ، فقالت آسية :إنه صبي لا يعقل ، وعلامته أن تقرب منه التمرة والجمرة ، فقربا إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه ، فتركت أثرها في يده ولسانه .[4] بقي الموضع الأخير ، وهو قوله تعالي في سورة الفلق : {ومن شر النفاثات في العقد}وهن الساحرات ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها . وفي الحديث : من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك[5] .

<u>وفي السنة المشرفة :</u> يستوقفنا حديث الإمام البخارى (١٩٤-٢٥٦هـ) في كتاب الطلاق : " قال الزهري فيمن قال : " إن لم أفعل كذا أو كذا فامرأتي طالق ثلاثا ؟ يسأل عما قال <u>وعقد عليه قلبه حين</u>

---

(١) المائدة ٥ /٨٩

(٢) تفسير القرطبي /ج٦ ص ٢٦٧

(٣) سورة طه ٢٠ /٢٥- ٢٧

(٤) انظر في ذلك : كتب التفسير عند تفسيرها لهذه الآية

(٥) رواه النسائي عن أبي هريرة

حلف بتلك اليمين، فإن سمى أجلا أراده وعقد عليه قلبه حين حلف، جعل ذلك في دينه وأمانته .كما نقرأ في مقدمة صحيح مسلم (ت ٢٠٤ هـ)قوله : " لما تخوفنا من شرور العواقب واغترار الجهلة بمحدثات الأمور، وإسراعهم إلى اعتقاد خطأ المخطئين، والأقوال الساقطة عند العلماء، رأينا الكشف عن فساد قوله ورد مقالته بقدر ما يليق بها من الرد.

وفي سنن الدارمي : (في المقدمة) : عن أبان بن عثمان عن زيد بن ثابت أن رسول الله – صلي الله عليه وسلم –قال : "لايعتقد قلب مسلم علي ثلاث خصال إلا دخل الجنة ؛ قال : قلت : ماهي ؟ قال إخلاص العمل والنصيحة لولاة الأمر ، ولزوم الجماعة ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم "(١) ففي هذه النصوص لانلمح حديثا عن العقيدة بمعني الإيمان بالله ربا ، إنما أتت بمعني الاعتقاد في قول يقوله صاحبه ، كما جاء في قول الإمام الزهري عند البخاري، أو قول لدى الآخرين ، كما في عبارة الإمام مسلم ، أو جملة من السلوك كما في حديث الدارمي وغيره ، وما عدا ذلك مما جاء في هذه المادة في المعجم المفهرس لألفاظ **الحديث بكل تصاريفها، لا نجد فيها أثرًا لما عرف فيما بعد بعلم العقيدة ، وما تعنيه "العقيدة " في مصطلح علماء العقيدة .**

---

(١) سنن الدارمي _ المقدمة –باب الإقتداء بالعلماء _ حديث ص ٨٧ تحقيق فؤاد أحمد زمرلي ،وخالد السبع العلمي _ دار الريان للتراث _ القاهرة ودار الكتاب العربي بيروت ط (١) ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م يقول المحققان : الحديث رواه أحمد ٥ /١٨٣ ،وابن حبان رقم ٧٢ ، ٧٣ موارد الظمآن ، وابن عبد البر فى الجامع ٣٨/١ ، ٣٩ وهو حديث صحيح .

أما كتب اللـــــــــــــــــــــــــغة :

فلم تذكر الكتب القديمة هذه الكلمـــة بمعنـــي الاعتقـــاد القلبـــي الا لماما،ومن ذلك ما جاء في لسان العرب لابن منظور (ت ٦٣٠ هـ)من قوله :ويقال للرجل إذا سكن غضبه : قد تحللـــت عُقَـدُه، واعتقـد كـذا بقلبه،وعن ابن منظور أخذ الرازي المتوفي بعد سنة ٦٦٠ هـ إذ يقـــول في مختار الصحاح :اعتقد كذا بقلبه "

وجاء في القاموس المحيط : " البصيرة : عقيدة القلب " وقال ابـــن فارس في معجم مقاييس اللغة :العَيْن ،والقاف ،والدال : أصل واحد يـدل علي شدٍّ وشِدَة وثوق ،وإليه ترجع فروع الباب كلها ،ومن ذلك :عقد قلبـه علـي كـذا فـلا ينـزع منــه ،واعتقـد الشـيءُ :صلُـب ، واعتقـد الإخـــــــاءُ:ثبت . . "(١)

وقد توسعت الكتب اللغوية الحديثة في بيان هذا المعني: ومن ذلـــك ما جاء في المعجم الوسيط : عقد قلبه على الشئ لزمه ، واعتقـد فـلان الأمر : صدَّقه ، وعقد عليه قلبه وضميره ، والعقيدة : الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، وفى الدين : ما يقصد به الاعتقـــاد دون العمـــل كعقيدة وجود الله ، وبعثة الرسل ؛وجمعه عقائد) (٢)

وجاءفى كتاب البادى إلى لغة العرب : " العقيدة : ما يؤمـــن بـــه الإنسان فى قلبه دون العمل من الناحية الدينية ؛ كعقيدة التوحيـــد ؛ وقـد تكون فى ناحية غير دينية مثل عقيدة الحياد فـــى العلاقـــات الدوليـــة ؛ والاعتقاد : الرأى الراسخ فى النفس كاليقين ، وقد يكـــون ظنـــــا ،

---

(١) معجم مقاييس اللغة :لابن فارس ٤ /٨٦

(٢) انظر المعجم الوسيط ٢ /٦١٤ ط الثانية

ويكون فى الدين إيمانا ، وفى غيره ظنا ، وإذا قيل : أنا أعتقد أن الحكم خاطئ ، فالمعنى : أنا أراه أو أنا أظنه كذلك "[1]

<u>كتب التعريفات</u> :

وفيمن ألفوا فى أسماء العلوم كأبجد العلوم للتوجى (ت١٣٠٧هـ)وكشف الظنون لحاجى خليفة (١٠٦٧هـ)،الفهرست لابن النديم ،نجدهم يذكرون علم الكلام ولايذكرون علم العقيدة ، مع أن كتب التعريفات قد ذكرت ذلك بوضوح ،ومن ذلك ما ذكره على بن محمدبن على الجرجانى (ت٨١٦هـ)فى كتاب التعريفات ،إذ يقول : (العقائد: ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل)ومن بعده الشيخ زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ)فى كتابه : (الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة)يقول:الاعتقاد:العلم الجازم القابل للتغير،وهوصحيح إن طابق الواقع <u>كاعتقاد المكلف</u> سُنّيةَ الضحى وإلافاسد كاعتقاد الفلسفى قِدَم العالَم.وقال المناوى (١٠٣١هـ) فى(التوقيف على مهمات التعريف) يقول الاعتقاد:عقد القلب على الشيء وإثباته فى نفسه .ثم توالت المؤلفات تحمل هذا المعنى ومن ذلك: (لمعة الاعتقاد لابن قدامة،والعقيدة الطحاوية للإمام الطحاوى ،واسم الكتاب الأصلى "بيان السنة والجماعة"والعقائد العضدية:لعضد الدين الإيجى ولأبى بكر الباقلانى:الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، وللرازى :اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ،والعقائد النسفية ،وشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ولمع الأدلة فى قواعد عقائد أهل السنة والجماعة للجوينى والعقيدة النظامية

---

(١) البادي إلى لغة العرب : حسن سعيد الكرمى ج ٣ ص ٢٤٢ ط ١ – ١٤١٢ هـ /١٩٩٢ م – دار لبنان للطباعة والنشر .

للجوينى.ولابن رشد :مناهج الأدلة فى عقائد الملة. وللغزالى:الإقتصاد فى الاعتقاد،واعتقاد أهل السنة لـ(اللالكائى)والاعتقاد للبيهقى .واعتقاد أئمة الحديث :للاسماعيلى ، وشرح العقائد لعبدالرحمن الجزيرى ،والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد زيهر، والاسلام عقيدة وشريعة :للشيخ محمود شلتوت وعقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر إلى غير ذلك من الكتب ؛حتى لقد أنشئت أقسام علمية متخصصة فى الجامعات عرفت بأقسام العقيدة ؛ ولأساتذة هذه الأقسام مؤلفات وبحوث ممتعة فى هذا الجانب المشرق من الإسلام ؛لايتسع المقام لذكرها وذكرهم.

وإذا كانت كلمة العقيدة فى القرآن والسنة لم تستعمل فيما انعقد عليه القلب من رأى رآه صاحبه :صحيحاأوغير صحيح،حقا أو باطلا،فإن كلمة الإيمان التى وردت فى القرآن والسنة قد عبرت عن ذلك أصدق تعبير،وإن كانت استعمالاتها فى جانب الحق والخير وجانب الإيمان بالله الواحد الأحد هو الأكثر والأعم،ولكننا مع ذلك نرى الجانب الآخر وهو الإيمان بالباطل والإيمان بالطاغوت ،كما قال تعالى فى "العنكبوت":"والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون" وقال: "أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ".(1) وقال فى النساء . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (2)"وقال فى بنى إسرائيل:(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُون

---

1) العنكبوت٢٩/٥٢،٦٧
2) النساء ٤/٥١

أنبياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(١)

ويبقى بعد ذلك الإيمان الصحيح الذى من أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب والذى جاء به الإسلام عقيدة راسخة الجذور باسقة الأغصان ،أمضى الوحى الإلهى فى غرس شجرتها المباركة ثلاثة عشر عاما فى مكة وظل يرويها إلى أخر قطرة من غيث هذا الوحى العظيم **"ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ،تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون."**(٢)وتعهدها الرسول المبارك صلى الله عليه وسلم بتوجيهاته سلوكا وعملا حتى استقرت أصولها فى النفس المؤمنة:إيمانا بالله ربا واحدا وإلها متصفا بصفات الجلال والكمال،وإيمانا صادقا بأن لله ملائكة كراما لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ،وأنه سبحانه لم يترك خلقه سدى ،إنما أنزل إليهم الكتب والتى كان خاتمها القرآن الكريم ،وأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين وختمهم بإمامهم:محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ،وأن الله بحكمته جعل حياة الناس مرحلتين : الأولي هنا علي ظهر هذه الأرض يعمرونها وفق منهجه ،وما أنزل من وحي علي رسله ، والثانية هنالك بعد الموت حيث يبعثهم الله ويحاسبهم : **"فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(٧)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ."**(٣)

---

(١) البقرة٢/٩١

(٢) إبراهيم ١٤/٢٤، ٢٥

(٣) الزلزلة ٩٩/٧،٨

وهذا هو اليوم الآخر بكل ما فيه ومآله من مقدمات الاحتضار وقبض الروح وما يكون فى القبر من سؤال الملكين وما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب،ثم ما يكون بعد القبرمن بعث وحشر وميزان وصحف وحساب وسؤال وصراط وجنة ونار ،وما إلى ذلك مما جاء به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما أن من مقتضيات هذا الإيمان ومكوناته أن يؤمن بأن لهذا الكون نواميس وأنه لا يسير خبط عشواء إنما هي الأسباب والمسببات،وأن ذلك كله من إيجاد العليم الحكيم ، حتى تنتظم حياة الناس وفق خطط واضحة وأسباب معلومة ،وأن ما وراء الأسباب والنواميس غيب لايعلمه إلا الله ، فعلى المؤمن أن يجتهد فى معرفة الأسباب وأن يأخذ بها بقدر طاقته البشرية ، فإن ترتب على ذلك خير له حمد الله وشكره ،وإن كانت الأخرى صبر واحتسب وهو على ثقة أن كل ماحدث له فيه الخير وإن بدا في ظاهره على غير مايرغب : "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"(١) وبهذه العقيدة النقية الطاهرة يكون الإنسان فى عداد الأحياء وإلا فهو ميت وإن كان يأكل ويشرب ويتحرك، ولذلك يقول الله تعالى : (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(٢) إنه بدون العقيدة جسد بلا روح ؛ ولذلك سمى الله كتابه

---

(١) البقرة ٢/٢١٦

(٢) الأنعام ٦/١٢٢

روحا فقال (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٢)صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)(١)

ولذلك رأينا عناية القرآن بأمر هذه العقيدة حتى إننا لو أحصينا كلمة الإيمان فى القرآن وما اشتق منها،لوجدنا أنها تصل إلى أكثر من ثمانمائة مرة ؛فما من أمر ولا نهى ولا حركة ولاسكون إلاوالإيمان قرينه ، بل هو لحمته وسداه ،وعماده وأساسه ، وكثيرا ما نرى القرآن قبل أن يأمر بأمر أو ينهى عن شئ ينادى المؤمنين بصفة الإيمان فيقول: (**يا أيها الذين آمنوا**) ترى ذلك فى ثمانية وعشرين موضعا ، أو يقول – محذرا ومخوفا – فى نهاية ما يأمر به أو ينهى عنه : (**إن كنتم مؤمنين**) فىسبعة عشر موضعا .

والأخلاق الكريمة فىجملة مايأتى به دين الله مظهر لصدق الإيمان؛ فالإيمان هو الذى يدعو صاحبه إلى الإخلاص لله فيما يقول ويفعل لايبتغى من أحد جزاء ولا شكورا ،إنما يريد الله والدار الآخرة ، فلنلتقط من جواهر القرآن فى باب الأخلاق بعض ما يبين متانة الارتباط بين الأخلاق والعقيدة :

---

(١) الشورى ٥٣،٥٢/٤٠

وأول ما نلتقطه : خلق العمل الصالح : والعمل الصالح يعني : كل ما جاء به هذا الدين ، ومن ذلك الخلق الحسن . إذ نرى القرآن ــ ذكر العمل الصالح ذكر معه الإيمان بالله ،نرى ذلك في قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)(١) وفي قوله : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)(٢)

وفي استعمال القرآن لكلمة (الصالحات) – وقد وردت اثنتين وستين مرة – منها تسع وخمسون نراها تقترن بالإيمان : يقول تعالى : (وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . الآية) (٣) ويقول : (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا)(٤)

وفي التخلق بالكرم والعطاء : نجد قول الله تعالى : **(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ.. الآية ..) (٥)** وقوله : **(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**

---

(١) القصص ٢٨ / ٦٧
(٢) القصص ٢٨ / ٨٠
(٣) البقرة ٢ / ٢٥
(٤) الكهف ١٨ / ٣٠
(٥) البقرة ٢ / ٢٥٤

وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـــهَ غَنِـــيٌّ حَمِيـدٌ}(١)

ويقول تعالى : { **ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}**(٢)

وفي الإخلاص في الإنفاق والتنفير من الرياء : نقرأ قول الله تعالي: **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَـــهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.. الآيات }**(٣) ونقرأ قولــه . { **وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْـــآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا}**(٤)

وفي حسن الأدب مع الله ورسوله : **نتلو قول الله تعالي في ســورة** الحجرات :{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١)يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَـــوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُـــمْ لِبَعْـضٍ أَنْ تَحْبَـطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} **الآية ومابعدها** (٥)

وفي احترام حقوق الآخرين ، ومراعاة حقوقهم : نـرى قـول الله

---

(١) البقرة٢ /٢٦٧

(٢) الحديد٥٧ / ٧

(٣) البقرة ٢ /٢٦٤ .

(٤) النساء ٤ /٣٨

(٥) الحجرات ٤٩ / ٢،١

تعالى : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ } الآية وما بعدها (١).

وفي التخلق بخلق الصبر : نقرأ قول الله تعالى : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (٢) وقوله:" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" }(٣).

إلي غير ذلك من الأخلاق الجميلة والصفات الحميدة التى جاء بها كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم - وكلها مؤسسة على الإيمان بالله ،فهو الباعث الحق لكل خلق كريم؛ ومن يقرأ ماذكرناه من وصايا "الأنعام" ووصايا " الإسراء " و " لقمان " يرى أن الدعوة إلى توحيد الله وعبوديته تأتى فى مقدمة هذه الوصايا، مما يدل على مدى الارتباط الوثيق بين العقيدة والأخلاق .

---

(١) الحجرات ٤٩ /١١، ١٢
(٢) البقرة ٢ /١٥٣
(٣) آل عمران ٣/ ٢٠٠

ثالثًا: أثـــــــــــــر العبادة فى الأخــــــلاق :

خلق الله الخلق لعبادته فقال : {وَمَا خَلَقْـــتُ الْجِـنَّ وَالْــإِنْسَ إِلَّــا لِيَعْبُدُونِ}(١) وأرسل رسله وأنزل كتبه لتحقيق هذه الغاية قال تعـــالى : {وما أرسلنا من قبلك من رســول إلانوحــى إليــه أنــه لاإلــه إلاأنــا فاعبدون}(٢) وقال : { ولقد بعثنا فى كل أمـــة رســولا أن اعبــدوا الله واجتنبوا الطاغوت ؛ فمنهم من هدى الله ؛ ومنــــهم مـــن حقــت عليــه الضلالة.. } (٣)

فماذا تعنى هذه العبادة التى خلق الله الخلق لأجلها ؟؟ ومـــن أجلـــها كان هذا الموكب المهيب من المرسلين وما معهم من وحـــى الله؛ لدعــوة الناس وتعبيدهم لله رب العالمين ؟ وما صلة ذلك بالأخلاق الكريمة ؟

العبادة :هى الانقياد المطلق لله وحده لا شريك له ، والتعلق بـــه ، والحب له ، والطاعة له مع التذلل والخضوع ، إنها إحساس كل ذرة فـــى كيان الإنسان بنعمة الله وفضله ؛ مما يترتب عليه تصديق رسل الله فيمـــا بلغوا عن ربهم ، إيمانا بهم ، وبما جاؤا بـــه ، والتزامـــا فـــى الســـلوك بمنهجهم وطريقهم ، فلا تبقى للمؤمن بذلك حركة ولا سكون ؛ ولا قـــول ولا فعل إلا وهو للإله المعبود والرب المقصود {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُــكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢)لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَـــا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (٤)

---

(١) الذاريات ٥١ /٥٦
(٢) الأنبياء ٢١ /٢٥
(٣) النحل ١٦ /٣٦
(٤) الأنعام ٦/ ١٦٢، ١٦٣

والإخلاص جزء من حركة الإنسان فى الحياة ، ما تعلق منها بالجانب السلبى كالصبر ونحوه؛ أو بالجانب الإيجابى فى معاملة الإنسان لأخيه الإنسان ، وقد رسم الإسلام خطة ربانية لهذه الأخلاق فبدت مشرقة وضاءة تحقق السعادة للناس فى كل زمان ومكان ، فبناها على الإيمان بالله ؛فلا غاية للمسلم فى صبره وعفوه وإحسانه وسائر ما يتخلق به من الأخلاق الكريمة إلا رضا مولاه ، وهذا فارق مهم بين أخلاق الإسلام وغيرها ،فإن غير المسلم لايرجو بحسن معاملته لغيره الله والدار الآخرة إنما يريد حظا من حظوظ الدنيا ؛ وشهوة من شهواتها فيرى فى صدقه وأمانته وحسن خلقه مايحقق له هذه الغاية ، لكن المسلم يطلب أولا بأخلاقه ثواب ربه ويتحقق له – ثانيا – مايطلبه طلاب الدنيا من حسن السمعة والتمكين فى الأرض ، واكتساب محبة الآخرين؛وتحقيق كثير من المنافع بهذه الأخلاق فى هذه الأرض .

ومع هذا الأساس الإيماني الذي تبنى عليه الأخلاق شرع الإسلام جملة من الشعائر التعبدية؛تحقق جملة من الأهداف الإسلامية كزيادة الإيمان وتقويته وإمداده بزاد متواصل ليبقى نابضا حيا يضبط خطا الإنسان على طريق ربه،فلا تزل به القدم ولا ينحرف عن الصراط المستقيم .

فهذه الصلاة :

من اسمها ندرك أنها صلة بين العبد وربه ؛ ومعراج يسمو عليه العبد فى اليوم خمس مرات فى صلاة الفرائض ، وله بعد ذلك ما يشاء

كلما اشتاق لمناجاة مولاه أو حَزَبَه أمر من أمور الحياة ما دام ذلك في غير الأوقات التي لاتجوز فيها الصلاة ، ولنتأمل حال هذا العبد الذي توثقت صلته بربه عبر رحلات يومية ولقاءات ربانية ، أولها توقظه والأخيرة يودع بها يومه ، وبينهما لقاءات لايفصل بينها سوى سُوَيْعَات، كيف يكون حال هذا العبد في خوفه من ربه وخشيته له ، ومراقبته في كل حركة وسكون وقول وفعل ؟؟ إنه لايخون ولا يغدر ولا يفجر ولا يعتدى على أحد، ولا يفرط في واجب ، ولايقع في معصية إلا أن تغلبه نفسه الأمارة بالسوء ،وشيطانه اللعين وهواه ، ولكنه سريع الرجوع لربه بالتوبة والإنابة والضراعة يغسل حوبته بدموعه ، ويبقى حذرا من ذنوبه وهو كما قال الله تعالي { **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٣٥)أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**}(١) وكما قال تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**}(٢)

ولهذا رأينا أن كلمة "الصلاة " في القرآن تذكر في ثمان وتسعين موضعا ، وفي كل موضع معلم من معالم الحق ؛ودليل على ما لها من أثر محمود في البناء الأخلاقي ، فإذا وجدت كانت محاسن الأخلاق ، وإلا كان الانحراف عن كل خلق كريم ، وهؤلاء هم

---

(١) آل عمران ٣ / ١٣٥ ، ١٣٦
(٢) الأعراف ٧ /٢٠١

الكافرون والمنافقون أودى بهم تركهم للصلاة فخابوا في الدنيا وخسروا في الآخرة ، يقول تعالى بعد أن ذكر أصحاب الوجوه الناضرة من المؤمنين ، والوجوه الباسرة من الخاسرين ، وسوق الناس لرب العالمين وما يكون فيه المجرمون من هلاك ؛ يقول سبحانه { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى(٣١)وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى(٣٢)ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى }[(١)] ويقول في سورة الماعون ، مبينا ما يكون عليه تاركو الصلاة من ضعف نفسي وبخل وشح { فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ(٤)الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ(٥)الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ(٦)وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [(٢)] وهناك في الآخرة يسأل أصحاب اليمين أهل النار – فيما ذكره الله تعالى : { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢)قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}[(٣)]

ولا يعصم من الشهوات والوقوع فيها إلا الصلاة ولذلك قال تعالى في سورة مريم : {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(٥٩)إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا} [(٤)] وقد جاء في هذه السورة – سورة مريم – ما كان من أمر الأنبياء عليهم السلام ؛ وكيف كانت عنايتهم بالصلاة ، فهذا زكريا – عليه السلام – يقول الله فيه : { فَخَرَجَ

---

(١) القيامة ٧٥ /٣١ – ٣٣

(٢) الماعون ١٠٧ /٤ –٧

(٣) المدثر ٧٤ / ٤٢ – ٤٧

(٤) مريم ١٩/ ٥٩ ، ٦٠

عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}[1] ويقول: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ..}[2] وهذا عيسى يقول الله علي لسانه : { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(٣٠)وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(٣١)وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}[3] وإسماعيل عليه السلام –كما قال تعالي :

{ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا}[4]

وفى سورة إبراهيم نقرأ قول الله فى إبراهيم – عليه السلام – : {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } إلى أن يقول :{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ }[5]

وهذا موسى – عليه السلام – يقول لقومه : { وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}[6]

وإقامة الصلاة من جملة العهد الذى أخذه الله على قوم موسى ، قال

---

(١) مريم ١٩ / ١١
(٢) آل عمران ٣ /٣٩
(٣) مريم ١٩ /٣٠ –٣٢
(٤) مريم ١٩ / ٥٥
(٥) ابراهيم ١٤/ ٣٧ ، ٤٠
(٦) يونس ١٠ /٨٧

تعالى : {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّـــهَ وَبِـــالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُـــوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ.. }[1]

وهكذا أنبياء الله ورسله وأتباعهم، كانت الصلاة لهم شعارا ودثـارا، وبابا ولجوا منه لمناجاة ربهم ، وأعلنوا عبوديتهم وطاعتـــهم ؛ فكـــانت الصلاة في وجوههم نورا ؛ وفي مشاعرهم حبا، وفي ســلوكهم اعتـــدالا منضبطا على وقع وحي ربهم ، فكانوا للناس رحمة وعونا ، وفي أنفسهم تزكية وطهرا ، وسعادة ونبلا ، ورفعـــة فـــي المشـــاعر والأحاسـيس، والأفعال والأقوال ، وجاءت الأمة الخاتمة، ونبيها الخاتم محمد – صلـــى الله عليه وسلم – فكان لها وبها تمام هذه المعاني ؛وتمثُّل هذه المبـــادئ ، وتأصيل هذه القيم ، وتثبيت أركان الأخلاق الحميدة ، ولذلك قال رســول الله – صلى الله عليه وسلم – : { **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** }[2]

وقال : { إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجـــل بنـــى بيتـــا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين }[3]

ولهذا جاء القرآن بالصلاة بناء متكاملا ؛ ومنهجا ربانيا علـــى درب

---

(1) البقرة ٢ /٨٣

(2) رواه الحاكم في المستدرك .

(3) رواه البخاري في "الأنبيـــــــاء "، باب : " خاتم النبيين –صلى الله عليه وسلم، ومسلم: في " الفضائل "، باب : ذكر كونه – صلى الله عليه وسلم –خاتم النبييـــــن .

أنبياء الله ورسله ، فاعتنى بها عناية خاصة فلم يفرضها ربنا في الأرض؛ إنما دعا رسوله إلى حضرته ؛ وأرسل إليه ملك الوحي : جبريل –عليه السلام – فأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به جبريل إلى السموات العلا ، فانتقل به من سماء إلي سماء حتى وصل إلى سدرة المنتهى ، وسمع النداء من الحق – تبارك وتعالى –ففرض عليه الصلاة خمسين صلاة فى اليوم والليلة ، وأخذ رسول الله –صلوات الله وسلامه عليه –يراجع ربه المرة تلو المرة – يطلب منه التخفيف – إلى أن صارت خمسا فى الفعل وخمسين في الأجر والثواب ،وتوالت آيات القرآن تأمر بالصلاة وتبين أثرها في السلوك ، وتمتدح أصحابها ، وتعيب على من تركها ،فهذا رسول الله – صلي الله عليه وسلم – قدوة الأمة وهاديها ، يقول الله له : **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}**(١) ويقول :**{ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}**(٢) ويقول :**{ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ }**(٣) ويأمره ان يأمر أهله بها فيقول **{ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}** (٤)وأن يأمر بها المؤمنين العابدين فيقول **{ قُلْ**

---

(١) هود ١١ /١١٤

(٢) الإسراء ١٧ /٧٨

(٣) العنكبوت ٢٩ / ٤٥

(٤) طه ٢٠ /١٣٢

لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ}.[1] ولو تدبرنا ما جاء في كتاب الله من أثر الصلاة في السلوك ، لراعنا هذا الأثر العظيم ، ولعلمنا سر عناية الشرائع السماوية بهذه الشعيرة من شعائر الله ، كما ذكر ربنا في كتابه ، فهي وسيلة من وسائل القوة الروحية التي تعين المؤمن على مايصيبه من محن وما يتعرض له من فتن ،وما يعتريه من ضعف في إرادته أمام هجمة الشهوة والشيطان ، يقول تعالى لبني إسرائيل : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣)أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٤٤)وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥)الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[2]. ويقول لأمة محمد – صلى الله عليه وسلم –: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [3] وهذا التوجيه الرباني يأتي بين أمرين : الأول : بيان المنة العظيمة في أن الله أرسل إلينا رسوله محمدا – صلى الله عليه وسلم – يتلو علينا كتاب ربنا ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة ، ويعلمنا مالم نكن نعلم ، والأمر الثاني : هو إظهار فضل المجاهدين في سبيل الله ، الذين رزقوا الشهادة ؛ فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، ولا سبيل للاستفادة من هدى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومما تحمله رسالته من خير ، إلا بالصبر والصلاة ..

(١) إبراهيم ١٤ /٣١
(٢) البقرة ٢ / ٤٣ –٤٦
(٣) البقرة ٢ / ١٥٣

والصلاة تأتي في آية البر – في سورة البقرة – من جملة خمس عشرة صفة ، من تحقق بهذه الصفات كان صادقا حقا ، ومن المتقين صدقا. يقول تعالى : {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}(١) وحين نهى الله عن الربا وحرمه تحريما قاطعا كأنه أراد أن يدل الناس على طريق إصلاح أنفسهم ، وكيف يستطيعون أن يقلعوا عن هذا الذنب العظيم ، فأتى بين الآيات التي تحرم الربا وتبين عاقبة المرابين بقوله : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}(٢) وفي تعريف المؤمنين نرى قول الله تعالى : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}(٣) ونرى قوله : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢)الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣)أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}(٤)

---

(١) البقرة ٢ /١٧٧ .
(٢) البقرة ٢ /٢٧٧ .
(٣) المائدة ٥ /٥٥ .
(٤) الأنفال ٨ /٢ –٤ .

وقد جعل الله دليل العقل الناضج، والبصيرة المستنيرة في حملة صفات ذكرها ربنا لأولى الألباب فقال : { أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ(١٩)الَّذِين يوفُون بعهد اللَّهِ ولا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠)وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ(٢١)وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ}[١] إلى غير ذلك من الآيات التى تجعل الصلاة نورا يضيئ الطريق ، بها يعتدل السلوك ، وتطمئن النفس ، وينشرح الصدر ، وتقوى العزيمة ، ويشعر المسلم بأنه إنسان إنسان ، مسئول عن دينه وكتابه ونبيه وأمته ،ولهذا جاء التعبير القرآني بإقامة الصلاة إسما، وفعلا : ماضيا ومضارعا وأمرا ، وما ذلك إلا لأن إقامة الصلاة لاتعنى مجرد أدائها ، والمحافظة عليها ، فهذا جزء من معنى إقامة الصلاة ، إنما إقامتها تزيد على ذلك بالإعلان عنها ، وأدائها في جماعة ، وهذا يتطلب مسجدا وإماما ، والإمام يحتاج إلى معهد وجامعة ليتخرج إماما ، وذلك كله لا يتحقق إلا بقيام نظام إسلامي،وحكم إسلامي، ودولة إسلامية وأمة مسلمة ، ولعل هذا بعض ما يفهم من بيان علاقة المؤمنين والمؤمنات فيما بينهم ، وأنها علاقة التناصر والتآزر والموالاة من أجل إقامة منهج الله فى أرض الله بما في ذلك من إقامة الصلاة ، حيث يقول ربنا فى سورة "التوبة " : { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

---

(١) الرعد ١٣ / ١٩ -٢٢

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(١) وما يمكن أن يرشد إليه ارتباط التمكين في أرض الله للمجاهدين في سبيل الله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من تعاليم الدين ، وذلك قوله تعالى في سورة الحج : {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}(٢).

وإلا فكيف تقام الصلاة في بيوت الله ، وكيف تجمع الزكاة من أهل الإسلام ، وكيف يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون لهذا الأمر والنهي أثره في واقع الحياة ، وهم شتات لارابطة لهم ، متفرقون شيعا وأحزابا، متعادون متناكرون ، متخاصمون متقاطعون ؟؟؟ وكيف يتم لهم ذلك وهم مقهورون مغلوبون ، لاإمرة لهم ولا سلطان ، تسيل دماؤهم أنهارا في أنحاء الأرض ، ويبادون في كل مكان ، فلا يرثي لهم أحد ، ولا ينصرهم أحد ؟؟

فهل من عودة كريمة لدين الله ، وما شرع من الصلاة وإقامتها ، لنصلح بهذا الدين ، وتلك الصلاة ما فسد من أمرنا ، وما انحرف من أخلاقنا، وما ساء من أحوالنا ؟؟

وإذا كان هذا هو أثر الصلاة في الأخلاق ، فإن هناك شعيرة أخرى من شعائر الله وثيقة الصلة بالصلاة ، وهي عنوان قبول الصلاة

---

(١) التوبة ٩ /٧١

(٢) الحج ٢٢ /٤١

وما أودعته فى النفس من رقة المشاعر ، ورهافة الحس ، فانطلق صاحبها رحيما بالخلق ، يجود عليهم بفضل ما أعطاه الله ، إنها الزكاة .. ومن اسمها ندرك أثرها المحمود فى الإنسان ، فهى تزكيه ، أى تطهره من ضيق النفس ، والشح والبخل ، وترتفع به إلى عالم الرحمات والبركات والخيرات ، فتراه منشرح الصدر؛ هادئ النفس سعيد ... ، منبسط الأسارير ؛ فرحا بتوفيق الله له، أن أدخل على القلوب المكلومة الفرحة ،وعلى الجباه المقطبة البهجة ، وعلى الوجوه العابسة السعادة ..

وقد وردت كلمة " الزكاة " فى القرآن الكريم اثنتين وثلاثين مرة ، منها موضعان لا يتعلقان بالزكاة من حيث هى إخراج مال معلوم من مال معلوم على وجه القربى إلى الله عز وجل ،وأول الموضعين فى سورة الكهف ، فى قصة الغلام الذى قتله الخضر مما أثار غضب موسى– عليه السلام – فقال : { **أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا** }فأوضح له الخضر سبب ما فعل فقال : { **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا(٨٠)فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا** }[(١)] والموضع الثانى فى سوره مريم " فى قصة زكريا – عليه السلام – وبشارة الله له بيحيى وقول الله فى يحيى : {**يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا(١٢)وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا** }[(٢)]

---

(١) الكهف١٨/٧٤، ٨٠، ٨١

(٢) مريم ١٩ /١٢، ١٣

وحيثما ذكرت الزكاة بعد ذلك ذكرت معها الصلاة إلا في ثلاثة مواضع ، أولها : في الأعراف ، في قول الله تعالى : { ورحمتي وسعت كلَّ شيْءٍ فسأكتبُها للذين يتَّقون ويؤْتُون الزكاةَ والذين هُمْ بآياتنا يؤْمنون(١٥٦)الذين يتَّبعون الرسولَ النبيَّ الأمِّيَّ}(١) وثانيها : في "الروم" ، حيث يقول تعالى : { ومَا ءاتيْتُمْ منْ رِبًا ليَرْبُوَ في أمْوالِ الناسِ فلا يرْبُو عِنْدَ اللهِ وما ءاتيْتُمْ مِنْ زكاةٍ تُرِيدُون وَجْه اللهِ فأولئك هُمُ المُضْعِفُون}(٢) وثالثها : في سورة "فصلت " في قوله تعالى : { وويْلٌ لِلمُشْرِكِين(٦)الذين لا يؤْتُون الزكاةَ وهُمْ بالآخِرةِ هُمْ كافِرُون}(٣)

وهى حين تذكر مع الصلاة تذكر مقترنة بها ، اسما وفعلا : ماضيا أو مضارعا أو أمرا هكذا :" والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة " وأقام الصلاة وآتى الزكاة " " الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة "

إلا فى "المؤمنون " ، فقد جاءت مفصولة عنها : { قَدْ أفْلَحَ المُؤْمِنُون(١)الذين هُمْ في صلاتِهِمْ خاشِعُون(٢)والذين هُمْ عنِ اللغْوِ مُعْرِضُون(٣)والذين هُمْ للزكاةِ فاعِلُون} .(٤)

وبهذا الجمع الشامل لكلمة "الزكاة " فى القرآن ، يتضح لنا ما لها من منزلة فى دين الله، وما لها من ارتباط وثيق بالصلاة ، فهى عنوان ما

---

(١) الأعراف ٧ /١٥٦ ، ١٥٧
(٢) الروم ٣٠ /٣٩
(٣) فصلت ٤١ / ٦، ٧ .
(٤) المؤمنون ٢٣ /١ –٤

أحدثته الصلاة من تغيير في القلب والمشاعر ، وقد يكون من اليسير على كثير من الناس أداء الصلاة في مواقيتها ، بل والإكثار من نوافلها ، ولكنهم إذا دعوا إلى إخراج زكاة أموالهم نكصوا على أعقابهم ، ووجدوا حرجا شديدا في صدورهم ، ولم يستطيعوا القيام بها ، وما ذلك إلا لأن المال شقيق النفس ، بل قد يضحي المرء بنفسه في سبيل ماله ، ولهذا قدمه الله في الذكر على النفس في الآيات التي تدعو إلى الجهاد بالمال والنفس ، فقال : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}[1] وقال:{ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ}[2] وقال {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[3] إلى غير ذلك من الآيات ، بل إن المال مقدم على الولد ، كما قال تعالى : {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[4] والله عز وجل الذى خلق الإنسان وهو أعلم بمن خلق ، يقسم على شدة محبة الإنسان للمال فيقول : {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}[5] والخير هنا هو المال ، ولذلك لابد من مجاهدة النفس حتى تفيض برا وكرما ، وتعطى ما أوجب الله على أهل الإيمان من حقوق في أموالهم ، ولا يكون هذا إلا إذا أحيا المؤمن في قلبه ووجدانه

---

(١) الأنفال ٨ /٧٢
(٢) التوبة ٩ /٢٠
(٣) التوبة ٩/ ٤١
(٤) الكهف ١٨ / ٤٦
(٥) العاديات ١٠٠ /٨

وأحاسنه ما جاء به كتاب الله من بيان لحقيقة المال ومن أين جاء ؟ ومن المالك الحقيقي له ، ومدى عطاء الله لخلقه من ذلك ، والمال – في الحقيقة – مال الله ، فهو الذي أنزل الماء ، وأجرى الهواء وأنبت النبات وهيأ الأسباب حتى خرج الزرع من الأرض : { ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ(٦٤)لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} .(١)

والإنسان مستخلف في هذا المال : { ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}.(٢)

وهو لاينال حظه من هذا المال لأنه ذكي أو قوي ، ولكنه محض الفضل من الله الوهاب : {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ.. }(٣)

فلم لايخرج زكاة ماله ؟ بل لم لايجود بأكثر من الزكاة إذا ما دعت الضرورة لهذا ؟ وهو على ثقة من وعد الله له بالمزيد ، كما قال : { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }(٤)

إن الزكاة مدرسة يتعلم في رحابها أهل الإيمان كثيرا من الأخلاق

---

(١) الواقعة ٥٦ /٦٤ ، ٦٥
(٢) الحديد ٥٧ / ٧
(٣) الشورى ٤٢ / ١٩
(٤) البقرة ٢ /٢٤٥

الحميدة ، كالكرم والسخاء والجود والنجدة والرجولة والمروءة ، كما يتعلمون كيف ينتصرون على هوى النفس ، وما ركب فيها من شح وبخل وضيق وأثرة وحب للمال والدنيا ، وبالزكاة تسود أخلاق التراحم والتواصل والتآخي والبر والتعاون ، وتختفي أخلاق ذميمة فاسدة : كالحقد والحسد والضغينة والكراهية والإثم والعدوان ، وهذا كله مما عرفه المسلمون الأوائل فكانوا أسعد الناس ، وأسعد المجتمعات، ومكن الله لهم في الأرض ، كما قال عز من قائل : { **الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** }(1)

الصيام :

وهذا هو الصيام ، منهج أخلاقي لتربية الإنسان على محاسن الأخلاق ، فرضه الله على المسلمين في شعبان من العام الثاني للهجرة بقوله تعالى : { **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون .. الآية وما بعدها من سورة البقرة ، إلى قوله:{ تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون**}(2)

وهذه الآيات تمثل المنهج الإسلامي في تربية الأمة والتدرج بها في الالتزام بشرع الله ، فقد كان الصيام – أول ما شرع – على سبيل التخيير للقادر : من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا ، كما قال تعالى : { **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع**

---

(1) الحج ٢٢ /٤١

(2) البقرة ٢/ ١٨٣-١٨٧

خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون } ثم أوجبه الله على كل مستطيع ورخص فيه لأصحاب الأعذار ، قال تعالى : { فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أُخَر .. }

وكان إذا أفطر المسلم بغروب الشمس إنما كان يحل له مما كان مُحَرَّمًا بالصيام إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك ، فمن نام أو صلى العشاء ، حَرُم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا لذلك مشقة شديدة إلى أن يسر الله عليهم وأنزل قوله : { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ الآية }(١)

كما فرض الله الصيام كفارة في القتل الخطأ وفي الظهار وفي من واقع امرأته في نهار رمضان وفي من حنث في يمينه ، وفي بعض المخالفات التي يقع فيها الحاج ، كما سن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صيام بعض الأيام كيوم عرفة ويوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر ،وما إلى ذلك مما جاءت به السنة المطهرة .

والملاحظ فيما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن هذه التوجيهات لم تكن إلا في المدينة ، فهل يحتاج الصيام إلى إقامة مجتمع له قيادته وسلطانه حتى يتمكن المسلمون من الصيام ؟ أما كان يكفي أن يأمر الله المسلمين في مكة بالصيام ليصوموا ؟ فما الصوم إلا امتناع عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر

---

(١) البقرة ٢/ ١٨٧

إلى غروب الشمس .

إن الصيام كما هو تربية للفرد على جملة من الأخلاق النبيلة ، هو كذلك منهج حياة لأمة الإسلام ، وكلا الجانبين لاغنى عنهما في نظام الإسلام ، إذ ماذا يكون عليه الموقف ممن يتعدى حدود الله ويفطر في نهار رمضان ؟ ألا يحتاج إلى من يحاسبه على هذا الجرم ؟ وهذا لايتحقق إلا بإقامة سلطان بيده القوة التي تحمي شريعة الله ؛ والتي تمثلت في المجتمع المدني في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما أقام من سلطات إدارية في كل جانب من جوانب حياة الأمة ؛ كما أن الصيام يحتاج إلى من يعلن ابتداءه بتحديد أول ليلة من رمضان ، وانتهاءه بغروب شمس آخر يوم فيه ،بالإضافة إلى تحصيل زكاة الفطر ، وما هناك من سنن تقام كصلاة التراويح ، والتي صلاها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عدة ليال ثم أخذ يصليها في بيته ، خشية أن تفرض على المسلمين ، فأخذ المسلمون يصلونها فرادى حتى كانت خلافة عمر – رضي الله عنه – فجمعهم على أبي بن كعب – رضي الله عنه – وهناك صلاة العيد ، وفيها يخرج إمام المسلمين ليصلي بهم ويخطب فيهم، وفي هذا الجو العبق بعطر الإيمان يسود التراحم والتكافل الاجتماعي ، والرسول – صلوات الله وسلامه عليه – يدفع بهذه الأخلاق إلى أعماق النفس المؤمنة وهو يبين مافي رمضان من الخير وأن فيه تفتح أبواب الجنة وتغلق أبواب النار ، وتغل الشياطين ، وأن من أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وأن من فطر فيه صائما – ولو على تمرة أوشربة ماء – كان له من الأجر مثل أجر هذا الصائم .

وفى مدرسة الصيام يتعلم المسلم كبح جماح شهواته ، شهوة البطن وشهوة الفرج وشهوة اللسان وشهوة الانتصار للنفس ، ويتعلم كيف يكظم غيظه ، ويعفو عمن أساء إليه ، ففى الحديث عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : { الصيام جنة ، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم – مرتين – والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى، الصيام لى وأنا أجزى به }

يقول الإمام محمد عبده : (الصوم يعد نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى ، ويَظْهَرُ ذلك من وجوه كثيرة ، أعظمها شأنا وأنصعها برهانا ، وأعظمها أثرا وأعلاها خطرا أنه أمر موكول إلى نفس الصائم لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى ، وسر بين العبد وربه لايشرف عليه أحد غيره سبحانه ، فإذا ترك الإنسان شهواته ولذاته التى تعرض له فى عامة الأوقات لمجرد الامتثال لأمر ربه والخضوع لإرشاد دينه مدة شهر كامل فى السنة ملاحظا عند عروض كل رغيبة له من أكل نفيس وشراب عذب وفاكهة يانعة وغير ذلك أنه لولا اطلاع الله تعالى عليه ومراقبته له لما صبر عن تناولها وهو فى أشد التوق لها ، لاجرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة والحياء منه سبحانه وتعالى أن يراه حيث نهاه، وفى هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى والاستغراق فى تعظيمه وتقديسه ، أكبر معد للنفوس ومؤهل لها لسعادة الآخرة ، وكما تؤهل هذه المراقبة النفوس المتحلية بها لسعادة الآخرة

تؤهلها لسعادة الدنيا أيضا .. انظر هل يقدم من تلابس هذه المراقبة قلبه علي غش الناس ومخادعتهم ؟ هل يسهل عليه أن يراه الله آكلا لأموالهم بالباطل ؟ هل يحتال على أكل الربا ؟ كلا .. إن صاحب هذه المراقبة لايسترسل فى المعاصى إذلايطول أمد غفلته عن الله تعالى ، وإذا نسى وألم بشئ منها يكون سريع الفئ والرجوع بالتوبة الصحيحة ، قال تعالى :(**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**)[1] .

الحج :

وردت كلمة " الحج " فى القرآن فى عدة مواضع :

في سورة البقرة : فى قوله { **إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما .. الآية**

وفى قوله : {**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ..الآية** }

وفى قوله : {**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ..الآية وما بعدها ، من قوله: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ..**}[2]

---

(١) أركان الإسلام الخمسة وأثرها فى حياة الأفراد والجماعات : د / يحيى الدرديرى صـ ١١٦ ، والآية من سورة الأعراف ٧ / ٢٠١

(٢) البقرة ٢ / ١٥٨، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧

وفي آل عمران : في قوله : { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا .. الآية }(1)

وفي التوبة : في موضعين :

١-في قوله : { وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ } (2)

٢- في قوله : {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.. }(3)

وفي سورة الحج : في قوله : {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ..الآية وما بعدها }(4)

كما وردت آيات في تعظيم شعائر الحج والشهر الحرام والبيت الحرام ، وما إلى ذلك مما يتعلق بالحج وشعائره ، والبيت الحرام وما فيه، وما حوله ، ونحن لاندرس مافي الحج من أحكام (5)، إنما ندرس ما للحج من أثر محمود في التربية الأخلاقية للفرد والجماعة .

---

(١) آل عمران ٣ / ٩٧

(٢) التوبة ٩/٣

(٣) التوبة ٩ / ١٩

(٤) الحج ٢٢ / ٢٧

(٥) انظر في بيان ذلك : الحج في القرآن الكريم : دراسة موضوعية لآيات الحج في القرآن الكريم - للمؤلف ط الأولى - مطبعة الحضارة بالفجالة - بالقاهرة - ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م .

وجماع هذه الأخلاق يلخصها قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**)[1]

فهذا معناه أن من أدى الحج ملتزما بأحكامه وآدابه رجع نقيا طاهرا كيوم ولدته أمه ، لايعرف الكذب ولا الغش ولا الدهاء ولا الخبث ولا الالتواء ولا الحقد ولا الحسد ، إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة التى لايعرفها المولود الذى بدأ عهده بالحياة نقيا طاهرا ، وهكذا الحاج يبدأ صفحة جديدة بعد حجه ، أساسها الالتزام الكامل بمنهج الله ، والتخلق بأخلاق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والاقتداء بسلف الأمة الصالح.. من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن بعدهم من الصالحين وإن لم يفعل فهذا معناه أنه لم يؤد حجه على الوجه الصحيح ..

وحين نتساءل : كيف وصل الإسلام بفريضة الحج إلى هذا المستوي الرفيع فى أخلاق أهل الإيمان وسلوكهم ؟ وكيف كان الحج معلما يهتدى به أهل الإسلام ليبدأوا بعده مرحلة جديدة فى حياتهم ، وكأنهم ولدوا من جديد؟؟

إن ذلك يبدأ من أول لحظة تتوفر فيها للمسلم شروط الاستطاعة من الزاد والراحلة وأمن الطريق والقدرة البدنية على السفر وأداء المناسك ، إنه يلبى نداء الحنين الذى يملك عليه حسه وشعوره لرؤية الكعبة المشرفة والطواف حولها ، وما هذا الحنين إلا استجابة وإكراما للنبى المجاهد الصابر المحتسب ، نبى الله إبراهيم الخليل – عليه السلام – حين أودع هاجر وإسماعيل وحيدين فى مكان لا أنيس فيه ولا طعام ولا شراب .

---

(١) متفق عليه

وودعهما وهو يتجه إلى الله بكل كيانه ، يدعوه فى ضراعة : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) إلى آخر هذا الدعاء الخاشع الذى ذكره الله فى سورة إبراهيم

والمسلم حين اتجه فؤاده إلى ربه ، وقد عقد النية على الحج بشعر بالصفاء والشفافية والنورانية ، ويبدأ فى مراجعة ما مضى من أيام عمره ليعرضها على ما جاء به دينه فيتوب إلى الله مما أخطأ فيه ، ويوثق عرا الإيمان والإصرار على الطاعة وسلوك طريق ربه فيما كان يؤديه من الأعمال الصالحة ، وفى استعداده للسفر يتحرى المال الحلال ، لأنه يعلم أن حجه بمال حرام غير مقبول ، كما أخبر بذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وتحرى الحلال باب للأمانة والصدق ، والخوف من الله عز وجل ، وما إلى ذلك من التخلق بالأخلاق الربانية .

وقبل خروجه لابد من رد المظالم والحقوق لأصحابها ، وهو بذلك يوثق عرا المحبة والأخوة مع مجتمعه وأمته ، ويعود إنسانا متواضعا لايبغى على أحد ، ولا يعتدى على حق أحد .

وهاهو ذا يودع أهله وأحبابه ، فيذكر وداعهم له إلى مثواه الأخير ، فتهون عليه الدنيا بما فيها من زينة ومتاع،وينطلق مع إخوانه مسافرا إلى بيت الله الحرام،فيتعلم فى سفره آداب الصحبة والقيام بحق أهل الإيمان .

وعند الميقات اغتسل وتطهر ولبس ملابس الإحرام ، وصلى ركعتين ولبى بحج أو بعمرة أو بحج وعمرة ، وفى كل عمل من هذه الأعمال تربية أخلاقية ، يبدو فيها نور هذا الدين متلألئا فى سلوك

المؤمنين ، تراه طهرا وتجردا وإخلاصا وتواضعا ، ومساواة جمعت بين حجاج بيت الله ، إذ تجردوا من كل زينتهم ولبسوا لباسا واحدا فلا فرق بين غني وفقير ، وملك ورعية ، وعربي وعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح . نداؤهم واحد : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك ، وجهتهم واحدة ، وقبلتهم واحدة ، وغايتهم جميعا مرضاة ربهم ، وهكذا في كل موقف ومشهد ، في منى وعرفات والمزدلفة ، في طوافهم وسعيهم ، ورميهم للجمرات ، ونحرهم لهديهم وأضحياتهم ، وتصدقهم ، في كل خطوة وكل حركة ، بل وكل سكون ، لسانهم رطب بذكر الله، وقلوبهم متعلقة بمولاهم ، إنهم حين يعودون من حجهم يعودون بقلوب طاهرة ونفوس مطمئنة وأخلاق كريمة، وسلوك مشرق بنور الله ، إنهم عادوا أنقياء من كل درن كما ولدتهم أمهاتهم .

فهل هناك مثل هذا المنهج الإلهي في سموه وعظمته وقدرته على بناء الإنسان ؟ وهل الإنسان إلا بأخلاقه ؟ وهل تبقى أمة بدون أخلاق سامية ؟ :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا

ولا وجود لهذه الأخلاق الكريمة إلا فيما أتى به كتاب الله وأرساه منهجا عمليا وسلوكا واقعيا رسول الله : محمد – صلى الله عليه وسلم – وكان فيما شرعه الله من عبادات ما رأيناه من أثر في غرس الأخلاق الفاضلة في أعماق النفس البشرية ، فما أعظم هذا الدين ، وما أكرم ربنا الذي أرسل لنا رسله وأنزل لنا كتبه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .



٤ قيم خُلقية فى القرآن :

١ - التعـــــــــاون

٢ - الوفـــــــاء

قيم خُلقية في القـــــــــــــــرآن :

اتضح لنا – إذاً – أن مكارم الأخلاق من أهداف شريعة القرآن،وأن ما جاء في كتاب الله من غرس للإيمان في القلوب كان له أعظم الأثر في سلوك أهل الإيمان ، وأن ما شرعه الله من صلاة وزكاة وصيام وحج كان البلسم الذي أضفى على الحياة بهجتها ورونقها ، وكان الدواء الناجع لأمراضها وعللها ، وأنه ما من خلق كريم إلا وجاء كتاب الله يدعو إليه ، ويرغب فيه ، وما من خلق وضيع إلا خوف منه وبين فساده وحذر منه ، وحسبنا في هذه العجالة أن نتناول اثنين من تلك الأخلاق النبيلة ،والقيم العظيمة ، وهمــــا :

١ – التعاون **٢ – الوفاء.**

ولنبدأ بأولهمـــا وهو : التعـــاون :

فما هو التـــعاون ؟ وماذا جاء في كتاب الله وسنة رسـوله– صلى الله عليه و سلم – من حديث عن التعـاون ؟ ومـاهو التعـاون المحمود ، وما هو التعاون المذموم ؟ وماذا في الحياة من صور التعـاون ؟وما أثر هذا وذاك في حياة بني الإنسان ؟ ومـا مـدى حاجتنـا إلـى التعاون؟؟

١ – ماهو التعـــــاون :

تذكر كتب اللغة أن التعاون هو أن يعين بعضنـا بعضـا ، أي أن يكون كل منا سندا وقوة للآخرين ، **يقول ابن منظور في لسان العـرب :**

"العَونُ : الظهير على الأمر ، وتعاونا : أعان بعضنا بعضا ، قال الليث : كل شيئ أعانك فهو عون لك " (١)

ولم يذكر ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة شيئا عنذلك ، ولكنه فى" مجمل اللغة " قال : العون : الظهير على الأمر " (٢)

وفى القاموس المحيط : "تعاونوا واعتونوا : أعان بعضهم بعضا"(٣) وفى المعجم الوسيط : أعانه على الشيئ : ساعده ، وتعاون القوم :عاون بعضهم بعضا ، والتعاون فى علم الاقتصاد: مذهب اقتصادى شعاره : الفرد للجماعة ، والجماعة للفرد ، ومظهره : تكوين جماعات للقيام بعمل مشترك لمصلحة الأعضاء والاستغناء عن الوسيط"(٤)

٢ – ماذا جاء فى كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – من حديث عن التعاون ؟؟ :

إذا كان هذا هو التعاون فى لغة العرب ، وأنه يعنى بذل أقصى الجهد فى مساعدة الآخرين على تحقيق أهدافهم من دفع الضرر عنهم

---

(١) انظر لسان العرب : لابن منظور – دار صادر – بيروت مـ ١٣ صـ ٢٩٨
(٢) انظر / مجمل اللغة :لابن فارس – تحقيق الشيخ هادى حسن حمودى –منشورات معهد المخطوطات العربية ط الأولى بالكويت ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م جـ ٣ مادة / ع ، و ، ن .
(٣) القاموس المحيط : للفيروز ابادى ط دار الحديث – القاهرة جـ ٤،صـ ٢٥٠
(٤) المعجم الوسيط:جـ٢ صـ٦٣٨ –ط الثانية–مطابع دار المعارف – ١٣٩٢هـ ١٩٧٣م.

وجلب الخير لهم ، فإن القرآن الكريم جاء يؤكد هذا الأمر ويقيمه على مبادئه الربانية ، في دوافعه ووسائله وغاياته ، كما هو شأنه في جميع ما أرسى من أخلاق كريمة ، فقد عرفت البشرية ألوانا من التعاون ، ولكنه ليس محكوما بمنهج الله ، ولهذا ضل طريقه ولم يؤد غايته ، لأنه قد يكون تعاونا على الشر والضرر ونصرة الباطل ، تدفع إليه عنصرية بغيضة ، وطائفية ضيقة : كما كان من حال العرب قبل الإسلام :

لايسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

فهم ينصرون ابن قبيلتهم ولو كان ظالما ، وقد جاء في الحديث : انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قال رجل يارسول الله أنصره إذا كان مظلوما ، أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال : تحجزه ، أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره " [(١)] وفي العصر الحديث ، وفي غياب حملة راية الجهاد الإسلامي ، يتعاون دعاة الشر تحت مظلة الشرعية الدولية لضرب المسلمين وإبادتهم في كثير من بلاد العالم ، مما هو مشاهد لا يحتاج إلى دليل ، ولما كانت البواعث خبيثة كانت الوسائل أشد خبثا ، فكان القتل وانتهاك الأعراض واستعمال أسلحة الدمار والخراب والجراثيم والأمراض والتشويه وما إلى ذلك من وسائل تنم عن حقد دفين على الإسلام وأهله ، وكانت الغايات كذلك وضيعة ، إذ هي استئصال المسلمين ، والقضاء علي هذا الدين ، حتى تخلو لهم بلاد الإسلام لينهبوا خيراتها ، وكم فيها من خيرات ، وليحققوا لأنفسهم حياة مترفة على حساب دماء المستضعفين في أرض الله ..

---

(١) رواه البخاري عن أنس – رضي الله عنه .

فلننظر فيما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم– من هدًى كريم يجعل التعاون بين الناس عنوانا لإنسانية الإنسان ، ودليلا على العبودية لله ، وتحقيقا للسعادة التى هى غاية الإنسان فى هذه الدنيا ، ليصل بها إلى سعادة الآخرة ..

هذا هو كتاب الله يذكر مادة :العين ، والواو ، والنون (عون) فى أحد عشر موضعا ، منها ثلاثة فى البقرة : " **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** " " **يأيها الذين آمنوا استعينو بالصبر والصلا ة ، إن الله مع الصابرين** " وفى الآيتين بيان لوسيلة الانتصار على النفس وما يعتريها من فتور وكسل وضعف يجعلها تنحرف عن منهج الله ، أولاتنشط لعبادة الله ، فقد جاء الموضع الأول فى عتاب الله لبنى اسرائيل ، إذ يقول تعالى لهم : (**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟** ثم يقول : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين)

وفى الموضع الثانى : إرشاد للأمة المسلمة التى بُعث فيها محمد – صلى الله عليه وسلم – وكيف تستعين على نفسها وضعفها لتستقيم على منهج الله الذى جاء به رسولها ، وذلك بالصبر على الطاعات والصبر عن المعاصى ، وبالمحافظة على الصلاة فيقول تعالى : (**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(١٥١)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا**

تَكْفُرُونِ) ثم يأتى قوله : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)(١) ليبين أن الإيمان بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد – صلى الله عليه وسلم – نبيا ورسولا ، هو الأساس الذى يقوم عليه البناء ، وهو الدافع الذى يدعو المؤمنين إلى بذل جهدهم واتخاذ الصبر والصلاة مطية لبلوغ غاياتهم وتحقيق آمالهم فى الالتزام بما جاء به كتاب ربهم ، وما علمهم إياه رسولهم – صلوات الله وسلامه عليه – والله سيكون عونا لهم على ما طلبوا : إن الله مع الصابرين .

أما الموضع الثالث فى سورة البقرة فلا يدخل معنا فى الحديث عن التعاون ، لأنه وصفٌ للبقرة التى أمر الله بنى إسرائيل أن يذبحوها وأن يأخذوا منها عضوا ليضربوا به القتيل الذى لم يُعرف قاتله ، قال تعالى : "قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ" (٢) ومعنى أنها عوان : أى لاكبيرة ولا صغيرة ، إنما هى بين بين .

وفى " المائدة " يقول الله تعالى " (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)(٣)وعند هذا التوجيه الإلهي سوف تكون لنا وقفات – بإذن الله .

---

(١) البقرة ٢ / ٤٤، ٤٥ ، ١٥١ – ١٥٣
(٢) البقرة ٢ / ٦٨
(٣) المائدة ٥ / ٢

وفى " الأعراف " بيان لسنة الله فى التمكين فى الأرض ؛ وأن وسيلة ذلك اللجوء إلى الله بالعمل الصالح ، والصبر على مشقات الجهاد فى سبيل الله ، وترويض النفس على طاعة الله والانقياد له ، وذلك ما جاء فى قول الله تعالى على لسان موسى – عليه السلام –: **(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)**(١)

وفى " يوسف " و " الأنبياء " وصف لله بأنه المستعان، أى الذى يُطلب منه العون ، وقد جاء ذلك فى قول الله تعالى على لسان يعقوب – عليه السلام – حين عاد إليه أبناؤه بعد إلقائهم لأخيهم يوسف فى الجب : **(وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)**(٢) كما جاء فيما قال الله على لسان محمد – صلى الله عليه وسلم – فى آخر " الأنبياء " : **(قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)**(٣)

وهذه الاستعانة التى طلبها نبى الله يعقوب – عليه السلام ، وطلبها نبى الله محمد – صلى الله عليه وسلم ، هى مايقوله المسلم ، وهو يرتل آيات سورة الفاتحة فى كل ركعة من ركعات الصلاة فيقول : **إياك نعبد وإياك نستعين)**

(١) الأعراف ٧ /١٢٨
(٢) يوسف ١٢ / ١٨
(٣) الأنبياء ٢١ /١١٢

بقى لنافى دراسة الآيات موضع فى سورة " الـــفرقان " يتحـــدث عن تعاون موهوم أملاه جهل المشركين وافتراؤهم على الله حيث نظـروا إلى القرآن الكريم وما فيه من بلاغـــة وفصاحـــة أعجزتـــهم ، مــع أن المتحدث به أمى لايقرأ ولا يكتب ، فمن أين أتت له هذه الآيات بكل مـــا فيها من إعجاز ؟ ولم يدركوا أن الذى أنزل هذا القرآن هو الـــذى يعلــم السر فى السموات والأرض ، وأن هذا ليس من كلام محمد – صلـــى الله عليه وسلم ـــالذى لبث فيهم – قبل أن يوحى إليه – عمرا طويلا لايـدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولذلك توهموا أن هناك من يعينه على أن يـــأتى بهذا القرآن ، قال تعالى : **(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّـــا إِفْـكٌ افْـتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا)**(١)

وهناك فى " الكهف " بيان لما يصنعه التعاون من تحقيـــق الخـير ودفع الشر ؛ وذلك ما ذكره الله فى قصة ذى القرنين ، الذى مكن الله لــه فى الأرض وآتاه من كل شيئ سببا ، يقول تعالى : **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْـــنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا(٩٣)قَـــالُوا يَـاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًـــا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا(٩٤)قَالَ مَـــا مَكَّنِّـــي فِيـــهِ رَبِّـــي خَـيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا(٩٥)ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِـــي أُفْـــرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا(٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَـــا اسْـتَطَاعُوا لَــهُ نَقْبًـــا (٩٧)قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْــدُ رَبِّي حَقًّا)**(٢)

---

(١) الفـــــرقان ٢٥ / ٤

(٢) الكهف١٨ / ٩٣ - ٩٧

فهذا عمل مبعثه الإخلاص لله ، ترى ذلك في قوله في بداية العمل ، وفى نهاية العمل : **" قال هذا رحمة من ربى .. الآية "** وفى قوله : " قال ما مكنى فيه ربى خير " ووسيلة تحقيقه : تعاون بين ذى القرنين وهؤلاء القوم ، وذلك ما نلمحه في قوله : " فأعينونى بقوة " ، " آتونى زُبَر الحديد " ، قال انفخوا " ، " آتونى أُفْرِغ عليه قِطْرا " وغايته :تحقيق الأمن لهؤلاء المستضعفين الذين لايستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمام هجمات يأجوج ومأجوج وظلمهم وإفسادهم فى الأرض .. **" فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا "**

<u>٣ - ماهو التعاون المحمود ؟ وما هو التعاون المذموم ؟</u>

يعبر عن ذلك أصدق تعبير قول الله تعالى : **(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)**(١) وهذا التعاون مبنى على الإيمان بالله ، وما فى هذا الإيمان من إيمان بملائكة الله ، وكتبه ، ورسله، واليوم الآخر ، بكل مافى هذا اليوم من بعث وحشر وحساب وجنة ونار إلى غير ذلك مما فى هذا اليوم ، كما سبق فى بيان ترابط الأخلاق بالعقيدة .

ولذلك يساق هذا الأمر ، وذلك النهى فى آية مبدوءة بقوله " يا أيها الذين آمنوا " وعقب هذا الأمر وذلك النهى قوله : " واتقوا الله إن الله شديد العقاب " ومع مافى ذلك الأمر ، وذلك النهى من إيجاز ، فقد جمع

---

(١) المائدة ٥ / ٢

كل ما يجب أن يكون فيه التعاون المحمود ، وكل ما يجب ألا يكون فيه التعاون لأنه مذموم"، فإن كلمتى البر والتقوى تجمع الخير كله ، وكلمتى الإثم والعدوان تجمع الشر كله .. فلنتدبر هذه الكلمات الأربع لنرى حقيقة ذلك ..

"فالبر" فى كلام العرب يعنى عدة أمور ، منها : الصدق والطاعة والصلاح والخير وكل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل ، وقد وردت كلمة : البِـــرّ " " بكسر الباء " فى ثمانى مواضع من القرآن الكريم ، وكلمة "الأبرار " فى ست مواضع ، ووردت جمعا فى سورة " عبس " وصفا للملائكة : " **بِأَيْدِي سَفَرَةٍ(١٥)كِرَامٍ بَرَرَةٍ**"(١)

كما وردت بيانا لما كان عليه كل من يحيى وزكريا – عليهما السلام – من بر كل منهما بأمه ، ولنقرأ فى ذلك قصتهما فى سورة "مريم"

كما جاءت بفتح الباء " البَــــرُّ "مرة واحدة، وصفا لله سبحانه : " **إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ**"(٢) أى العطوف على عباده ببره ولطفه .

وجاء من مادة " البر " الفعل المضارع ، مرتين : فى البقرة : **(وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ..)**(٣) وفى " الممتحنة " : **(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ**

---

(١) عبس ٨٠ /١٥، ١٦ .
(٢) الطور ٥٢ / ٢٨
(٣) البقرة ٢ / ٢٢٤

يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم..)[1]

ولعل أجمع آية فى بيان ما يعنيه البر وما يجب أن يكون عليه أهل الإيمان من الصفات والأفعال والأقوال ليكونوا من الأبرار ، ما جاء فى سورة البقرة ، من قوله تعالى : (**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وءاتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وءاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)**[2] فهذه الآية – كما يقول العلامة الآلوسى : جمعت خمس عشرة خصلة ، ترجع إلى ثلاثة أقسام : فالخمسة الأولى : تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل صحة الاعتقاد ، وهى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، والستة التى بعدها تتعلق بالكمالات النفسية ، التى هى من قبيل حسن معاشرة العباد ، وأوليا : وآتى المال ..وآخرها " وفى الرقاب " والأربعة الأخيرة تتعلق بالكمالات الإنسانية التى هى من قبيل تهذيب النفس ، وأوليا : " وأقام الصلاة " وآخرها " وحين البأس " يقول الإمام الآلوسى : ولعمرى من عمل بهذه الآية ، فقد استكمل الإيمان، **ونال أقصى مراتب الإيقان)**[3]

---

(١) الممتحنة ٦٠ / ٨

(٢) البقرة ٢ /١٧٧

(٣) روح المعاني : للآلوسي ٢ /٤٨

وقد جاءت السنة المشرفة مؤكدة ومقررة لهذه المعانى ، ومبينة الطريق المؤدى إليها ، ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : **عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدُق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقا ،وإياكم والكذب ، فإن الكذب يَهْدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب حتى يُكْتب عند الله كذابا**)[1]

وهناك بر الوالدين ، وبر الأهل والأقارب ، ومحبة الله للأبرار الأتقياء الأخفياء "[2]. " والناس رجلان : بَرٌّ تقى كريم على الله ، وفاسق شقى هين على الله .. "[3] " والبر : ماطمأنت إليه النفس ، أو ما اطمأن إليه القلب " " والبر : حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى نفسك " ..

من هذا وغيره – وهو كثير فى سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يتضح لنا أن البر هو أعلى درجات الإيمان ، بل هو درجة الإحسان التى جاءت فى حديث جبريل حين سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال له فى الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ,, وعلى أهل الإيمان أن يبذلوا قصارى جهدهم – متعاونين فيما بينهم – إن كانوا مؤمنين حقا ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى – واللفظ من رواية الترمذى

(٢) رواه ابن ماجه فى الفتن .

(٣) رواه الترمذى فى التفسير

لجعل هذا البر – بكل ما فيه من خير للأفراد والجماعات – واقعا ملموسا في حياتهم .. لينالوا السعادة في الدنيا والآخرة .

أما التقـــوى : فهي الأمر الثاني الذي أمـــر الله المؤمنين بالتعاون من أجل تحقيقه (١) ، وهذه الكلمة مؤلفة من : الواو ، والقاف ، والياء ، وهي كما يقول ابن فارس : كلمة واحدة تدل على دفع شيئ عن شيئ بغيره "(٢) فأنت تدفع عن نفسك عذاب النـــار بالإيمان والعمــل الصـالح ، وتدفع التهمة عن نفسك بالابتعاد عن مظان الشبهات .. وهكذا

وقد وردت كلمة التقوى في القرآن ٢٤٣ مرة ، وما ذلك إلا لما لها من منزلة في دين الله ، فهي غاية الغايات ، وإذا كان الله قد خلق الخلــق لعبادته، فإن عبادته من أجل تقواه ، قال تعالى : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(٣) وهي الهدف مما شرع : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(٤) (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(٥) وهي وصية الله لنا ولأهل الكتاب من قبلنا ، قال تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ)(٦)

والمتقون هم أصحاب الصفات العظيمة ، وما ذكرناه في صفات

---

(١) انظر / فصل : إن الله يحب المتقين – من كتاب : المسلم في عالم اليوم جـ ١ : للمؤلف

(٢) معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٦ / ١٣١

(٣) البقرة ٢ / ٢١

(٤) البقرة ٢ /١٧٩

(٥) البقرة ٢ / ١٨٣

(٦) النساء ٤ / ١٣١

الأبرار نذكره فى صفات المتقين ، فقد ختمت آية البر بقوله : " أولئك **الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** " فالمتقون هم الأبرار وهم الصادقون .

وفى السنة وأقوال السلف – فى بيان التقوى وآثارها فى إصلاح الأفراد والمجتمعات – الكثير لهذا جاء الأمر للمؤمنين بالتعاون لتحقيق تلك الغايات النبيلة ، والأهداف العظيمة التى حملتها هذه الكلمة ..

وفى مقابل هذا الأمر بالتعاون على البر والتقوى ، يأتى النهى عن التعاون على الإثم والعدوان ..

و " **الإثم** " فى اللغة هو : البُطْء والتأخر ، يقال : ناقة آثمة ، أى متأخرة ، والإثم : مشتق من ذلك ، لأن ذا الإثم بطىء عن الخير متأخر عنه "(١).

وقال ابن منظور : الإثم: الذنب وقيل : هو أن يعمل ما لايحل له، وتأثم الرجل : تاب من الإثم واستغفر منه.."(٢)

وقد وردت مادة " **الإثم** " فى القرآن ٤٨ مرة ، ولو تأملت فى الآيات التى وردت فيها ، لوجدت أنها تشمل الكثير من الذنوب والمخالفة لأوامر الله وتعدى حدوده ، من الإشراك بالله والقتل وارتكاب الفواحش وأكل أموال الناس بالباطل وأكل الربا ، والانحراف عن طريق الحق ، ومن سار فى هذا الطريق ،واستمر في هذه الذنوب فهو الأثيم ، والويل له من عذاب الله : " **وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٧)يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** " (٣)

---

(١) انظر / معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ١ / ٦٠

(٢) انظر : لسان العرب : لابن منظور ١ / ٢٨ ، ٢٩

(٣) الجاثية ٤٥ /٧،٨

وهو محروم من محبة الله ، ومن يحرم من محبة الله يبوء بالخسران المبين ، ولذلك نرى فى آيات الربا قول الله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)(١)

ونرى فى تزوير الحقائق ، والكذب ، واتهام الناس بالباطل قول الله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا(١٠٥)وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(١٠٦)وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) إلى أن يقول : (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)(٢)

والإشراك بالله أعظم ألوان الإثم ، وفيه قول الله سبحانه } إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشركْ بالله فقد افترى إثما عظيما { وبعد هذه الآية فى الإشراك بالله نقرأ قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا(٤٨)أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا(٤٩)انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا}(٣)

إلى غير ذلك من الآيات التى تبين لماذا لايحب الله من كان خوّانا أثيما ، وحين يتعاون الخائنون والكاذبون ،والآثمون والأفّاكون والمعتدون ، يكون الشر والبلاء والدمار والخراب والشقاء ، ويشيع

---

(١) البقرة ٢ / ٢٧٦
(٢) النساء ٤ / ١٠٥ – ١١٢
(٣) النساء ٤ / ٤٨ – ٥٠

الفساد والظلم ، وتنتشر الفاحشة وسوء الأخلاق والانحلال الذى يؤدى إلى تدمير قوى الإنسان وزوال مجده وحضارته ، ولذلك نبه الله المؤمنين إلى وجوب الوقوف صفا واحدا فى وجه هذا الخطر ، حين بين للمؤمنين أن الكافرين والمفسدين حزب واحد ، هو حزب الشيطان ، وبالتالى لا بد أن يكون المؤمنون حزبا واحدا ، هو حزب الرحمن ، وذكر أن الكافرين بعضهم أولياء بعض ، وأن على المؤمنين أن يكون بعضهم أولياء بعض، وجعل هذه الموالاة عنوان الإيمان الصحيح فقال : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} (١) أى إن لم تكن لكم ولاية فيما بينكم ترد كيد الكافرين ، انتشرت الفتنة وعم الفساد فى أرض الله مما لايعلم إلا الله ما فيه من خطر وبلاء ، كما قال تعالى : { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠)الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}(٢) وقال: { لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير}(٣) وقال : {ياأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين}(٤)

---

(١) الأنفال ٨ / ٧٣
(٢) الحج ٢٢ / ٤٠ ، ٤١
(٣) آل عمران ٣ / ٢٨
(٤) المائدة ٥ / ٥١

ولذلك كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يسأل ربه الغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم (١) ويستعيذ بالله من المأثم والمغرم (٢)ويبين أن البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس (٣) وهذا بيان لمن سأله عن البر والإثم ، وإلا فالإثم:كل ذنب ؛ وكل مخالفة لأمر الله ، كما وردت بذلك الأحاديث الكثيرة التى تذكر ألوانا من الذنوب سماها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – آثاما .

أما العدوان : وهو الأمر الثانى الذى نهى الله المؤمنين أن يتعاونوا عليه فهو : الظلم الصُّراح ، والاعتداء : مشتق من العدوان " (٤) والتعدى : مجاوزة الشيء إلى غيره ، وقد اقترن العدوان بالإثم فى خمسة مواضع من ثمانية مواضع ذكر فيها العدوان فى القرآن الكريم ، منها ما جاء فى بنى إسرائيل فى قول الله تعالى : {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ(٨٤)ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}(٥) وفى قوله فى

---

(١) رواه الترمذى فى الوتر ، وابن ماجه فى الإقامة

(٢) رواه البخارى

(٣) رواه مسلم فى البر ، والترمذى فى الزهد

(٤) انظر : معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٤ /٢٤٩

(٥) البقرة ٢ /٨٤، ٨٥

ـــائدة " : { وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٦٢)لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَــنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}(١)ومنها ما جاء في اليهود والمنافقين ، وذلك ما نقرؤه في قول الله تعالى : { أَلَمْ تَــرَ إِلَــى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْــهُ وَيَتَنَــاجَوْنَ بِالْــإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّــكَ بِــهِ اللَّــهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَــهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}(٢) ومنا ما جاء توجيها لأهل الإيمان لئلا يسلكوا مسالك اليهود والمنافقين قال تعالى : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُــوا إِذَا تَنَــاجَيْتُمْ فَلَــا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُــوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}(٣) وقيل بأن الخطاب فـــي الآيــة للمنــافقين واليهود ، والمعنى : يامن ادعيتم الإيمان بموسى وما جاء بــه ، ويــامن آمنتم بألسنتكم ولم تؤمن قلوبكــم .. إذا تنــاجيتم فــلا تتنــاجوا بــالإثم والعدوان

أما الموضع الخامس : فهو الآية التي نتدارسها وفيها : **وتعــاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ..**

وقد جاءت كلمة " العدوان " مفردة في ثلاثـــة مواضـــع – فــي البقـــــرة : في الحديث عن مرحلة من مراحل الجهاد الإســلامي ، وهي قتال من قاتل المسلمين دون من لم يقاتلهم ، ومـــن الآيــات التــي تتحدث عن ذلك قوله تعالى : {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ

---

(١) المـــائدة – ٥ / ٦٢،٦٣
(٢) المجادلة ٥٨ / ٨
(٣) المجـــادلة ٥٨ / ٩

لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}(١) وفى "النساء" فى بيان جزاء من تعدى حدود الله فأكل أموال الناس بالباطل ، أو اعتدى على نفسه أو على نفس غيره بالقتل ، حيث يقول تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(٢٩)وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}(٢) وفى "القصص" فى قصة موسى – عليه السلام – حين تم الاتفاق بينه وبين صهره أن يأجره ثمانى حجج فإن أتم عشرا فمن عنده ، قال موسى فيما ذكره الله عنه : { ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}(٣)

من هذا الجمع للآيات التى وردت فيها كلمة " العدوان " يتضح لنا أن العدوان كثيرا مايقترن بالإثم معطوفا عليه ، ليبين لنا ربنا لونا بشعا من ألوان الإثم ، وهو ما يحمله الإثم من الظلم ومجاوزة الحد مما تنفر منه الفطر السليمة ؛ وتعافه المبادئ الإنسانية الجامعة ، والتعاون على هذا العدوان – بما فيه من ظلم وجفوة وتجاوز – يجعله خطيرا مدمرا مهلكا ، كما نرى من تعاون قوى الضلال والشر والكفر على تدمير كثير من البلاد وإفناء كثير من العباد ، ونشر للفاحشة والفساد، والمؤمنون ليس ليم ذلك ، ومن هنا جاء النهى لهم : " ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب "

---

(١) البقرة ٢ / ١٩٣

(٢) النساء ٤ / ٢٩ ، ٣٠

(٣) القصص ٢٨ / ٢٨

وإذا كان " **الاعتداء** " مشتق من " **العدوان** " – كما يقول ابن فارس وغيره ، فكل ما جاء من هذه المادة فى القرآن داخل فيما نحن بصدد الحديث عنه ، والكلمات حيثما وردت تعبر عن لون من ألوان الاعتداء والعدوان ، فلنتأمل بعض هذه الكلمات والمواضع التى وردت فيها :

هناك حدود الله وشرعه فى العلاقات الزوجية ، وما يكون هناك من طلاق وعدة ورجعة وفسخ ، وما تتعرض له هذه العلاقات من تمزق يجد الشيطان له في ذلك مدخلا ، وأهل الإيمان يجب عليهم قطع الطريق على وساوس الشيطان حتى إذا عادت العلاقة عادت بعد تجربة ناجحة ودرس فيه مصلحة الأزواج والأبناء ، يقول تعالى في ختام الآيات التى تحدثت عن ذلك في سورة البقرة : (**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**) وفي الآية التالية : (**فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) وفى الآية التى تليها يقول سبحانه : (**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ..**) (١)

وفى سورة " الطلاق " فى ختام الآية الأولى : { **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا**}(٢)

وهناك – أيضا – ما شرعه الله فى تقسيم التركات ،ومسا لليتامى

---

(١) البقرة ٢/ ٢٢٩ -٢٣١

(٢) الطلاق ٦٥ /١

والنساء من حقوق ، وفى ختام ذلك يقول عز من قائل : **{تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٣)وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ } (١)**

وفى بنى إسرائيل نرى قول الله تعالى فى بيان اعتدائهم على حرمة يوم السبت : **{وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}**(٢) وقوله **{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}** (٣) أى يعتدون فى يوم السبت بصيد الحيتان ، وقد نهوا عن ذلك، وفى بيان اعتدائهم على أنبيائهم وتعديهم لحدود الله ، وأن هذا كان من الأسباب التى ضرب الله بها عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله يقول تعالى : **{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}** (٤)وقريب من ذلك ماجاء فى "البقرة" وفى "المائدة " يقول تعالى : **{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}**(٥)

ومما جاء فى نهى المؤمنين عن الاعتداء قوله : **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**

---

(١) النساء ٤ / ١٣، ١٤

(٢) النساء ٤ / ١٥٤

(٣) الأعراف ٧ / ١٦٣

(٤) آل عمران ٣ / ١١٢

(٥) المائدة ٥ /٧٨

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}(١) وهذا النهى يمثل مرحلة من مراحل الجهاد الإسلامي ، وقد تبعها الأمر بإعلان الجهاد العام بعد أن قويت شوكة الإسلام وثبت أن أعداء الله لن يتركوا نور الحق يضيئ للناس الطريق ، قال تعالى : {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }(٢)

وقبل نزول " براءة " والأمر بقتا ل المشركين كافة ،كانت هناك معاهدة الحديبية فى العام السادس بعد أن أصر المشركون في مكة على منع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين معه من دخول مكة لأداء العمرة ، فأراد المسلمون أن يمنعوا المشركين من الوصول إلى البيت الحرام جزاء ما صنعوا ، فنهاهم الله عن ذلك ، وعد هذا – لو حدث – عدوانا فقال : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وإذا حللتم فاصطادوا ، ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا }(٣) فهكذا يعتقد المشركون أنهم يقصدون البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ، واستمر هذا إلى أن جاء الأمر بمنع المشركين من دخول مكة ونزل قوله :{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا..}(٤)

وهناك لون من الاعتداء المنهى عنه نراه فى التشدد فى دين الله بغير دليل ،ولا بد أن نفرق بين التشدد والالتزام ، فالالتزام انضباط

---

(١) البقرة ٢ / ١٩٠
(٢) التوبة ٩ /٣٦
(٣) المائدة – ٥ / ٢
(٤) التوبة ٩ / ٢٨

بالكتاب والسنة ، وهو واجب على كل مسلم ، أما التشدد فهو انفلات وتطرُّف لا يستند إلى دليل ، ومثال ذلك ما جاء في من أرادوا أن يُحرِّموا على أنفسهم بعض ما أحل الله ، مبالغة منهم في الزهد والتقشف فنهوا عن ذلك وقال لهم ربهم : **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(٨٧)وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}** (١)

بل إن الدعاء – وهو مخ العبادة – إن لم يلتزم بالضوابط الشرعية فهو اعتداء ، قال تعالى : **{ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }**(٢)

وفى هذا يروى الإمام أحمد بسنده أن سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنه – سمع ابنا له يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوا من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، فقال : لقد سألت الله خيرا كثيرا ، وتعوذت بالله من شر كثير ، وإنى سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : **{سيكون قوم يعتدون فى الدعاء ، وقرأ هذه الآية (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) الآية – وإن بحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أوعمل }**(٣)

وتجاوز ما أحل الله من النساء إلى علاقات غير مشروعة اعتداء،وأى اعتداء ، ولهذا جاء فى دعوة لوط – عليه السلام – لقومه ليقلعوا عما يرتكبونه من الفاحشة ، ما ذكره الله تعالى : **{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ**

---

(١) المائدة – ٥ / ٨٧ ، ٨٨
(٢) الأعراف ٧ / ٥٥
(٣) مسند الإمام أحمد : ١ /١٢٧ ، وسنن أبى داود : كتاب الصلاة ، باب الدعاء

مِن الْعَالَمِينَ(١٦٥)وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُم قَوْمٌ عَادُونَ}(١)

وهذا الذى فعلوه جهل وإسراف ، وكلاهما عدوان ، ولهذا نقرأ فى الأعراف " قول الله تعالى : { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ(٨٠)إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}(٢)

وفى " النمل " يقول تعالى : {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ(٥٤)أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}(٣)

كما جاء فى صفات المؤمنين المفلحين قوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦)فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}(٤)

من هذا يبدو لنا لماذا أمر الله المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى ، ونهاهم عن الإثم والعدوان ، فبالتعاون على البر والتقوى تسعد الدنيا ، وينتشر الأمن ، وتبنى الحضارات ، ويؤدى الإنسان وظيفته فى هذه الأرض وفق منهج الله ، أما التعاون على الإثم والعدوان فهو شقاء وبلاء ودمار وخراب وضياع وهدم للقيم والمبادئ والأخلاق الفاضلة ، ولهذا جاء ختام الآية يأمر بالتقوى ويخوف من عذاب الله فيقول : وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب .

---

(١) الشعراء ٢٦ / ١٦٥ ، ١٦٦
(٢) الأعراف ٧ / ٨٠ ، ٨١
(٣) النمل ٢٧ / ٥٤ ، ٥٥
(٤) المؤمنون ٢٣ / ٥ – ٧

٤ - صور للتعاون المحمود :

الحياة كلها قائمة على التعاون ، فى عالم الإنسان ، وعالم الحيوان ، وعالم الطيور وغير ذلك من مخلوقات الله ، ومن يتأمل مملكة النحل أو النمل أوغير ذلك يدرك أنها بدون تعاونها لاتستطيع البقاء ، وفى عالم الإنسان ، ماذا نرى ؟ نرى أن الله خلق الإنسان وركبه من أعضاء وأجهزة تعمل فيما بينها بنظام ربانى يقوم على تناسق وتناغم وتعاون ، لايستغنى عضو عن عضو ، ولا جهاز عن جهاز ، وهذا الإنسان يعيش مع جماعة من بنى جنسه كل منهم محتاج إلى الآخر ، فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ومركبه وما إلى ذلك مما تقوم به حياته ، ولو تأملنا شيئا من ذلك لطال بنا الحديث ، فهذا رغيف الخبز الذى نأكله : كم من الأيدى شاركت فى إعداده ؟ من الزارع والحاصد والخابزوالبائع وغيرهم ، وهذا لون من التعاون بين الناس ، ومثل رغيف الخبز كثير مما ننتفع به مما يعود بالخير على كل من يشارك بجهد ، ليكون الخير سمة لحياة الناس . وفى الأسرة لاتتم السعادة إلا بتعاون أفرادها وأداء كل منهم لواجبه ، وفى المجتمع ، على تنوع أشكاله : من مجتمع القرية إلى مجتمع المدينة، ومن مجتمع المدرسة والمصنع والمتجر إلى غيره من المجتمعات ، تبرز الحاجة للتعاون المحمود، وإلا شقى الجميع ولم يحققوا أهدافهم ، وهناك العديد من صور التعاون المحمود تراه فى الجمعيات التعاونية:زراعية ، أو صناعية أو استهلاكية ،كما نراه فى الجمعيات الخيرية وما تؤديه من خدمات للناس .

وفى تاريخ الإنسانية كثير من صور التعاون المحمود وما أدى إليه من قوة وعزة وسعادة ، ذكرنا من ذلك ما كان من أمر ذى القرنين ، .

ونذكر منه ما كان في بناء الحضارة الإنسانية عبر مراحل التاريخ البشري ، وكيف أن كل جيل يأتي إنما يبني على ما بناه جيل سابق ، وهناك تاريخ الرسالات السماوية شاهد على ذلك ، ولهذا نجد القرآن يقول (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٤٥)وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤٧)وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)([1]) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:(**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ،فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون:هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**) ([2])

وما قامت للإسلام دولة إلا بتعاون المسلمين وترابطهم وتآزرهم حتى كانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ،ونزل بهم من العذاب في مكه مايهد الجبال الرواسي فما لانوا وماهانوا حتى اضطروا للهجرة إلى

([1])المائدة :٥/٤٥-٤٨

([2])رواه البخاري ٦/٤٠٨ في : "الأنبياء"/باب:خاتم النبيين ،و"مسلم"في "الفضائل"/باب:ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين.

الحبشة مرتين ثم كانت هجرتهم إلى المدينة ،وفى الهجرة ألوان من التعاون لاتخفى ،وهناك فى المدينة أشرقت صور من التعاون فى سماء هذه الدنيا ،منها ما كان من عقد المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين،وبه كان التوارث قبل نزول آيات المواريث ،ومنها ما كان من تعاونهم فى بناء المسجد حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل بنفسه معهم الحجارة حتى تم البناء فكان المسجد مدرسة ومركز إشعاع ،ومكانا تعقد فيه اجتماعات السلم والحرب ،فضلا عما أعد له من أداء العبادات وتوزيع الصدقات والزكوات ..

ومن صور التعاون :ما نراه فى حفر الخندق ،الذى سميت به غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ،وكيف استطاع المسلمون ـ بفضل تعاونهم ـ حفر هذا الخندق الذي لم يكن للعرب فى حروبهم به عهد،فكان سببا لصد هجمة المشركين وأعوانهم من اليهود والمنافقين عن المدينة إلى أن من الله على المؤمنين بنصره،قال تعالى: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(٩)إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا(١٠)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا] (١)

ومن صور التعاون ما كان فى الجهاد الإسلامي من بذل وعطاء،فهناك من يشارك فى الجهاد بنفسه وماله ، وهناك من يشارك بنفسه مستعينا بما يبذله غيره من المسلمين فى تجهيز المجاهدين .

---

(١) الاحزاب ٣٣/ ٩-١١

وفى انتقالهم إلى أرض المعركة قد يقطعون المسافات الطويلة فيتعاقبون ما عندهم من الإبل ،يركب كل منهم لمسافة ثم ينزل فيركب الآخر .وهكذا .

وحين يلتقون بأعدائهم تراهم صفا واحدا لا يفرون ولا يتخاذلون،لأنهم يريدون أن يظفروا بمحبة الله لهم ،وقد قال تعالى :[**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**](1).

٥- أثر التعاون :

أ ــ أثر التعاون المحمود فى حياة بنى الإنسان :

بالتعاون المحمود حظى الناس بالكثير من الخير ،وبخاصة هذا التعاون المنبثق من الإيمان بالله ورسوله ،فإن هذا الإيمان يحرك المشاعر،ويسمو بها عن الأغراض الدنيئة والمطالب الهابطة ،والمتاع الرخيص،ويجعل الغاية من التعاون رضا الله والدار الآخرة،فالمؤمنون أمة واحدة تتواصل عبر مراحل الرسالات من لدن آدم إلى ان ختمت الرسالات والنبوات بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ولذلك يقول تعالى بعد ان ذكر من الأنبياء ما ذكر: **إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ(٩٢)وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ**)(2)ويقول فى سورة "المؤمنون "بعد أن ذكر من قصص الأنبياء ما ذكر : (وَإِنَّ هَٰذِهِ

---

(١) سورة الصف ٦١/٤

(٢) الأنبياء٢١/٩٢.

أمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)([1])والمؤمنون من أمة محمد –صلى الله عليه وسلم – تجمعهم أخوة الإيمان يقول ربنا :" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُون إِخْوَةٌ.."([2]) هكذا بأسلوب يفيد القصر ،قصر المؤمنين على صفة من أعظم الصفات ،وهى صفة الأخوة،والتي تفوق أخوة النسب والدم ،وقد حقق هذا التعاون ما طلبوه من رضوان الله ونصره وتأييده ،لأن الله مولاهم وحافظهم :" ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ " ([3])"يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار "([4])وكان لهم بهذا التعاون التمكين فى الأرض والشرف والمنعة،وسعة الأرزاق وبسطة العيش ،وهكذا كل جماعة تعاونت فيما بينها على الخير حققت لنفسها الكثير من الخير،حتى وإن كانت لاتؤمن بالله ورسله وتطلب الدنيا وما فيها،تحقيقا لسنة الله فى خلقه،حيث يقول:" مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ(١٥)أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "([5])وهذه هى الولايات المتحدة الأمريكية،باتحاد ولاياتها وتعاونها أضحت القوة العظمى فى التاريخ الحديث،وهذه هى الدول الأوربية قد اتحدت فى سوق تجارى يعرف بالسوق الأوربية المشتركة،وأصدرت

---

(١) المؤمنون ٥٢/٢٣

(٢) الحجرات٤٩/١٠

(٣) سورة محمد ١١/٤٧

(٤) رواه الترمذي في كتاب الفتن–عن عبد الله بن عمر

(٥) هود١١/١٥،١٦

عملة أوربية مشتركة هى"اليورو"فأدى هذا إلى قوتها ورفاهية شعوبها،وإن كانت هذه الرفاهية،وتلك الوفرة فى ألوان الطعام والشراب ووسائل الترفيه والتسليه،كل ذلك لم يوفر للناس السعادة واطمئنان القلب لغياب عنصر مهم من أهم عناصر السعادة إن لم يكن هو العنصر الذى لاعنصر سواه، ذلكم هو الإيمان الحق الذى جاء به الإسلام كما نراه فى حال الأمة الإسلامية فى عهد رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وعهد خلفائه من بعده،وكيف شرَّقت هذه الأمة وغرَّبتْ وانتشر دينها فى العالمين وذاق الناس فى ظلها طعم الأمان والسلام..

ب ـ أثر التعاون المذموم:

وإذا كانت هذه بعض الثمرات اليانعة الطيبة المباركة للتعاون المحمود ففى مقابلها ثمرات مرة للتعاون المذموم ومأأدى إليه من نكبات وويلات وشقاء،إنه تعاون لاخير فيه،وهل فى تعاون المجرمين والظالمين والمفسدين على تحقيق أغراضهم الخبيثة خير؟؟سواء كان ذلك على مستوى الجماعات الصغيرة وهؤلاء الذين يعيثون فى الأرض فسادا،يروعون الآمنين،ويسرقون عرق الكادحين،وينشرون الفاحشة فى كل مكان،ويتاجرون فى الأعراض والمخدرات،أو كان على المستوى الدولى فى محاربة دعاة الخير،والعمل الدءوب على نشر الفساد فى الأرض،والاعتداء على حق الشعوب فى الأمن والحياة الكريمة،ولا حيلة لردع هؤلاء المعتدين إلا بتعاون دعاة الخير حتى يتم لهم نصر الله: **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ "**[1]

([1]) البقرة٢٥١/٢

٦- مدى حاجتنا إلى التعاون:

من هذا يتضح لنا مدى حاجتنا إلى التعاون على البر والتقوى،لأن هذا التعاون هو صمام الأمان للأفراد والجماعات والشعوب والأمم،وبه تتحقق الغايات العظيمة والآمال الكبيرة،ويحيا الناس فى أمن وعيش رغيد وعزة ومنعة،وهذا ما ذكَّر الله به المؤمنين وأمرهم به حين قال:[وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠٣)وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤)وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥)يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(١٠٦)وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ](١)صدق الله العظيم.

---

(١)آل عمران٣/١٠٣-١٠٧

٢ الـــوفاء

من أخلاق القرآن : الـــــــوفاء ... فما هو الوفـــاء فـــي لغتنـــا العربية ؟ وكيف عبرت عنه آيات القرآن الكريم؟ وفي أي الجوانب يكون الوفاء ؟ وهل هناك علاج في كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم –لمن انحرفوا عن طريق الوفاء ؟ تساؤلات نطرحها لنستكشف حقيقة هذا الموضوع ..فنقول وبالله التوفيق :

١– الوفاء في اللغة :

يقول ابن منظور في لسان العرب : الوفاء : ضد الغدر ، يقـــال : وفيّ بعيده وأوفى بمعنًى ، ويقال أوفيت بالعهد ووفيْتُ بالعـــهد ، وكل شئ في كتاب الله تعالى من هـــذا فـــهو بـــالألف ، قـــال الله تعالى:"**أوفوا بالعقود** " " **وأوفوا بعهدي** " ويقال : وفـــىَ الكيـــلُ ، ووفىَ الشيءُ : أي تم، وأوفيته أنا : أتممتـــه.." ([1]) وفـــي معجـــم مقاييس اللغة: لابن فارس :(وفى) الـــواو ،والفـــاء ، والحـــرف المعتل: كلمة تدل على إكمال وإتمام ، ومنه الوفاء : إتمـــام العـــهد وإكمال الشرط ، ووفىَ: أوفى ، فهو وفيٌ وأوفيتـــك الشـــيء : إذا قضيته إياه وافيا ، وتوفيت الشيء واستوفيته : إذا أخذته كله، حتـــى لم تترك منه شيئا..) ([2])

وقريب من هذا ما ذكره الراغب في مفردات ألفاظ القرآن إذ يقول: الوافي الذى بلغ التمام ؛ يقال : درهم وافٍ، وكيل وافٍ ،وأوفيـــت الكيل والوزن ،قال تعالى : وأوفوا الكيل إذا كلتم " ووفىَ بعهده يفي

([1]) انظر لسان العرب : لابن منظور صـ ٦ صـــ ٤٨٨٤ ، ٤٨٨٤

([2]) معجم مقاييس اللغة : لابـن فارس صـــ ٦ صـــ ١٢٩

وفاء وأوفى : إذا تمَّم العهد ولم ينقض حفظه ، واشتقاق ضده وهو الغدر يدل على ذلك وهو الترك ، والقرآن جاء بأوفى ، ثم يسوق الراغب بعض الآيات في ذلك ([1]).

فالوفاء في لغتنا العربية – إذاً –كلمة تدل على التمام والكمال، ومثل هذا التمام والكمال لايأتى في الأقوال والأفعال إلا بجهد ومجاهدة ، وذلك لا يكون إلا بإيمان يشتعل نورا في القلوب والجوانح فيدعو صاحبه إلى ضبط خطاه على وقع كتاب الله وهدى رسوله – صلى الله عليه وسلم –حتى إذا ما تم القول أو الفعل وجدته وقد جاء مشرقا بنور الله ، تنشرح له الصدور والقلوب والعقول (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) ([2])

<u>٢- الوفاء في القرآن الكريم :</u>

وردت مادة الواو، والفاء ، والياء في القرآن الكريم ٦٦ مرة ، وهى في كل مرة تدل على التمام والكمال ، والذي يعنينا من المواضع التي ذكرت فيها ما جاء يدل على الخلق والسجية ، كالوفاء بالعهد، أو بالنذر ؛ أو بالمكيال والميزان ، أما ما جاء من توفية الله لآجال عباده فلا صلة له بموضوعنا .

والآيات التي جاءت دالة على الخلق والسجية نراها مبثوثة في كتاب الله تدعو إلى التخلق بخلق الوفاء ؛ وترغب فيه، فهي تذكر ما كان من إبراهيم الخليل – عليه السلام –فتقول : (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى(٣٦)وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)([3])

([1]) معجم مفردات ألفاظ القرآن : للراغب الأصفهاني صـ ٥٦٥

([2]) النور ٢٤ / ٤٠

([3]) النجم ٥٣ / ٣٦، ٣٧

وهذه صفة جمعت لإبراهيم كل صفات الخير التي استحق بها أن يكون خليل الرحمن ، وأن يكون للناس إماما ، قال تعالى :{ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**..}([1]) وقال : {**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا** }([2])

يقول ابن كثير في بيان ما وفّى به إبراهيم – عليه السلام -: { قام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي ، وبلغ الرسالة على التمام والكمال فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يقتدي به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله ، قال الله تعالي : {**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**}([3])

وقال ابن عباس : وفّى بسهام الإسلام كلها ولم يوفها غيره ، وهي ثلاثون سهما ، منها عشرة في براءة (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) الآيات ، وعشرة في الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات ..) الآية ، وست في قد أفلح المؤمنون –الآيات التي في أوليا ، وأربع في سأل سائل (والذين يصدقون بيوم الدين..الآيات ، يقول العلامة الآلوسي- بعد أن ذكر قول ابن عباس هذا وغيره من الأقوال : والأولى العموم ، وهو مروى عن الحسن، قال : ما أمره الله بشيء إلا وفى به ، وتخصيصه – عليه السلام – بهذا الوصف لاحتماله مالا يحتمله غيره ، وفى قصة الذبح ما فيه كفاية }([4])

([1]) البقرة ٢ / ١٢٤

([2]) النساء ٤ /١٢٥

([3]) تفسير ابن كثير ٤ /٢٥٧، ٢٥٨ – والآية من سورة النحل ١٦ /١٢٣

([4]) انظر روح المعاني – للآلوسي جـ ٢٧ صـ ٦٥

وتربط الآيات بين الوفاء بالعهد وتقوى الله ، فإن تقوى الله هي المحرك والباعث على الوفاء بعهد الله فتقول : { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥)بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧٦)إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٧)وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (1)

فهذا الفريق من أهل الكتاب خان الأمانة وانحرف عن الطريق ، وباع آخرته بدنياه وحرف ما أنزل الله ، وقال على الله الكذب،وهو يعلم أنه كاذب ، فأي خيانة للعهد أبشع من هذه الخيانة ؟

وقد سبقت وصية الله لهم بالوفاء بعهده حتى يكون لهم ما وعدهم به من عزة وتمكين ، وذلك قوله تعالى : { يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠)وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١)وَلَا تَلْبِسُوا

---

(1) آل عمران ٣ / ٧٥ – ٧٨

الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٤٢)وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} ([1])

ولكنهم خانوا العهد وكفروا بآيات الله قال تعالى : { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ(٩٩)أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(١٠٠)وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(١٠١)} ([2])

والآيات في نقض أهل الكتاب لعهدهم ، وما ترتب على ذلك من ذلة ومسكنة ضربها الله عليهم ، وما حل بهم من غضب الله وسخطه- الآيات في ذلك كثيرة ، ومنها ما جاء في : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغير ذلك مما ورد فيه الحديث عن أهل الكتاب ، وما كان لهم من سلوك منحرف ، وعداء ظاهر للإسلام وأهله ، وأن هذا السلوك من الخيانة والغدر وتحريف آيات الله بدأ منذ وقت مبكر في حياتهم حتى وصلوا إلى هذه النهاية التعسة بما فيها من شقاء أبدي ، كما قال تعالى : { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}([3]) وكما

([1]) البقرة ٢ / ٤٠ -٤٣

([2]) البقرة ٢/ ٩٩/ ١٠١

([3]) آل عمران ٣/ ١١٢

قال سبحانه : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}([1])

وما عليه أهل الكتاب من الفسوق والعصيان والكفر والغدر ؛ هو كذلك خلق لأهل الشرك والنفاق ، فالإيمان صمام الأمان لكل خلق كريم ، فإذا فسد هذا الصمام ضاعت الأخلاق الكريمة والمبادئ السامية – كما سبق أن ذكرنا في صلة الأخلاق بالإيمان – ولذلك يقول تعالى في المشركين : {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٥٥)الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ(٥٦) } ([2]) واقرأ في مطلع سورة التوبة ن للمشركين من مواقف مخزية في نقضهم لعهودهم مع الله ورسوله وكيف أمر الله باستئصال شأفتهم والقضاء عليهم ، وقال فيما قال للمؤمنين : { أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(١٣)قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ(١٤)وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٥)}([3])

وفي سورة " الأعراف " يقص الله علينا ما كان من أمر قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ثم يقول : { تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

([1]) الأعراف ٧/ ١٦٧

([2]) الأنفال ٨ / ٥٥، ٥٦

([3]) التوبة ٩/ ١٣ – ١٥

كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ(١٠١)وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} ([1]) ثم يقص الله علينا – بعد ذلك – ما كان من أمر موسى وقومه ، من أول الأمر إلى نهايته ، من الآية (١٠٣) إلى الآية (١٧١)

أما المنافقون فهم فجرة خبثاء ؛ يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ويحلفون بالله كاذبين ، وينقضون عهودهم مع الله ورسوله ، وآيات سورة " التوبة " – والتي تسمى بالفاضحة ؛ لأنها فضحت هؤلاء المنافقين – تبين ما عليه المنافقون من غدر وخيانة ، واقرأ في ذلك الآيات ، من قوله تعالى : (لو كان عرضا قريبا ... الآيات (من٤٢) إلى أواخر السورة) لترى ما كان عليه هذا الصنف من الناس من لؤم وخسة ، وآيات سورة " البقرة " وغيرها من السور التي تحدثت عن المنافقين كالنساء والأنفال والأحزاب والفتح وسورة " المنافقون " كلها تكشف زيف هذا النوع من البشر ، وتقدم دليلا واضحا على ما يريده الله من خلقه من استقامة على منهجه ؛ وأن هؤلاء المنحرفين من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين موضع سخط الله وغضبه ومقته ، وبالتالي فإن المؤمنين الصادقين في عهدهم مع الله موضع محبته ورضوانه وفضله وعظيم عطائه .

ولذلك جاءت الآيات في مدح المؤمنين تقول : { وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)([2]) فهم مراقبون لأحوالهم ؛ حافظون

([1]) الأعراف ٨ / ١٠١ / ١٠٢

([2]) المؤمنون ٢٣/ ٨ ، المعارج ٧٠ / ٣٢

لقلوبهم ونظراتهم وحركاتهم وسكناتهم حتى تمكنوا من الوفاء بعهودهم .

وتقول في " البقرة " في آية البر – التي ذكرت جملة من الصفات العظيمة والأفعال الكريمة للبررة: { وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}([1]) وهؤلاء الأبرار –كما ذكرت سورة" الإنسان"{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا(٧)وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا(٨)إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}([2]) وتصف آيات " الرعد " أولى الألباب بأنهم : الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق .. " وفى مقابل هؤلاء تقول : " وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ"([3])

وفى " الأحزاب" يمدح الله أصحاب رسوله فيقول "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا "([4]) وما أجمله من تعبير : " ومنهم من ينتظر " !! فهذا بيان لحال أصحاب رسول الله – صلى الله عليه

([1]) البقرة ٢/ ١٧٧

([2]) الإنسان ٧٦ / ٧ – ٩

([3]) الرعد ١٣ / ٢٥

([4]) الأحزاب ٣٣ /٢٣

وسلم – كانوا – رضوان الله عليهم – يعيشون في هذه الدنيا لا على آمال كاذبة في دنيا يصيبونها ، إنما على أمل الظفر بالشهادة في سبيل الله ، فهم أحد رجلين : منهم من تحقق أمله وفاز بالشهادة؛ ومنهم من ينتظر أن يحظى بهذا الخير : "فمن لم يغز ولم يحدّث به نفسه مات على شعبة من النفاق"(١) هكذا تعلموا من رسولهم – صلوات الله وسلامه عليه – فما أعظمهم من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقد سبق في السورة –سورة الأحزاب – أن كشف الله عورات المنافقين ، وبين ما هم عليه من تخاذل ونقض للعهود فقال : { ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولُّون الأدبار وكان عهد الله مسئولا } وسوف ينال كل فريق جزاءه : **(لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)** (٢)

وإذا كانت الآيات التي ذكرناها في أهل الكتاب وغيرهم ، والمؤمنين ووفائهم مما يرغب ويرهب في خلق الوفاء ؛ فإن توجيهات القرآن ما زالت تتوالى ، حيث ينادى الله المؤمنين – بصفة الإيمان – ليأمرهم بالتحلي بهذا الخلق الكريم فيقول : { **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**}(٣) قال الحسن : يعني عقود

---

(١) أخرجه مسلم في : الإمارة – باب ذم من مات ولم يحدث نفسه بالغزو ، وأبو داود في الجهاد / باب كراهية الغزو ، والنسائي في الجهاد / باب التشديد في ترك الجهاد ، وأخرجه أحمد في مسنده.

(٢) الأحزاب ٣٣ / ٢٤

(٣) المائدة ٥ / ١

الدّين ، وهى ما عقده المرء على نفسه ، من بيع وشـراء وإجـارة وكراء ومنا كحة وطلاق ومزارعة ومصالحـة وتمليـك وتخيـير وعتق وتدبير وغير ذلك من الأمور ، ما كان ذلك غير خارج عـن الشريعة ؛ وكذلك ما عقده على نفسه من الطاعات ؛كالحج والصيام والاعتكاف والقيام والنذر وما أشبه ذلك من طاعات ملة الإسـلام ، وقال ابن عباس : " أوفوا بالعقود " معناه بما أحل وبما حرم وبمـا فرض وبما حد في جميع الأشياء }([1])

ويقول تعالى في " الأنعام " { **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**}([2]) فهذه وصايا سـورة الأنعام ؛ أساسها الوصية الأولى : توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، وفيها يأمر الله المؤمنين بتوفية الكيل والميزان على وجه الدقة ، وبحسب الطاقة البشرية ، كما يأمرهم بالعدل في القول، ولو كان في هذا القول مايُدين أقرب الناس كما قال تعالى : { **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**}([3]) ثم تأتى الوصية التاسعة بالوفاء بعهد الله ؛ وكأن ما سبق من الوصايا جزء من الوفاء بهذا العهد الإلهي ،

([1]) انظر :الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي جـ ٦ /صـ ٣٢

([2]) الأنعام ٦/ ١٥٢

([3]) النساء ٤ / ١٣٥

وفي مقدمة ذلك العهد الأزلي بتوحيده سبحانه ، وفيه يقول تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(١٧٢)أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ؟ }[1] وفي سورة " يس " يلوم الله الكافرين من بني آدم لعدم وفائهم بهذا العهد فيقول لهم: { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(٥٩)أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٦٠)وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(٦١)وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ(٦٢)هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(٦٣)اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(٦٤)الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[2]

وفي سورة " النحل " يأمر الله بالوفاء بعهده في آيات فيها من الترغيب والترهيب ما فيها فيقول سبحانه : {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ(٩١)وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} إلى أن يقول : {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى

---

[1] الأعراف ٨ / ١٧٢ ، ١٧٣

[2] يس ٣٦ / ٥٩ –٦٥

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ([1])

ففي هذه الآيات لمحات ربانية منها :

(١)- ذكر لفظ الجلالة " الله " تسع مرات ، لتربية المهابة في القلوب ؛ نلمح ذلك في قوله :

١ - " وأوفوا بعهد الله " ٢ - " وقد جعلتم الله عليكم كفيلا "

٣ - "إن الله يعلم ما تفعلون " ٤ - " إنما يبلوكم الله به "

٥ - " ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة "

٦ - " وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله "

٧ - " ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا "

٨ - " إنما عند الله هو خير لكم " ٩-"ما عندكم ينفد وما عند الله باق ".

(٢)- حين قال : " وأوفوا بعهد الله " لم يذكر ما يكون فيه الوفاء ، وذلك لإفادة العموم ، ولذلك قال القرطبي : " وأوفوا بعهد الله " لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للديانة) ([2]) وفى الفخر الرازي – بعد أن ذكر عدة أقوال في المراد بعهد الله قال : (الأولى أن يحمل هذا العهد على ما يلزمه الإنسان باختياره ، ويدخل فيه المبايعة على الإيمان بالله ورسوله ، ويدخل فيه عهد الجهاد ، وعهد الوفاء بالملتزمات من المنذورات، والأشياء التي أكدها بالحلف واليمين)([3])

([1]) النحل ١٦ / ٩١ -٩٧

([2]) تفسير القرطبي جـ١٠ صـ١٦٩

([3]) تفسير الفخر الرازى – المجلد العاشر جـ٢٠ صـ ١٠٩

(٣) بعد أن أمر بالوفاء بالعهد أتبعه بعدة أمور تدعو إلى هذا الوفاء:

منها – في الآية الأولى – قوله " إذا عاهدتم " و "إذا " تدل على تحقق وقوع هذا العهد منهم ، وفى ذلك تذكير لهم بعهدهم مع الله ، وكأنه يقول لهم : أنتم الذين ألزمتم أنفسكم بالعهد مع الله ، فلا بد – إذًا – من الوفاء .

ومنها : النهى عن نقض ما أقسموا عليه قسمًا مؤكدا ، بأن أقسموا المرة تِلْو المرة وأكدوا ذلك بما ذكروا من أسماء الله وصفاته .

ومنها : أنهم حين أقسموا على ما عاهدوا الله عليه جعلوا الله شاهدا عليهم ، وهذا معنى الجملة الحاليَّة " وقد جعلتم الله عليكم كفيلا " .

ومنها : ختام الآية بقوله " إن الله يعلم ما تفعلون " والمراد لازم العلم من المجازاة بالثواب لمن وفَى ، والعقاب لمن غدر ونقض .

وفى الآية الثانية : [ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها .. الآية] ينفرهم من نقض عهدهم مع الله ، وهو يشبه حال الناقضين لعهودهم بحال هذه المرأة الخرقاء التي تبذل جهدها في إحكام خيوط غزلها ثم تعود لتنقض هذه الخيوط المحكمة ، ويقال إن هذه المرأة كانت بمكة ،واسمها ريطة بنت سعد بن تَيْم القرشية ، كانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن ، وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، يقول ابن كثير : وهذا القول أرجح وأظهر ، وسواء

كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا " ([1]) أقول : لكن إذا كان بمكة امرأة هذا حالها فضربُ المثل بها أوقع في النفس ، ولعل هذا ما لفت إليه القرآن أنظارهم ، وبخاصة ، وأن الآيات مكية .

ثم ينكر عليهم سلوكا مشينا ، أساسه المصالح الضيقة التي لاتبالى عهدا ولا ذمة ، فيقول : " **تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أُمّة هي أربى من أمة ؟** " وهو استفهام إنكاري ، يقول لهم ربنا : كيف تتخذون أيمانكم خديعة ومكرا ودهاء ، إذ ما إن رأيتم جماعة أقوى من التي حالفتموها وعاهدتموها حتى نقضتم عهدكم معها ، رغبة في القوة والمنَعة ، [وهذا يصدق على من نقض عهده مع جماعة ضعيفة لينضم إلى جماعة قوية لأنه ضعيف يريد أن يقْوى بغيره ، أو قوى يرى أنه لا فائدة في محالفته للضعيف ، إنما يريد قويا يزداد به قوة] ولذلك قال الفرّاء : المعنى : لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم وقد عزَّزْتموهم بالأيْمان " ([2])

وفى ختام الآية يبين الله لهم أمرين ، أولهما : أن ما أمرهم به من الوفاء بعهده إنما هو اختبار لهم حتى يتميز المحق من المبطل ، ومن يثبت على ما أعطى من عهد وبيعة ، ومن يغتر بقُوى الباطل فينقض عهده مع الله ورسوله ، يقول العلاَّمة البيضاوي في قوله : "إنما يبلوكم الله به " أى يختبركم بكَون أمة أربى من أمة لينظر

([1]) انظر / ابن كثير ٢/٥٨٤

([2]) تفسير القرطبي جـ ١٠ صـ ١٧١

أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله ، أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم " ([1])

أما الأمر الثاني في ختام الآية ، فهو ما جاء في قوله تعالى : (ولَيُبيننَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) فهذا أمر مؤكد بالقسم ونون التوكيد ، وفيه اختيار كلمة " يبيّن " والبيان إيضاح لكل الجوانب حتى لا يخفى منها شيء ، وفيه كلمة " لكم " وهى تعنى إلزامهم بمقتضى مابين لهم ، وهذا البيان " يوم القيامة " وفى ذلك من التخويف ما فيه ، ثم هذا البيان الجلىلما كانوا فيه يختلفون ، والتعبير بالمضارع " يختلفون " يدل على أن هذا الاختلاف الذى وقع في الدنيا لم يكن في لحظة عابرة انتهت ، بل استمر طيلة حياتهم حتى قطعه الموت . وهاهم الآن موقوفون بين يدي الله ليروا الحقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، وأن ما طمعوا فيه ، ومن أجله باعوا دينهم ، ونقضوا عهودهم ، كان وهماً وسرابا، ودنيا فانية لا تستحق شيئا من هذه الخيانات ، ولا أن يعيش الإنسان فيها فاجرا غادرا لئيما خبيثا .

وفى الآية الثالثة : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .. الآية) بيان لسنة الله في خلقه للإنسان ، وأنه لو شاء لجعل الناس كالملائكة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، أو كالشياطين العصاة المردة ، ولكنه أعطى الإنسان حرية الاختيار بين البدائل ليكون ما سبق به علم الله من الإيمان والكفر ، والخير

([1]) الفتوحات الإلهية : للعلاَّمة الجمل ٢/٥٩٥

والشر ، والهدى والضلال ، ولذلك كان ختام الآية : " **ولتسألُنّ يوم القيامة عما كنتم تعملون** " وهى جملة مؤكدة بالقسم ونون التوكيد ، تبين وقوع هذا السؤال لا محالة ، وهو سؤال تبكيت لا سؤال استفسار وتفهم ، وهم ما يوحي بأنهم محاسبون على أعمالهم ، ومنها نقضهم لعهودهم ، وخيانتهم لأماناتهم .

وفى الآية الرابعة [**ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم** .. الآية] يوجه إليهم تحذيرا بألا يتخذوا أيمانهم تغطية لمآربهم ، وسترا لأطماعهم، وخديعة لغيرهم ، فهذا يؤدى إلى الانحراف عن طريق الحق،والصد عن سبيل الله ، لأن من جعل الدنيا همه ساقته إلى الكذب والغدر والخيانة والفجور ، فهو لايبالى بدين ولا خلق ، يعبر عن ذلك أصدق تعبير قولُه : " فتزلَّ قدم بعد ثبوتها " إذ من تمسك بحبل الله ، وألزم نفسه بشريعة الإسلام ثبتت قدمه على طريق الحق ، ومن أغواه الشيطان وأضله ، زلت قدمه عن ا لطريق ، وكان من الهالكين ، يعبر عن هذا المصير المشئوم قوله : "**وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم**"

وفى الآية الخامسة (**ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا** .. الآية وما بعدها) يلفت أنظارهم إلى ما يجب عليهم أن يعلموه ويعقلوه من أن الإنسان في الدنيا إنما خلق لعبادة الله ، وأنه في سوق الحياة يعرض عليه الخير والشر ، والإيمان والكفر ، وعليه أن يختار ، ومن رحمة الله أن أرسل إليه رسله وأنزل إليه كتبه ، وهو فيما أنزل إليه من كتابه ينصحه بألا يفرط في عهده معه ، فيبيعه ويشترى به عرضا من أعراض الدنيا ، فإن ثمنها زهيد، وهى لا تساوى عند

الله جناح بعوضة ، وما عند الله من الثواب والنعيم والحياة الامنة المطمئنة خير لهم من الدنيا وما فيها ، ومهما جمع العبد فيها من مال ومتاع فإما أن تفارقه أو يفارقك ، وإذاً لا يبقى إلا ما قدم العبد من عمل صالح يكون له ذخرا عند الله ، والأمر يحتاج إلى صبر : صبر عن المعاصي ، وصبر على الطاعات ، وصبر في مقام الجهاد في سبيل الله ، وصبر على بلاء الدنيا ومحنها ،وهناك يكون الفوز والأجر العظيم بأحسن ما كانوا يعملون ، فإن هناك وعد الله لعباده المؤمنين والمؤمنات أنه من عمل منهم عملا صالحا فليحيينه حياة طيبةً في الدنيا بالأمن والرضا عن الله ، وفي الآخرة بالنعيم المقيم ولذّة النظر إلى وجه الله الكريم ،فهل بعد هذا البيان الجلي يخون مؤمن عهده مع ربه ، أو يرضى بغير ما عند الله بديلاً؟؟

وفي وصايا سورة " الإسراء " يأتي قوله تعالى " **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا**" ([1]) لبين لنا أن كل عهد بين الناس وربهم ، أو بين الناس بعضهم مع بعض يجب الوفاء به ، فإن العبد سيُسأل عن ذلك يوم القيامة ، والتعبير القرآني : " إن العهد كان مسئولا " يصور العهد بإنسان يُسأل عن سبب عدم الوفاء به فيقال له: لم نُكِثتَ ؟ وهلا وُفِّيَ بك ؟ وكم في ذلك من تأنيب وتبكيت لمن نكثوا عهودهم !!

(٣)- ألوان من الوفاء :

حين يأمر الله بالوفاء بالعهد، فإن هذا يشمل كل عهد بين العبد وربه أو بين العبد ونفسه ،أو بين العبد وغيره من الناس ، كما رأينا ذلك فيما نقلناه من كلام الأئمة الأعلام – عليهم رحمة الله

([1]) الإسراء ١٧/ ٣٤

وقد ذكر القرآن والسنة المشرفة ألوانا من الوفاء في جوانب متعددة – منها : الوفاء بعهد العبودية لله ، وقد ذكرنا ذلك في قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟) وفي قوله : (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) .

ومنها الوفاء بالعهد مع رسل الله ، وقد كانوا – عليهم السلام – يبايعون من آمن بهم على توحيد الله وطاعته ، وقد يذكرون في بيعتهم أمورا أخرى تتناسب مع من يبايعونهم ، وهذا رسول الله : محمد – صلى الله عليه وسلم – يبايع الأنصار في مكة بيعة العقبة الصغرى ثم بيعة العقبة الكبرى ، وقد قال عبد الله بن رواحة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليلة العقبة الكبرى : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قالوا : فما لنا إن فعلنا ذلك ؟ قال الجنة ، قالوا: ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. الآية) [1] وهناك بيعة الرضوان ، وقد كانت في الحديبية ، وفيها يقول الله تعالى :{ إن

---

[1] تفسير ابن كثير ٢ / ٣٩١

الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} ويقول :{ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا }([1])

وهناك أيضا بيعة النساء ، وفيها يقول ربنا :{ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ([2])

إلى غير ذلك من العهود والمواثيق التي كان يأخذها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أصحابه في بعض المواقف ، أو يأخذها على من يأتيه يعلن إسلامه .

ومن ألوان الوفاء الذى أمر الله به في دين الله وحث عليه : الوفاء بالشروط التي تشترط في عقد الزواج فإن العلاقة بين الزوجين ميثاق غليظ ، وعهد أكيد ، يجب الوفاء بكل شرط فيه ، وهذا ما جاء به القرآن وهو يحدثنا عن المير وأنه – ميما عَظُم – ليس ثمنا للمرأة ولا يقارن بما يتم بين الزوجين من علاقة خاصة ، قال تعالى : (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ

([1]) الفتح ٤٨ / ١٠ ، ١٨

([2]) الممتحنة ٦٠ / ١٢

مِيثَاقًا غَلِيظًا) [1] وفى الحديث : إن أحق ما وفيتم به من الشروط ما استحللتم به الفروج "[2]

وهناك الوفاء للإخوان والأصدقاء ، وما جاء في كتاب الله من دعوة للتآخي ، ومن بيان لما توجبه الأخوة في الإنسانية ، والأخوة في النسب ، والأخوة في الإيمان ،والأخوة في الله من حقوق ، كل ذلك تجمعه كلمة الوفاء . [3]

والوفاء بالعهد مع غير المسلمين عنوان لعظمة هذا الدين ، ما دام هؤلاء باقين على عهدهم مع المسلمين ، وتأمل ما جاء في "المائدة " من قول الله تعالى : " **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**" ومن قوله : " **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**" [4] فقد اعتبر الإسلام من قصدوا البيت الحرام من المشركين بأنهم يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ، وذلك

([1]) النساء ٤ / ٢١

([2]) متفق عليه – وانظر : الوصايا العشر – للمؤلف صـ ١٧٨،١٧٩ ، والمسلم في عالم اليوم– للمؤلف جـ٢ صـ ٢١٢، ٢١٣

([3]) اقرأ في بيان هذه الحقوق : الفصل الأول والثاني من الباب الأول : الأخوة وحقوقها. من صـ ٩ – ٧٣ من : المسلم في عالم اليوم جـ ١

([4]) المائدة – ٥ / ٢، ٨

بحسبّ اعتقادهم ، وأن موقف أهل مكة من المسلمين وما كان منهم في الحديبية من صدهم المسلمين عن البيت الحرام ، ليس سببا يجعل المسلمين يعتدون على المشركين الآخرين ، فهذا ليس من العدل الذى أمر الله به ، وإذا أحس المسلمون بأن أعداءهم يفكرون في الخيانة والغدر ونقض العهد ، وأراد المسلمون الإغارة عليهم ومباغتتهم بالهجوم فإن دينهم يمنعهم من ذلك قبل إعلان الأعداء برد عهدهم إليهم ، ولذلك يقول تعالى : " **وإما تخافن من قوم خيانة فانْبِذْ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** " ([1]) وفى بيان ذلك يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: " من كان بينه وبين قوم عهدا فلا يحلّن لهم عهدا ولا يشدّنه ، حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم على سواء " ([2])

والمعاهد محفوظ الدم لا يجوز لأحد أن يعتدي عليه ، يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما " ([3])

فإن نقض هؤلاء عهودهم لم يبق لهم عند المسلمين عهد ، قال تعالى : { **وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ(١٢)أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } وهذا في المشركين، ويقول في أهل الكتاب :{ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**

([1]) الأنفال ٨/ ٥٨

([2]) رواه الترمذى وأبو داود

([3]) رواه الشيخان

وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ }([1])

ومن الوفاء في القرآن ما جاء في توفية المكيال والميزان ، وقد ذكر القرآن ما كان من شعيب -عليه السلام – مع قومه ودعوته لهم أن يوفوا الكيل والميزان ، وألا يبخسوا الناس أشياءهم ، وقد جاء ذلك في " الأعراف" و" هود " و"الشعراء" ففي " الأعراف " يقول ربنا : {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.. الآيات} ([2]) وفى " هود " يقول : (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ.. الآيات) ([3]) وفى الشعراء : (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ(١٧٦)إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ(١٧٧)إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٧٨)فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(١٧٩)وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٨٠)أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ(١٨١)وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ(١٨٢)وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.. الآيات) ([4])

([1]) التوبة ٩ / ١٢، ١٣ ، ٢٩

([2]) الأعراف ٧ /٨٥

([3]) هود ١١ /٨٤

([4]) الشعراء ٢٦ /١٧٦ – ١٨٣

كما ذكر القرآن ما كان من " شعيب " وقومه في سور أخرى وإن لم يذكر فيها دعوته لهم بعدم تطفيف الكيل والميزان ، كما جاء ذلك في : التوبة والحجر والحج والعنكبوت و " ص " و"ق"

وجاء محمد – صلى الله عليه وسلم – بالدين الخاتم وفيه الأمر بإيفاء الكيل والميزان، يُذْكَر ذلك في القرآن في عدة مواضع : في : الأنعام والإسراء والرحمن والمطففين ، ففي " الأنعام " في الوصايا العشر يقول : **(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا..)** [1] وفى " الإسراء " يقول :**(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)**[2] وفى " الرحمن " يقول :**(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(٧)أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ(٨)وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(٩))** [3] وفى " المطففين " يقول : **(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ(١)الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(٢)وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ(٣)أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ(٤)لِيَوْمٍ عَظِيمٍ(٥)يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)** [4]

ولعلنا نستطيع من خلال هذا الفيض الإلهي أن نقتطف بعض ما يؤكد منزلة هذا اللون من الوفاء ، وأول ما نلمحه هو التأكيد على النقاء في التعامل بين الناس ، فالأمر ليس مجرد إنقاص حبات من

([1]) الأنعام ٦ / ١٥٢

([2]) الإسراء ١٧ / ٣٥

([3]) الرحمن ٥٥ /٧ – ٩

([4]) المطففين ٨٣ / ١ –٦

كيل أو عدة جرامات من وزن ، إنما الأمر في الدافع الذى دعا إلى هذا السلوك ، إنه غش الناس ، وخيانتهم وسرقتهم ، ومن فعل ذلك فعل ما هو أكبر من ذلك وأعظم .

والأمر الثاني هو : ارتباط المعاملات بالدين ، وقد فهم قوم شعيب أن المعاملات سلوك بشرى لا علاقة له بالدين ، فقالوا لشعيب : " أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ(٨٧)قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" (1) ولهذا جاء الإسلام بتحريم تطفيف الكيل وبخس الميزان، كما جاء بتحريم الاحتكار والغش والتدليس والربا وغير ذلك مما فيه إضرار بالناس، لتبقى المعاملة الكريمة التي لا ظلم فيها ولا تزوير هي أساس التعامل بين بني الإنسان .

وثالثا : ما جاء من عقوبة رادعة توحي بمدى الخطورة التي حاقت بمن ساروا في هذا الدرب المظلم : درب الخيانة والغش واستلاب أموال الآخرين ، فهم " إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون " والقرآن يدعو عليهم بالويل فيقول : " ويل للمطففين " ويسأل سؤال تعجب وإنكار فيقول: " ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم *يوم يقوم الناس لرب العالمين" وفي قصة شعيب ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع

---

(1) هود ١١ /٨٧/ ٨٨

وهو شديد. ثم يقول فيما أنزل من عقوبة بقوم شعيب : " **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٩١)الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ**"([1]) ويقول : **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٩٤)كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ** " ([2]) ويقول : (**وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ(٧٨)فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ**) ([3]) ويقول : (**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) ([4]) ويقول : (**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**) ([5])

رابعا : حين أمر الله بالوفاء بالكيل والميزان ، أراده أمرا لا مشقة فيه ولا حرج ، لأن حساب ذلك بالحبة والجرام قد يكون عسيرا ، ولذلك حين قال : وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، قال: " **لا نكلف نفسا إلا وسعها** " فالذي يريده الإسلام هو صفاء القلوب، ومحبة الناس ، والحرص على ما ينفعهم ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، وألا يكون المسلم وضيع النفس يحتال على أخيه في حبات من كيل أو شيء يسير من وزن ، مما لا يساوي شيئا يذكر ، فهذا

([1]) الأعراف ٦ / ٩١ ن ٩٢
([2]) هود ١١ /٩٤ ، ٩٥
([3]) الحجر ١٥ / ٧٨،٧٩
([4]) الشعراء ٢٦ / ١٨٩
([5]) العنكبوت ٢٩ /٣٧

يدل على مرض في القلوب ، والتواء في الطبع ، وضعف في الإيمان .

ومن ألوان الوفاء الذى أولاه الإسلام عنايته : **الوفاء بالحقوق المادية** ، وقد يكون من السهل على كثير من الناس أداء ما افترض الله عليهم من صلاة أو صيام ولكنهم إذا تعاملوا بيعا وشراء ، وإقراضا واقتراضا لم يثبتوا ، ووجدتهم خونة كذبة ، لا يراعون عهدا ولا ذمة ، ومما يدل على منزلة هذه الحقوق في دين الله تلك الأحكام المفصلة التي نراها في تراثنا الفقهي في باب البيوع وما فيه من أحكام البيع والشراء ، واقرأ في هذا الباب بعض رءوس الموضوعات التي وردت في كتب الفقه ، وستجد منها تلك الأبواب : باب الربا والصرف ، باب بيع الأصول والثمار ، باب السَّلَم ، الرهن ، المفلس ،الحجْر ، الصلح ،الحوالة والضمان ، الشركة ، الوكالة ، الإقرار بالحقوق ، الإقرار بالمجهول ، الغصب، الشفعة،المساقاة، المزارعة ، الإجارات ، إلى آخر ما جاء في ذلك، وفى كل باب من هذه الأبواب تطالعنا الآيات والأحاديث مما لا يتسع المقام لذكره ، وحسبك أن تقرأ في كتب الترغيب والترهيب ، في كتاب البيوع بعض ما ذكره الأئمة في هذا الباب ، ومن ذلك ما كتبه الحافظ المنذري في كتابه : الترغيب والترهيب ، تحت هذه العناوين : الترغيب في الاكتساب بالبيع وغيره ، الترغيب في السماحة في البيع والشراء وحسن التقاضي والقضاء ، الترهيب من بخس الكيل والوزن ، الترهيب من الغش والترغيب في النصيحة في البيع وغيره ، الترهيب من الاحتكار ، الترهيب من

الدَّين.الترهيب من الأيمان الكاذبة الغموس ، إلى غير ذلك مما نراه في هذا الكتاب وغيره ، وإذا كان الإسلام قد أولى الحقوق المادية تلك العناية فإنه جعل الدَّين في مقدمة ذلك ،لم يبح للمسلم أن يستدين إلا عند الضرورة القصوى ، وفى الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " إن الدَّين يقتص من صاحبه يوم القيامة إذا مات إلا من تَدَيَّن في ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته في سبيل الله يتقوَّى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم فلا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضي عن هؤلاء يوم القيامة " ([1]) وفي رواية عند الإمام أحمد أن رسول الله – صلى الله عليه مسلم – قال: " يدعو الله بصاحب الدَّين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقال : يا بن آدم فيم أخذت هذا الدَّين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس؟ فيقول : يا رب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكلْ ولم أشرب ولم ألبس، ولكن أتى عليَّ إما حرق وإما سرق وإما وضيعة . فيقول الله : صدق عبدي ، أنا أحق من قضى عنه ، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته ، فيدخل الجنة بفضل الله" ومن رحمة الله بعباده أ ن حماهم من أنفسهم وشرع لهم ما فيه سعادتهم ، ومن ذلك ما شرعه في كيفية أداء الحقوق لأصحابها ، إذ لم يكتف في هذا بما ساق من آيات تخوف من أكل أموال الناس بالباطل إنما وضع القواعد لمعاملة قائمة على شرع الله وهديه ،

([1]) رواه ابن ماجه

يحرسها إيمان بالله واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار ،وأطول آية في القرآن هي آية الدين ، وفيها ينادى الله المؤمنين بصفة الإيمان ليأمرهم بكتابة الدين ، ويرسم خطا واضحا لكيفية تسجيل هذا الدين وتوثيقه بكل أشكال التوثيق ، ويشرع الرهن في مقابل الدين ضمانا له، ويحدد كيف يكون الرهن ، وهو بين ذلك يرغب ويرهب حتى يتم ذلك كله على أفضل وجوه الأداء، ولندع كلمات القرآن العظيم تعبر عن ذلك فتقول : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(١) أرأيت كيف حفظ الله للناس حقوقهم، وجعل ذلك عهدا وذمة ، فمن خان العهد فقد خسر خسرانا مبينا .

---

(١) البقرة ٢ /٢٨٢ ، ٢٨٣

٤ **العلاج الناجع لعدم الوفاء :**

على من يريد أن يحظى بالخير في دنياه وأخراه أن يكون من الأوفياء ، ولكن ذلك يحتاج إلى بذل وتضحية ، فهل هذا ميسور وسهل ، " لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسّره الله عليه " هكذا قال رسول الله لمعاذ حين سأله عما يدخله الجنة ويباعده من النار ، والوفاء بعهد العبودية لله والاستقامة على أمره ، وأداء ما افترض على عباده هي وسائل دخول الجنة والابتعاد من النار ، وإنه لأمل يداعب النفوس ، ويستولي على المشاعر ، ولكن متى كانت الآمال المجردة وسيلةً لتحقيق ما نرجو ؟ ولذلك يقع الناس في المعاصي ، ويرتكبون الذنوب ، وتراهم يكذبون ويفجرون ويغدُرون ويخونون ، فما أسباب ذلك ؟؟ وإذا عُرف الداء كان الدواء وكان الشفاء بإذن الله .

فلنرجعْ إلى أول معصية وقعت في فجر الإنسانية ، إنها كانت استجابةُ أبينا آدم وأمنا حوّاء – عليهما السلام – لوسوسة عدو الله وعدوهما : إبليس ، فكان أن أكلا من الشجرة المحرمة ، ووقعا في المعصية ، وقد ذكر الله لنا ذلك في : البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه و " ص " وفى سورة " طه " يضع أيدينا على السبب الذى أدى إلى الوقوع في المعصية فيقول : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) (١) وإذا فنحن

---

(١) طه ٢٠ / ١١٥

في حاجة إلى علاج هذين المرضين : النسيان وضعف العزيمة ، فإذا تم ذلك فقد استقام العبد على طريق الوفاء ، وعلاج النسيان بالتذكر ، وعلاج ضعف العزيمة بتقويتها ، ومع وجود هذا الدواء الإلهي ، والعلاج الرباني إلا أن الكثير لا يهتم بـه ، ولا يريد أن يتعاطاه ، وسبب ذلك ضعف الإيمان ، فإذا قوى الإيمان بالله ربا ، وبالآخرة مصيراً ، فإما إلى جنة وإما إلى نار ، بحث الإنسان عن وسيلة للنجاة ، واجتهد من أجل رضا مولاه ، وحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ووزن عمله قبل أن يوزن عليه ، ولذلك نرى آيات القرآن تحث على ذكر الله بكل الوسائل والسبل ، وقد أحصيت – من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – ما ورد في مادة الذكر ، فوجدت أنها بلغت ٢٦٣ مرة ، يضاف إليها ٧ مرات لكلمتي : ادكر ، ومدكر فيكون المجموع (٢٧٠) مرة ، وقريب من معنى الذكر معنى التفكر والعقل ، وقد جاءت الأولى (١٨) مرة ، والثانية (٤٩) مرة كما استعمل القرآن التعبير بـ " أولى الألباب " (أي أصحاب العقول) (١٦) مرة ، وهي تعبيرات جديرة بالتأمل ، ويحتاج كل موضع منها إلى وقفة نقتبس فيها من نور الله ما يضيء لنا الطريق ، وهذا قد يتطلب دراسة خاصة .

أما المرض الثاني ، والذي عبر عنه قوله تعالى : " ولم نجد له عزما " فهو مرض يؤدى بصاحبه إلى الضياع والهلاك ، فمع

اقتناع العقل بالإقدام على الطاعة لله ورسوله ، والتزامُ طريق السداد والرشاد في أمور الدنيا والآخرة ، إلا أن ضعف العزيمة يُقعِد الكثير من الناس عن تحقيق هذه الأهداف النبيلة ، بكل ما فيها من عزة وكرامة ومنزلة عالية ، وتمكين في أرض الله ، وجزاء عظيم عند الله ، ودواء ذلك بالصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية وهذا إنما يكون بالبحث عن الأسباب التي تؤدى إلى عدم الصبر على الطاعات و الصبر عن الشهوات ، و اغلبها أسباب تربوية أو اجتماعية تعود إلى سوء تربية الفرد فينشأ تحت سوط القهر و الكبت و الحرمان ، في أسرة محرومة من الحنان والعطف والرحمة ، و في مجتمع تنتشر فيه الفاحشة ، و يتعامل الناس فيه دون وازع من دين أو خلق ، و كأنهم وحوش مفترسة يعتدي قويها على ضعيفها ، أو سمك في البحار يأكل كبيره صغيره ، و هنا تتهاوى القيم العالية ، و المبادئ السامية ، و لذلك جاء القرآن بإصلاح الفرد و الجماعة و أرسى أسس الحياة الكريمة الفاضلة وتعهد الإنسان في كل مرحلة من مراحل حياته بألوان من التهذيب والتأديب حتى بنى خير أمة أخرجت للناس ، و من يقرأ تاريخ الأنصار و المهاجرين و يدرس حياة الصحابة و التابعين يعلم عن

قرب كيف صنع هذا الدين هؤلاء الرجال الأقوياء ، الذين كانوا نور الحياة و ضياءها ، و نبع السعادة لهذه الدنيا و غذاءها ونماءها ورونقها وبهجتها .. ([1])

ولا سبيل لنا إلا بتجرع هذا الدواء : الذكر الذى لا يَفْتُر لله ، و أن نزيل الأسباب التي تؤدى إلى ضعف العزيمة حتى تقوى و تثبت على طريق الحق و الصدق و الطاعة و الانقياد لله في ما جاء به كتابه و أوضحته سنة رسوله – صلى الله عليه و سلم – وفى ذلك الخير كل الخير .

يقول عبد الله بن المبارك :

ما بال دينك ترضى أن تدنسه وثَوْبَك الدهرَ مغسولٌ من الدنس

ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها إن السفينة لا تجرى على اليبس

والله المستعان.

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

([1]) اقرأ فى بيان هذا المنهج كتابى / منهج القرآن فى تربية المجتمع ط الأولى ١٩٨٠م مكتبة الخانجى – مصر

محتوى الكتاب

